



2.3.2016

نقله عن الفرنسية

بسّام حجّار



إسكندر نجّار

جبران خليل جبران

نقله عن الفرنسية
بسّام حجّار



جبران خليل جبران

صدر هذا الكتاب بالفرنسية تحت عنوان:

Khalil Gibran, l'auteur du Prophète

Pygmalion (2002)

الطبعة الاولى، ايلول 2006
ص. ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693
darannahar@darannahar.com

ISBN 9953-74-105-0

المحتويات

تمهيد

ثمّة لغزٍ يُدعى جبران. منذ عام 1923، تاريخ صدور «النبي»، والعالم أجمع يحتفي بإسمهِ. عام 1996، بلغت مبيعات هذا الكتاب تسعة ملايين نسخة في الولايات المتّحدة الأميركية وحدها. ولطالما إستهوى «النبي»، الذي نُقِل إلى أربعين لغة، جمهوراً واسعاً من القرّاء. ولقد حقّق في ألمانيا نجاحاً لافتاً، فيما إحتلّت مؤخّراً طبعةُ الجيب من ترجمته الإيطالية المراتب الأولى في لوائح الكتب الأكثر مبيعاً. أمّا في الستينات، فكانت الحركات الطالبية و«الهيبيّة» تبنّت هذا المؤلّف الذي يُعلِنُ صراحةً أنّ: «أولادكم ليسوا أولادكم، هم أبناء الحياة وبناتها، في حنينها إلى ذاتها[1]». وإلى يومنا هذا، ما زال البعض يعمد، لمناسبات الزواج أو العَماد، إلى قراءة مقتطفاتٍ من «النبي». والرئيس جون كينيدي، ألم يعمد في إطلاقه عبارته الذائعة:

“ And so, my fellow Americans, ask not what your country can do for you; ask what you can do for your country”,

إلى إستعادة سؤال جبران: «أسياسيّ يقول في سرّه: 'أريد أن أنتفع من أمّتي'؟ أم غيور متحمّس يهمس في نفسِه: 'أتوق إلى نفع أمّتي'؟[2]» حتّى «البيتلز» لم يبقوا بمنأى عن تأثير مؤلّفات الكاتب اللبناني، إذ إَستلهموا هذه الأعمال مباشرةً في

---

[1] جعل ألكسندر ساثرلند نايل عبارة جبران هذه مفتتحاً لمؤلّفه الذائع *«Summerhill: A Radical Approach to Child Learning»*، الصادر عام 1960، والذي يثور فيه على نظامٍ اجتماعي هو أشدّ حرصاً على تعليم أبنائه منه على تربيتهم.

[2] Nigel Rees, *Quotations*, 1997، ص 331.

أغنيتهم الشهيرة «جوليا»... إلى النصب التي تخلّد ذكرى الفنان في لبنان (متحف جبران، وميدان جبران الذي إفتتح عام 2001 في وسط بيروت)، هناك، حيثما إتّجهنا، أماكن وتماثيل ولوحات تخلّد ذكراه: ففي الولايات المتحدة هناك نصبان، أحدهما في كوبلي سكوير في بوسطن، والثاني في واشنطن، وكان قد أزيح الستار عنه في 24 أيار 1991 بحضور الرئيس جورج بوش الذي ألقى كلمةً للمناسبة أكّد فيها أن: «جبران هو رمز سلام... لقد إستطاع، كشاعر وفيلسوف، إستخراجَ 'سرّ البحر من قطرة ماء'. وكان الشعر هو اللغة التي بها استكشفَ أغوار نفسه وأظهر لنا أغوار أنفسنا... وارتقى بنا إلى حيث لم نعتدِ الإرتقاء...»؛ كما أن متاحف مثل «الميتروبوليتان ميزيوم أوف آرت» لمدينة نيويورك، الذائع الصيت، و«فوغ آرت ميوزيوم»، و«بوسطن ميوزيوم أوف فاين آرتس»، و«نيوارك ميوزيوم»، و«تلفير ميوزيوم أوف آرت» لمدينة سافانا في ولاية جورجيا... تمتلك عدداً من لوحات الفنان، فيما افتتحت الجالية اللبنانية في البرازيل مركزاً ثقافياً أطلق عليه اسم «جبران».

ومع ذلك... مع ذلك يبقى جبران غائباً عن معظم المعاجم والمؤلفات الغربية التي تتناول تاريخ الأدب. لماذا؟ فهل يُفسّر هذا النبذ، بحسب أمين معلوف - وتعليله لا يخلو من وجه حق - بحقيقة أن «النبي» عملٌ غير قابل للتصنيف، ويبقى خارج الأنواع المتعارف عليها؟ إنه ليس رواية، وليس بحثاً، وليس قصيدة... إنه لا يندرج في أي نوع أدبي محدّد. ومؤلِفه أيضاً هو مؤلف غير قابل للتصنيف: فهو كاتب عربي يكتب بالإنكليزية، مولود في لبنان وعاش في الولايات المتحدة، على العتبة بين الشرق والغرب... جبران حقّاً كاتبٌ مُحيّر... لقد كُرِّسَت له ولأعماله أعدادٌ لا تحصى من الكتب والأطروحات الجامعية. فهل استُنفِدَ القول فيه؟ طبعاً لا: فرسائله لم تنشر كلّها، وأحد أقربائه في الولايات المتحدة (النحّات خليل جبران) ما زال يمتلك، على الأرجح، عدداً من الوثائق المجهولة. هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء، والذي يسلّط الضوء على عدد من المعلومات المجهولة أو التي لم توثّق كما ينبغي (كرسائل جبران إلى هيلانة غسطين أو قرارات الحجز الصادرة في

حق أسرته أو محفوظات الناشر ألفرد كنوبف)، لا يطمح إلى أن يكون شاملاً، بل يسعى لسردِ مسيرة الفنان ببساطة تحاكي تلك البساطة التي وسمت كتاباته، وأن يوضح ما أمكن، استناداً إلى شواهد ومقتطفات، فكراً مالَ الكثيرون إلى تعقيده بغيةَ إضفاء بُعدٍ فلسفي على أعماله ما كان لِيَزْعمـه، هو، لنفسه. «الأشياء تُقال ببساطة، وبقوة». ذاكَ كانَ نهج جبران. وهو هنا نهجنا نحن أيضاً.

-1-

بشرّي

إلى شرقِ البحر الأبيض المتوسّط، هناك، حيث تلتقي ثلاث قارات وثلاث ديانات، في شماليّ لبنان تقع بشرّي. كما من مبخرةٍ يتصاعد ضباب كثيف من كنفِ الوادي. وعلى نغمات ناي أحد الرعاة السارحين في المراعي، يتسلّق الضباب الصخور، ويتخلّل أشجار السنديان والسرو، ثمّ ينتشرُ مكتنفاً البيوت ذات القرميدِ البرتقالي. غير أنّها ضيعة لا ترضخ لما هو أشدّ من الضباب. ذلك أن بشرّي العصيّة لها بأسُ أبنائها ذوي السحن الملوّحة والشوارب الفاتحين؛ لها صمود أشجار أرز الربّ التي تنتصب، على مقربةٍ منها، شامخةً صلبةً برغم ذراها المائلة؛ أرزٌ ألهمَ الشاعر لامارتين أحد أجمل مقاطع مؤلّفه «الرحلة إلى الشرَق»:

«هذه الأشجار هي الصروح الطبيعية الأوسع شهرةً في العالم. الدين والشعر والتاريخ قد باركتها أيضاً... إنها كائنات سماوية في هيئةِ أشجار».

بشرّي التي أطلق عليها الصليبيون اسم «بويساره» وجعلوها إحدى إقطاعات قومسيّة طرابلس، تكتسي، في نهايات القرن التاسع عشر تلك، طابع الضيعة المتقشّفة وسط طبيعةٍ وعرة. ولم يجانب لامارتين الصوابَ عندما لاحظَ في دفتر أسفاره:

«قرية بشيراي، التي تكاد أن تشابه بيوتُها تلك الصخور التي ملّسها السيل... نهبط إليها عبر دروب منحوتة في الصخر، وهي لشدّةِ انحدارها لا يُخيّل إلينا أنّ أناساً يسلكونها...».

صور فوتوغرافية قديمة[1] تظهر بقعةً معلّقةً بين الأرض والسماء، ذات منازل تقليدية متلاصق بعضها بالبعض الآخر لكي تشكّل سدّاً منيعاً في وجه الغازي، أكان الغازي هو الشتاء أم العثماني. ذلك أن العثماني طالما كان هو العدو: على الرغم من أن البلاد تتمتّع، منذ حلول القوات الفرنسية فيها عام 1860، بقيادة الجنرال الماركيز دو بوفور دوبول، بنظام حكم خاص، هو نظام المتصرّفية الذي يتولاّه أحد الرعايا العثمانيين، المتصرّف، يعيّنهُ الباب العالي ويأتمر بأوامر اسطنبول، فإن مسيحيي الشمال يرفضون التعامل مع هذا الحاكم الأجنبـي ولا يقرّون بأن يقتطع من الأراضي اللبنانية البقاع وبيروت وناحيتي طرابلس وصيدا[2]...

على مقربةٍ من هناك، يقع وادي قاديشا المقدّس الذي اعتبره الأخوان تارو[3] «وادي القداسة المارونية بامتياز... على الذرى والسفوح، وفي قعر الوادي أو منحوتة على أحسن وجه في الصخور، لا يلمح الناظر غلاّ كنائس ومُصلَيّات وأديرة ومحابس. حياة بأكملها من الزهد عَلِقَت بأشواك العليّق، ولبثت معلّقةً شفا جرفٍ سحيق الغور...». من هم إذاً هؤلاء «الموارنة» الذين كانوا يقطنون - وما زالوا - هذه البقعة المقدّسة؟ في أواخر القرن الرابع، بناحية أنطاكية، ذاع صيتُ ناسكٍ صالحٍ يدعى مارون لعلمِه اللافتِ وتقشّفه وبهبةِ المعجزات التي حُبيَ بها[4]. وإذ حَظي بلفتةٍ من القديس يوحنا فم الذهب، كان الأب الروحي لمجموعةٍ من النسّاك الذين أسّسوا، إثر وفاته نحو العام 410، نواة الكنيسة المارونية، وبنوا، تكريماً له، ديراً على ضفاف نهر العاصي. بدءاً بالقرن السابع وهرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له، لاذوا بجبال لبنان الشمالي، وفي حقبة الحروب الصليبية، أدوا

---

[1] غازي جعجع، بشري، بيروت 1999.

[2] كمال صليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، 1967.

[3] Jerôme et Jean Tharaud , *Le Chemin de Damas* (Plon, 1923), ورد ذكره في H. Mallat, *L'Académie française et le Liban* (دار النهار، 2001)، ص253.

[4] Mgr Pierre Dib, *Histoire des maronites*, t.1, Librairie Orientale, 2e éd. 2001 ص4؛ Mgr Said Said, *Les Eglises orientales et leurs droits*, Cariscript, 1989, ص55؛ J-P J.P. Valognes, *Vies et mort des Chrétiens d'Orient*, (Fayard), 1994, ص368.

للفرنجة خدماتٍ لا يستهان بها. كنيستهم التي انضمّت إلى روما حيث أنشأ البابا غريغوار الثالث عشر «المعهد الماروني» **Collegium Maronitorium** في العام 1584، تستخدم السريانية في طقوسها الدينية، وهي إحدى اللهجات الآرامية، لغة المسيح. يبلغ عدد رعاياها اليوم نحو أربعة ملايين نسمة موزعين بين بلاد الأرز طبعاً (حيث يحتفل في التاسع من شهر شباط كلّ عام، بعيد مار مارون) وبين قبرص ورودس وفي بلدان الشتات اللبناني.

مما لا شكّ فيه أن الموقع الأبرز في هذا الوادي هو دير مار أنطونيوس قزحيّا[1]، حَرَم إحدى المطابع الأولى في الشرق. في غارٍ عميق ومعتم، عند مدخل الدير، كان يُعمَدُ إلى تقييد المجانين لتعزيم الشياطين التي تتلبّس أجسادهم، بحسب الاعتقاد السائد آنذاك. كأنّ الجنون كان ضرباً من الهرطقة...

أعطني النايَ وغنِّ — فالغنا سرّ الخلود
وأنين الناي يبقى — بعد أن يفنى الوجود...

هل تخِذتَ الغابَ مثلي — منزلاً دون القصور
فتتبّعتَ السواقي — وتسلّقتَ الصخور؟

هل تحمّمتَ بعطرٍ — وتنشّفتَ بنور؟
وشربتَ الفجرَ خمراً — في كؤوسٍ من أثير؟

هل جلستَ العصر مثلي — بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت — كثريّات الذهب

هل فرشتَ العشبَ ليلاً — وتلحّفتَ الفضا
زاهداً في ما سيأتي — ناسياً ما قد مضى؟

[1] قزحيا: تعبير مشتقّ من السريانية ومعناه: «كنز الحياة».

أعطني الناي وغنِّ وانسَ داءً ودواء
إنما الناس سطورٌ كتبت لكِن بماء[1].

في تلك البيئة التي برعَ في تمجيدها في قصائده، أبصر جبران خليل جبران النور في السادس من كانون الثاني سنة 1883[2]. والده، خليل سعد جبران، الذي يعمل جابياً، كان يصرف وقته في معاقرة الخمرة ولعب الورق. إنه يتحدر من أسرة مارونية، سورية الأصل، قدمت في القرن السادس عشر لتقيم في بعلبك قبل أن تنتقل إلى بشعلي، ثمّ تستقرّ في بشري. «كان طبعه صلفاً ولم يكن رجلاً مُحبِّاً»، على هذا النحو وصفه فيما بعد جبران الذي عانى الكثير من تنكيده وعجزه عن تفهّم الأمور.

والدة جبران، كاملة رحمة، تنتمي إلى عائلة واسعة الانتشار في المنطقة. هي ابنة الخوري اسطفان رحمة، وتزوّجت من خليل إثر وفاة زوجها الأوّل في البرازيل حيث هاجرا سوياً طلباً للثروة، وعَقِبَ إبطال زواجها الثاني من المدعو يوسف الياس جعجع. رزقت من زواجها الأول ابناً يدعى بطرس من مواليد عام 1877؛ كانت شديدة السمرة، نحيلة، وتمتلك صوتاً جميلاً ورثته عن أبيها.

كرّست كاملة حياتها لتربية أولادها الأربعة (إذ ولدت بنتاها، مريانا وسلطانة، في العامين 1885 و1887)، باذلةً ما في وسعها لتوفير التعليم اللائق لهم، وكانت تسرد على مسامعهم حكايات لبنان وأساطيره. في رسالة موجّهة إلى ابن عمّه نخلة بتاريخ 27 أيلول 1910، يتذكّر جبران تلك اللحظات العَذْبَة:

[1] هذه المقتطفات من ديوان المواكب لجبران قد أنشدتها بروعة السيّدة فيروز.

[2] تؤكّد رسالة غير منشورة من جبران إلى بلانش كنوبف (11 آذار 1928) هذا التاريخ الذي أثار في الماضي العديد من التساؤلات (راجع أيضاً: رسالة من جوزفين بيبودي إلى جبران، تاريخ 6 كانون الثاني 1906، ومن جبران إلى مي زيادة، تاريخ 11 كانون الثاني 1921).

«ألا تذكر تلك الحكايات اللذيذة التي كنا نسمعها أيام الشتاء بقرب المواقد بينما الثلوج تتساقط والأرياح تولول بين المنازل؟»

تعلّم جبران، وهو بَعدُ يافعٌ، اللغة العربيةَ بفضلِ أمّه، كما تمرّسَ بالموسيقى والرسم، وألمّ بتعاليم الكتاب المقدّس. كان يصطحب أمّه كلّ يوم أحد إلى الكنيسة، ليشارك في القدّاس المقام بحسب الطقس الماروني، محاولاً أن يحفظ غيباً ما يتردّد خلاله من عبارات سريانية دون أن يفقه شيئاً من معانيها. وإذ تنبّهت كاملة إلى ميول ابنها الفنية أهدت إليه ألبوماً مصوّراً عن ليوناردو دافينشي. فكان وقع هديّتها عليه وقعَ الكَشْفِ المباغت: لقد أُخِذَ جبران بأعمال الفنان الإيطالي المعبّرة. وقد وصف فيما بعد هذا الاكتشاف بقوله إنّه لم يتمعّن يوماً في عملٍ من أعمال ليوناردو دافنشي دون أن ينتابه شعورٌ بأنّ قَبَساً من روح هذا الفنّان يتغلغل في نفسِه. وأضاف قائلاً إنه كان طفلاً عندما اطّلع للمرّة الأولى على رسوم هذا الإنسان الخلاّق. وهو لن ينسى تلك اللحظة طوال حياته؛ فقد كان لهذه الرسوم، في تلك الفترة من حياته، تأثير مشابهٌ لتأثير البوصلة على مركبٍ تائه في كنف الضباب...

وللتعبير عن تأثّره العميق بأمّه، لم يغفلِ المؤلّف الشاب عن امتداحِ فضلَها عليه في كتابه «الأجنحة المتكسّرة»:

«إنّ أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة 'الأم' وأجمل مناداة هي: يا أمي. كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحبّ والإنعطاف، وكل ما في القلب البشري من الرقّة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي العزاء في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فَمَن يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه...».

وعند وفاة أمّه كتب إلى إبن عمّه نخلة في بشري قائلاً:

«أمّا من جهة الأمتعة التي وجدتها في صندوق المرحومة والدتي فهي مع كونها بدون قيمة كبيرة وليس بينها شيء ثمين أريد من صميم قلبي أن أحصل على

أكثرها لأنها مما تركته والدتي التي أقدّس ذكرها وأحترم آثارها...».

وإلى مي زيادة، صديقته المقيمة في القاهرة، كتب قائلاً:

«أما أنا فقد ورثت عن أمي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي (لا أقصد بذلك أنني أماثلها من حيث الحلاوة والوداعة وكبر القلب)...»[1].

إنقضت الأعوام الأولى من حياة جبران هيّنةً لامبالية، على الرغم من المشادات المتكرّرة بين أبيه وأمّه، وسقطةٍ عنيفة تعرّض لها أثناء سيره على حافّة جرف برفقة أحد أبناء عمومته، أصيب على أثرها بإنخلاع كتفه ما أقعده «أربعين يوماً»، مصلوب الذراعين، ممدّداً على لوحِ خشبٍ بمثابةِ فراش.

في تلك الفترة حظيَ الفتى المَوهوب بإهتمام «طبيب شاعر» من أبناء بشري، يدعى سليم الضاهر[2]، شمله برعايته ونمّى فيه شغفَ الأدب والفن. وقد حفظ له جبران جميله. فلمّا بلغه نبأ وفاته عام 1912، كتب إلى عائلته معزياً بعبارات صادقة قال فيها إنّ مواهب الفقيد ومزاياه فريدة من نوعها وإنه مدينٌ له بتلك اليقظة المعنوية التي طبعت مراهقته بفضل محبّته وعطفه... وفي كلمة رثاء له كُتِبَت بتاريخ 22 تموز 1912، أهاب بمواطنيه (أبناء الأرز) ألاّ يبكوا «فتى الأرز» لأن «من يبلغ المنايا وهو جميل الروح نبيلها تجدّد المنايا أيامه وتوقفه ثانيةً أمام وجه الشمس...».

إلتحق جبران في البداية بمدرسة مار إليشاع حيث لقنّه الأب جرمانوس مبادىء اللغتين العربية والسريانية. ثمّ التحق بمدرسة بشرّي الابتدائية حيث لقنه الأب سمعان مبادئ القراءة والكتابة. كثير من الطُرَف والحكايات تُروى عن تلك الحقبة، غير أن التثبّت من صحّتها يبدو مستحيلاً الآن: إذ يُروى، على سبيل المثال، أن الخوري عاقبه ذات يوم بنسخ درسه في السريانية عشر مرات لأنه لم يحفظه. ولمّا

[1] جبران خليل جبران: **الشعلة الزرقاء**، رسائل حب إلى مي زيادة، دار النهار، 2004.

[2] من مواليد بشرّي سنة 1865، تابع سليم الضّاهر دروسه في مدرسة الحكمة، ثمّ نال سنة 1887 شهادة في الطبّ من الجامعة الأميركية في بيروت.

دنا من التلميذ المعاقب للتثبّت مما يفعله وجد أنه منصرفٌ إلى رسم حمار ساهم وقد إعتمر قلنسوة سوداء! ويروي ميخائيل نعيمة، الذي كان صديقَاً له، أنّ جّبران كان في صغره يستخدم كسرةً من الفحم لكي يخط على الجدران رسومَه الأولى. كما يؤكّد أنهم عثروا على جبران، يوم الجمعة العظيمة، في مقبرة القرية، حاملاً باقة من أعشاب بخور مريم. فهو، لحداثةِ سنّه، لم يتمكّن من الإنضمام إلى الأولاد الآخرين في حملتهم لقطف الزهور التي توضع على الصليب خلال رتبة دفن المسيح التي تقام في الكنيسة، وسرعان ما فقد أثره، مثيراً لدى الأهل مشاعر القلق والفزع. وعندما أقبلت عليه أمّه لتؤنبه على فعلته حكى لها كيف أنه لدى وصوله إلى الكنيسة لكي يضع الزهور التي قطفها بنفسه، وجد الكنيسة مقفلة. عندئذٍ قصَدَ المقبرة بحثاً عن قبر المسيح لكي يضع الزهور عليه! أما برباره يونغ، رفيقة الأيام الأخيرة، فتزعم أن جبران كان في الرابعة من عمره عندما كان «يطمر أوراقاً في التراب، ثمّ يلبث بقربها ريثما ينبت الورق!».

ترعرع جبران إذاً في كنف تلك البيئة المحافظة، وسرعان ما تميّز بمهاراته الفنية الملحوظة وبمخيلته الجامحة التي استدعت سخرية رفاقه منه فلقبّوه «الحالم»... وسوف تشكّل هذه المخيلة الخصبة إحدى مزايا جبران الكاتب - أعماله جميعها زاخرة بالرموز والاستعارات - وإحدى سيّئات جبران الإنسان، إذا جاز لنا الفصل بين الكاتب والإنسان. فجبران نرجسي، ومَثَلُه في ذلك مَثَلُ عدد كبير من الفنانين: إنّه مدّعٍ أحياناً، يعبّر عن نفسه في صيغة الغائب. كما أنه يستنجد بمخيّلته للتعويض عن مكامن ضعفه. ومثل معظم الشرقيين، يبدي نزوعاً فطرياً إلى المباهرة والأختلاق: وهو لن يتردّد، إذا إقتضى الأمر، ومن دون سبب، في تحوير الحقائق المتعلّقة بسيرته الذاتية، زاعماً، على سبيل المثال، أنه مولود في بومباي، في الهند، وأن القصائد الرومانسية التي كان ينظمها في صغره راجت وأصبحت أناشيد شعبية في سوريا ومصر، وأنه تلميذ أوغوست رودان أو أنه تعرّض لمحاولة اغتيال في باريس على يد الأتراك... فهل لأحدنا أن يلومه؟ كُثُرٌ هم الكتّاب الذين اختلقوا لأنفسهم سيراً مغايرة، وأقاموا في أدوار لا تشبههم! أليس لجوء المرء، على

غرار ما فعل همنغواي وسويفت ويتس ومالرو، إلى خلق - أو معاودة خلق - شخصيّته، كما تخلق الشخصيّة في الروايات، ضرباً من الحريّة التي يدّعيها الكاتب لنفسِه تماماً كالحقّ في جعلِ التاريخ ذي حبكة روائية (بحسب عبارة الكسندر دوما الذائعة: «إني أغتصب التَاريخ، غير أني بذلك أستولده ذريّةً حَسَنة») أو في جعل الأمكنة الخيالية إطاراً للسرد كما لدى رابله أو جول فِرن؟ ألم يصرّح روب غرييه، في حديث أجرته معه صحيفة «لوموند» مؤخّراً، بالقول ِ«إنّه لا يتحرّج مطلقاً، في سياق تدوين سيرته الذاتية، من اختلاق أمور حوّرتها الذاكرة»؟ عندما يُقال في الشرق إنها «كذبة بيضاء»، فهذا يعني أنها كذبة غير مؤذية ولا تبعةَ لها. «لقد رويتُ أكاذيب كثيرة في حياتي، غير أنني لم أكن يوماً غير صادق»: إذا صحّ أنّ جبران قد كذب، فالأحرى القول إنّ أكاذيبه كانت «بيضاء».

في كنف الطبيعة، قضى جبران أياماً هانئة بصحبة أخيه غير الشقيق وشقيقتيه. كم أحبّ العواصف التي تعصف بالمنطقة في فصل الشتاء، والتي استلهم منها، فيما بعد، لوحة («عاصفة»)، وعنوان كتاب («العواصف») وعدداً آخر من النصوص. في إحدى رسائله إلى مي زيادة، كتب قائلاً:

«إنّي أحبّ عواصف الثلج محبّتي لكلّ أنواع العواصف».

وفي إحدى رسائله إلى ماري هاسكل:

«لقد هبّت العاصفة الرهيبة التي كنت أنتظرها. السماء ملبّدة، والبحر مزبد، وأرواح الآلهة المجهولة تطوف بين السماء والبحر... ما الذي في العاصفة يهزّ كياني على هذا النحو؟ لمَ أجدني أفضل وأقوى وأكثر ثقة بالحياة، عندما تهبّ عاصفة؟ لا أدري. أحَبّ العاصفة أكثر من أي شيء آخر في الطبيعة...».

تشبّع جبران بروعةَ المناظر الطبيعيّة الخلاّبة، من الوادي المقدّس إلى بعلبك، ومن البحر الذي إكتشفه للمرّة الأولى وهو في الثامنة، إلى مرجحين، في الهرمل، حيث كان والده يمتلك مزرعةً وحيث كان يلتقي، خلال فصل الصيف، صديقيه

المسلمين أحمد علوّ وصادق علاّم[1]. تشبّعت ذاكرته بتلك الصور التي ستغذّي، فيما بعد، عالمه الشعري. هل نعدّد نواحي التأثير الذي خلّفته بشرّي على الأدب الجبراني؟ كلّها: الشمس، الأعاصير، المراعي، القمح، الآس، الضباب، الريح، السواقي، «أسرار التلال وأناشيد الغابة»، المحراث، الناي، القصب، أعمال القرويين (الذين يذرون، ويغربلون، ويهرسون...)، ماثلة في كلّ كتاب من كتبه، خصوصاً في «النبيّ» حيث الرموز كلّها تنبع من مَصْوَرة القرية، مسقط رأس المؤلّف. حتّى في أواخر حياته، في كتابه «التائه»، لن يجد جبران بديلاً من بشري كإطار مكانيّ لقصصه («الهدايا الثلاث»)، في وادي قاديشا («النهر») أو على أحد سفوح جبل لبنان («الطريق»)، مؤكّداً بذلك ارتباطه العضوي بعالم طفولته.

يقول مارون عبود في هذا السياق: «أقرأ جبران في كل ما كتب، من «دمعة وإبتسامة» إلى «الأجنحة المتكسّرة»، إلى «النبي» فـ«يسوع إبن الإنسان»، و«آلهة الأرض»، نرَ أن الشاعر أو الكاتب جبران – سمّه ما شئت – لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره، فكأنه يكتب في محيط شرقي، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج الدواليب وزئير صواريخ المعامل والبواخر. وهو في أروع ما كتب باللغة الإنكليزية لا يتعدّى هذه الحدود، فالليل والناي، والوادي والنهر، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الأولى. يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة، فكأن جرن المعصرة كان سريره، والضباب أقمطته والبيدر ملعب صبوّته. وهنا يعمل فيه شيئان: لبنان والتوارة»[2].

ولا تختلف في ذلك أعماله التصويريّة التي تتخذ، على الدوام، كخلفيّة أو كإطار، مناظر شبيهة بتلك التي نجدها في بشرّي: جبال وعرة المسالك تتّشح بألوان زهريةٍ أو زرقاء، هضاب صخريّة، وديان سحيقة، ينابيع... ولوحات مثل «رقص وإيقاع» و«الهبة» و «نشأة المأساة» و«امرأة تكتشف الطبيعة» تعيد كلّها رسم تلك

[1] فؤاد أ. البستاني، **الفصول**، عدد 7، صيف 1981؛ هنري زغيب، مع جبران في مرجحين، **النهار**، 15 و17 تشرين الأول 2001.

[2] مارون عبود، **مجدّدون ومجترّون**، دار مارون عبود/ دار الثقافة، الطبعة الخامسة، 1979، ص 242.

البيئة التي أتيح لجبران أن يعرفها. عن ذلك يكتب في «الأجنحة المتكسرة»:

«وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عينيّ عن هذا المحيط إلاّ رأيت تلك الأودية المملوءة سحراً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذنيّ عن ضجّة هذا الاجتماع إلاّ سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون. ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن وأتشوّق إليها تشوّق الرضيع إلى ذراعي أمّه».

بأهوَن السبل تعلّم جبران أنّ «التسامح هو المحبّة المريضة بكبريائها». في بلدٍ تشترك الطوائف المتعدّدة في سكناه («لبنان أكثر من بلد، إنّه رسالة»، يقول البابا يوحنا بولس الثاني)، اكتشف معنى التعايش، والقبول بالآخر. ولم يجانب الكاتب اللبناني مارون عبّود الصواب عندما قال إنّ شعوب الأرض قاطبةً مرّت بهذه الأرض، وقاتلت بعضها بعضاً ثمّ غادرت، مخلّفةً لنا مواريثها الثقافية... ومن هذه كلّها تكوّنت ذهنيتنا بحيث أنّ ما من أمّة في الأرض تعرف مثل هذا التشابك في الأفكار. ويضيف قائلاً إنّ الوافد إلى لبنان يجد فيه الأديرة والمعابد، القلاع والحصون، الكنائس والكاتدرائيات والمساجد والمدرجات والملاعب. فوق كلّ قمّة دير، وعلى كلّ هضبة تجد معبداً أو قلعة، وفي كلّ وادٍ ملاذاً حصيناً...

ذات صباح، ردّت امرأة من أهل بشرّي بعنف على بائع زيت جوّال من الطائفة الأرثوذكسيّة، بذريعة أنّ هذا الأخير لا ينتمي إلى الطائفة المارونية، الأمر الذي أغضب والد جبران الذي لا يقرّ بهذا التمييز فعمد إلى شراء الزيت من البائع المسكين ثمّ دعاه لتناول طعام العشاء معهم، ما أثلج قلب ابنه وأشعره بسعادة غامرة. ألا تنبئنا هذه الحادثة بأنّ أسرة جبران، خلافاً لأسر لبنانية أخرى بقيت تحت تأثير النزاع الدموي الذي دار بين الدروز والموارنة عام 1860، كما لا تزال اليوم، تحت تأثير حرب «أهلية» دامت 15 عاماً ولم تندمل جروحها بعد، كانت بعيدة كلّ البعد عن التعصّب والطائفيّة – التي هي لباس التعصّب المهندم؟ طبعاً. أضف إلى ذلك المنفى في أرض غريبة، كون التسامح هو مطلب المنفي الراغب في

الاندماج في بيئته الجديدة...

لبث جبران، الغارق في حنينه إلى بلده وطفولته، مستغرقاً في استذكار ماضيه بما يشبه النشوة. ولقناعته العميقة بأنّ «التذكّر هو ضربٌ من اللقاء»، لم يفوّت فرصةً في مشاطرة أصدقائه اللبنانيين تلك الصور التي حفظها من عهد الطفولة المبارك:

«في طفولتي كنا نقصد الكنيسة - جميع أهل القرية كانوا يقصدونها -، ليلة عيد الميلاد. كنّا نسير على الثلجِ الصامت العميق. نسلك الدربَ في الليل حاملين المصابيح... عند منتصَف الليل، يتعالى قرع الأجراس وأصوات المسنّين والأطفال مرتّلين نشيد الجلجلة القديم. وتنفتح قبّة الكنيسة الصغيرة على السماء...».

كما كتب في رسالةٍ إلى ابن عمّه، نخلة، المقيم في البرازيل، قائلاً:

«وقد رأيت خيالات عواطفك بين سطور رسالتك كأنها جاءت من البرازيل لترجع إلى قلبي صدى الأودية والطلول والسواقي المحيطة ببشرّي. الحياة يا عزيزي أشبه شيء بفصول السنة. [...] فهل يأتي ربيع حياتنا ثانية فنفرح مع الأشجار ونبتسم مع الأزهار ونركض وراء السواقي ونترنم مع العصافير مثلما كنّا نفعل في بشري عندما كان بطرس حيّاً - هل تعود العاصفة وتجمعنا مثلما فرّقتنا - هل نرجع ونجلس بقرب مار سركيس وعلى نهر النبات وبين صخور مار جرجس؟ [...] وأجمل ما في هذه الحياة يا نخله هو أنّ أرواحنا تبقى مرفرفةً فوق الأماكن التي تمتعنا فيها بشيء من اللذة. وأنا من الذين يحفظون ذكرى الأشياء مهما كانت بعيدة ودقيقة ولا يدعون خيالاً من خيالاتها يضمحل مع الضباب، وقد يكون احتفاظي بأشباح الأيام الغابرة سبباً لكآبتي وانقباضي في بعض الأحايين ولكني لو خيّرت لما أبدلت بأحزان قلبي أفراح العالم كلّه...».

في 28 آذار 1908، يستذكِر عهدَ الطفولة في رسالة، من بوسطن، إلى صديقه أمين الغريّب، الناشر وصاحب جريدة «المهاجر» اليومية الصادرة باللغة العربية في

نيويورك، الذي كان عائداً إلى لبنان، قائلاً:

«اذكرني يا أمين عندما ترى الشمس طالعة من وراء صنين أو من وراء فم الميزاب، اذكرني عندما ترى الشمس جانحةً نحو الغروب وقد وشحت الطلول والأودية بنقاب أحمر كأنها تذرف لفراق لبنان الدماء بدلاً من الدموع، واذكرني عندما ترى رعاة المواشي جالسين في ظلال الأشجار ينفخون بشبّاباتهم ويملأون البرية الهادئة أنغاماً كما فعل أبولون عندما نفته الآلهة إلى هذا العالم، اذكرني عندما ترى الصبايا حاملات على أكتافهنّ آنية الماء، اذكرني عندما ترى القروي اللبناني يفلح الأرض أمام عين الشمس وقد كلّلت قطرات العرق جبينه ولَوَت المتاعب ظهره، واذكرني عندما تسمع الأغاني والأناشيد التي سكبتها الطبيعة في قلوب اللبنانيين، تلك الأغاني المنسوجة من خيوط أشعّة القمر، الممزوجة برائحة الوادي المنسوجة مع نسيمات الأرز...».

ثمّ في 18 شباط 1913:

«قف على إحدى قمم لبنان صباحاً وتأمل بطلوع الشمس وانسكاب شعاعها الذهبي على القرى والأودية، وابق هذه الصورة السماوية مرسومة على لوح صدرك لكي نراها عندما تعود إلينا...».

إنّ هذا الارتباط العاطفيّ الذي يبديه الكاتب بمسقط رأسه، والذي تؤجّجه الهجرة من دون شك، يجد أوضح تعبير له في كتابه «يسوع ابن الإنسان» حيث يشبّه وجه المسيح بقمم لبنان الوعرة، وحيث ينتقي المسيح تلاميذه من أهل الشمال وسفوح لبنان، ويسأل الله أن يكون ثلج لبنان كفنه... ففي آخر الأمر هل كان جبران ليمثّل ذاك الجسر بين الشرق والغرب لو لم يكن لبنانياً؟ طبعاً لا: ذلك أنّ انفتاح اللبنانيين على العالم - بفعل التجارة والهجرة والإرساليات العديدة التي إستقرّت في البلد -، وتفاعلهم مع الثقافات الأجنبيّة - سبع عشرة حضارة تعاقبت على أرضهم -، وميلهم إلى تمثّل الأفكار الوافدة... هي صفات تجتمع

كلّها في شخصيّة جبران وتجعل جورج دوهاميل محقّاً في ما قاله عام 1947 في مقالته التي نشرتها صحيفة «لوفيغارو» بعنوان: «نافذة بين عالمين» حيث نقرأ هذه السطور المعبّرة

«لبنان هو موطن التأثير المتبادل وسط هذا الغشاء غير المرئيّ، غير القابل للاختراق في الأغلب، الذي يفصل بين مجتمعين بشريين. لقد أورد كيبلنغ، في أحد مؤلفاته، عبارة ذائعة مفادها أنّ «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يتوصّل هذان العالمان إلى التفاهم يوماً». غير أنّ المسافر الذي يتأمّل ملياً في المجتمع اللبناني يدرك أنّ كيبلنغ قد أخطأ في حكمه ذاك. فهذا الجمعُ الذي عبّر عن يأسِه من احتمال تمامه، والذي يدعونا حقّاً إلى اليأس منه، أحياناً، قد تظهر بوادره في لبنان أولاً[1]...».

فلا عَجَبَ إذاً، ان يكون جبران قد كتب بالعربية تلك الكلمات المحفورة عند قاعدة تمثاله، في وسط بيروت، والتي تقول:

«لو لم يكن لبنان وطني، لاتّخذت لبنان وطني».

***

عام 1891، إنقلبت الأمور رأساً على عقب: إعتُقِلَ والد جبران متهماً بإساءة الأمانة في جباية الرسوم. ولم يؤدّ إصرار كاملة على براءة زوجها إلى الإفراج عنه. فجاء الحكم قاسياً إذ إعتبره مسؤولاً عما نُسِب إليه وحُجِزَت أملاكه. «أملاك وبساتين وحقول، وكذلك الأمر دارة العائلة بكل ما تحتويه من متاع له قيمة، من كتب وأثاث، بعضها إرث تناقلته العائلة أباً عن جدّ ولأجيال متعاقبة، لقد صادروا كلّ شيء»، سيقول جبران فيما بعد. اقتيد والده إلى بيروت حيث أودع السجن وضاقت سُبُل العيش بوجه كاملة. فاحتارت بأمرها، ماذا تفعل؟ وإلى

[1] أورده هيام ملاّط، المرجع المذكور، ص 261. وقد وردت عبارة كيبلنغ الذائعة في «أنشودة الشرق والغرب» في *Sixty Poems*، ص 97.

أين تذهب؟ وكيف تعيل أولادها الأربعة وهي لا تمتلك مورداً؟ دفعتها فطرتها إلى التفكير في الهجرة. فقد سبقها إلى ذلك عدد من أهل بلدها الذين ضاقت بهم سبُل العيش وأرهقتهم الضرائب، فهاجروا طلباً لملاذ تحت سماواتٍ أرحب: إذ يُقدّر عدد الذين غادروا مرفأي بيروت وطرابلس، بين عامي 1860و1914، قاصدين القارّة الأميركية، بنحو 330 ألفاً[1]. بعض هؤلاء جمع ثروة؛ وبعضهم الآخر، كزوجها الأوّل، لم يعد. صمّمت على الهجرة، ولكن كيف تتدبّر تكاليف السفر؟ فعمدت إلى بيع الأملاك القليلة التي ورثتها عن أبيها وبعض الأدوات التي غفل عنها دائنو زوجها، وسعت لوساطة أحد المطارنة لدى السلطات الأميركية للحصول على تأشيرة الهجرة، وتلقّت من الجامعة الأميركية في بيروت، التي كانت تعرف آنذاك بالكليّة السورية، خطاب توصية لتسهيل الإجراءات اللازمة[2].

عام 1895، غادرت العائلة من طريق البحر. الوجهة؟ العالم الجديد... بوسطن - هناك حيث هبط عام 1845، كما قد يهبط المرء على سطح القمر، أول مهاجر لبناني.

[1] إيلي صفا، **الهجرة اللبنانية**، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1960. ويخفّض بعض الباحثين هذا الرقم إلى 217 ألفاً (أ. أتات، «الهجرة والشتات اللبناني في العالم»، **الدفاع الوطني اللبناني**، تشرين الأول 2001، ص 40).

[2] Antoun Ghattas Karam, *La vie et l'œuvre littéraire de Gibran Khalil Gibran*, Dar-Annahar, Beyrouth, 1981, ص 18؛ و Jean-Pierre Dahdah, *Gibran, une biographie*, Albin Michel, 1994، ص 68.

-2-

العالـم الجديـد

في 17 حزيران 1895 وصلت كاملة وأولادها إلى ألّيس آيلند[1]. كان جبران فتىً في الثانية عشرة من عمره وأمامه الكثير ليتعلّمه عن تلك «المدنيّة السائرة على دواليب». وقد نقلت عنه بربارة يونغ أولى الذكريات التي انطبعت في ذهنه فورَ وصولهم:

«إنها الليلة التي أمضاها في أولد برفورت هاوس، في الجادة الخامسة، الشارع الثامن، في مدينة نيويورك. وقد جال متسكّعاً في اليوم التالي، في عربة قديمة، سالكاً الجادة قبل عودته مجدداً إلى الفندق».

بعد ذلك بفترة قصيرة، انتقلت العائلة إلى بوسطن. بوسطن! كلّ القضايا الكبرى في التاريخ الأميركي ترتبط بهذا الإسم: الثورة، الإستقلال، إلغاء نظام الرقّ، تحرير المرأة... بوسطن، المدينة الرائدة في ولاية نيو إنغلند، المأهولة في ذلك الوقت بنحو نصف مليون نسمة، هي في المقام الأول العاصمة التاريخية للولايات المتحدة: على مقربةٍ منها، أنزلت الماي فلاور **Mayflower** عام 1620، مئةً واثنين من المستوطنين الهاربين من إنكلترا... وحيث يقيم لبنانيون وسوريون في حيّ «ساوث أند»، في ظروفٍ صعبة، أقام آل جبران لدى أقارب لهم كانوا هاجروا من بشرّي إلى بوسطن قبل ذلك بخمسة أعوام. ثمّ انتقلوا للإقامة في الطبقة الخامسة

[1] لقد عثر روبن واترفيلد في محفوظات مدينة نيويورك (القطاع الشمالي الشرقي) على التاريخ الدقيق لوصول عائلة جبران (*Khalil Gibran, un prophète en son temps*, Fides, 2000، ص 24).

من مبنى عتيق يقع في «بيتش ستريت»، رقم 9، «أوليفر بلايس»[1]. المسكَن المتواضع الذي أقاموا فيه كان معتماً، حيث حلّ صخب الشارع محلّ عذوبة تدفّق الشلالات في الوادي المقدّس؛ وحيث الروائح الكريهة المنبعثة من المكبّات المحيطة التي تغزوها جحافل الذباب والكلاب الشاردة. ولكن لا همّ! كانت الأولويّة في نظرهم جميعاً هي البقاء. إذ دأب ربّ الأسرة الذي لبث في الوطن على تزويدهم بمبالغ ضئيلة من المال، راحت تتناقص مع الوقت.

إزاء تلك الظروف الشاقّة، عمد بكر العائلة، بطرس، إلى البحث عن عمل، فعمل أجيراً في محلّ لبيع الأقمشة. كان الفتى الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره مثابراً في عمله جلوداً: فغايته كسب ما يكفي من المال لتعليم جبران، وإعالة سائر أفراد الأسرة. أمّا كاملة فقد زاولت، كمعظم اللبنانيين المغتربين في البداية، تجارة «الكشّة» حاملةً صرّة بضائعها على ظهرها، منتقلة من بيت إلى بيت، لبيع البياضات والدانتيلا والحرائر المنسوجة في سوريا. وكان عليها أن تعاني من تقلّبات الطقس ومهانة الصدّ من قبل الزبائن الذين يعاملونها كمتشرّدة. لذلك سرعان ما تخلّت عن تجارة «الكشّة» وإنصرفت إلى أعمال الخياطة تعينها في ذلك ابنتاها سلطانة ومريانا اللتان ستعملان، فيما بعد، في دكّان بطرس.

رغبةً منه في صنع قدره بنفسِه، عن طريق العلم والمعرفة، التحق جبران بمدرسة كوينسي المجانية، فِي الحيّ السوري من المدينة، حيث يتجاور العرب واليهود والصينيون ومهاجرو أوروبا الشرقيّة. وفي كنف «بوتقة الإنصهار» تلك التي تعكس الوجه الحقّ لأميركا، ترسّخت لديه مبادئ التسامح. وهناك تعلّم القراءة والكتابة بالإنكليزية. وإذ لاحظت معلّمته ميله إلى الأدب أهدته، ذات يوم، كتاب «كوخ العم توم»، وحثّته على مزاولة الرسم بعد أن أوصت به إلى أحد الفنانين المحليين الذي تنبّأ له بمستقبل باهر. وكانت هي التي اقترحت عليه حذف اسمه الأوّل «جبران» وتقديم الحرف الثالث (a) على الثاني (h) في كتابة اسمه الثاني بالإنكليزية Khalil،

[1] بات هذا الحي اليوم جزءاً من «الحيّ الصيني» (شايناتاون).

ظنّاً منها أنّه بذلك يسلُسُ الإسم لفظاً وكتابة: Kahlil Gibran[1]. قَبِلَ الفتى باقتراح المعلّمة. وسوف يُعرَف، فيما بعد، بهذا الاسم في أميركا.

تردّد جبران على هذه المدرسة طوال عامين، وبقيت ذكراها محفورة في ذهنه، فهو يقرّ بأنّ عاميه الأولين في بوسطن كانا أشدّ سنوات عمره بؤساً. فقد كان معينه الوحيد متمثلاً بمدرّسيه الذين عاملوه بعطفٍ كبير. وحتّى بعد تركه المدرسة بزمن طويل، ثابروا على مراسلته والسؤال عن أحواله...

لمّا شقّ على كاملة أن ترى بطرس متكفلاً بأعباء العائلة فيما يقضي جبران أوقاته منصرفاً إلى القراءة والرسم والتأمّل، طلبت منه أن يعمل بدوره لكي يعين أخاه في تحمّل الأعباء. غير أنّ الفتى المراهق رفض الفكرة على نحوٍ قاطع، معتبراً أن بنصر الرسّام تعادلُ ألف تاجر - ما عدا بطرس! وصفحة شعرٍ واحدة تعادل كلّ ما في دكاكين العالم من الأقمشة! وبالفعل، كان جبران لا يفوّت فرصة لاكتساب العلم والثقافة. وكان يواظب على التردّد على مؤسّسة خيريّة تدعى «دونيسون هاوس» يشرف عليها آباء كاثوليكيون حيث تعطى دروس في الرسم والمسرح. وبعد أن رسم «الكاهنة»، تمثال فردريك ماك مونّيز «الفضائحي» المنتصب في باحة «مكتبة بوسطن العامّة»، عرض رسمَه على معلّمته في «دونيسون هاوس»، فلورانس بيرس، فلفتتها موهبته، وأوصت به إلى مرشدة اجتماعية كانت تتمتّع بنفوذ كبير تدعى جيسّي فريمونت بيل. وفي 25 تشرين الثاني عام 1896، كتبت جيسّي بيل إلى صديق لها، يدعى فريد هولاند داي، قائلةً:

«عزيزي السيّد داي،
أسأل نفسي إذا كان من بين أصدقائك رسّام قد يرحّب برعايته شاباً أشورياً [سورياً][2] يدعى خليل جبران؟ هذا الشاب لا ينتمي إلى أي رابطة أو جمعيّة.

---

[1] يُذكر هنا أنّ جبران كان يوقّع أعماله العربيّة باسمه الكامل: «جبران خليل جبران»؛ فيما آثر أن يوقّع أعماله المكتوبة بالإنكليزية بالاسم الذي اقترحته عليه معلّمته، لفظاً وكتابة.

[2] كان جميع المهاجرين المتحدرين من المشرق يُدعون «سوريين». علماً بأنّ عبارة «سورية»، كانت في مصطلحات تلك الحقبة مصطلحاً عاماً يشير إلى واقع جغرافي (يشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن الحالية) ولا يشير إلى كيان سياسيّ.

ولذلك فإنّ من سيمدّ له يد العون سيكون حرّاً في تنشئته كما يحلو له. لقد التحق خلال الشتاء المنصرم في الـ«كولدج ستلمنت» في تايلر ستريت، وهو يبدي فيها موهبة لافتة حدت بالآنسة بيرس إلى القول إنّه ذات يوم سيتمكّن من كسب عيشه على نحوٍ أفضل مما قد يتيحه له بيع علب الثقاب أو الصحف، ولكن طبعاً شريطة أن يتبرّع أحدهم بمساعدته في متابعة دروسه في مضمار الفنّ.

قد يغدو متسوّلاً إذا لم يتعهّده أحدٌ. أسرته فقيرة معدَمة تقيم في «أوليفر بلايس»، ولا شكّ في أنّها ستطالب الفتى بأن يعيلها مادياً عند بلوغه السنّ القانونية للعمل. اللهمّ إلاّ إذا أتيحت له فرصة الانصراف إلى مزاولة نشاطات قَيِّمة...

أرجو ألاّ تعتبر هذا التوسّط من أجل خليل في غير محلّه. الحقيقة أن اهتمامي بالفتى كبير ولمّا كنتُ عاجزة عن مساعدته أجد نفسي، في آخر المطاف، مرغمةً على البحث عمّن يقدر على مساعدته بالفعل».

كان فريد هولاند داي، المولود عام 1864 في ديدهام الجنوبية في ولاية ماساتشوستس، يحتلّ مكانة مرموقة في الوسط الفنّي لتلك الحقبة[1]. فهذا المتأنّق الذي تميّزت أعماله بالجرأة وبمزيج من الميول الرمزيّة والصوفيّة، كان يدير دار نشر «كوبلاند وداي»، التي أنشئت عام 1893 في بوسطن، والتي شملت لائحة منشوراتها، من بين أعمال أخرى، الطبعة الأميركية لمسرحية أوسكار وايلد «سالومي». أمّا من حيث المظهر، فقد كان أشقر الشعر، ذا لحية مشذّبة مروّسة، وأنفٍ أقنى، وعينين فاتحتين ويرتدي عوينات مستديرة ويعتمر قبعة سوداء عريضة الحواف ملتحفاً على الدوام بشملةٍ أوبرا. كما كان مِثْلياً مُعلَناً، شغوفاً بالجسد الذكوري لا يتوانى عن تصوير الفتيان المراهقين في لقطات عري...

[1] عام 2001 كرّس له معرض في صالة «متحف فان غوغ» في أمستردام، كما صدر للمناسبة كتاب عنه من تأليف بام روبرتس Pam Roberts، تضمّن ثلاث صور فوتوغرافية لجبران.

ولمّا كان داي يبحث عن موديلات لصوره، وافق على استقبال جبران وضرب له موعداً في 9 كانون الأول 1896 في الاستديو الخاص به الواقع في 9 بنكي ستريت... وإذ فتنه المراهق البادي السمرة، ذو الشعر الأسود الطويل، والسحنة المكتنفة بالغموض والنظرة الساهمة، عرض عليه داي أن يكون موديلاً في زيّ عربي أو مشرقـي أو حتّى هندي. لم يتردّد جبران في قبول العرض ولا ندري إذا كان ذلك بدافع السذاجة أم الفضول. «الشيخ الفتيّ»، «خليل»، «الفتى السوري»... على هوى استيهاماته كان المصوّر يلتقط عدداً كبيراً من الصور المتنوّعة لموديله الشاب. وسيقول عنه الفنّان المراهق، فيما بعد، إنّ داي يمتلك مجموعة من صوره وإنّه كان عطوفاً معه، حاثّاً جميع أفراد أسرته على الوقوف أمام عدسته. كان داي يشتري له ملابسَ جديدة، ويدعوه إلى عدد من الأمسيات والولائم. كما عرّفه إلى أعمال وليم بلايك، الشاعر والرسّام. فُتِنَ جبران بعوالم هذا الفنان الأسطورية النبوية، مبهوراً بتنوّع المصادر التي تغني مفرداته الشعرية والبصريّة، متحسّساً تلك الخصوبة الرمزية في أعماله الموسومة بالجدل الروحي بين الخير والشرّ، بين الفردوس والجحيم، بين التحلّل والانبعاث[1]، هذا الفنان الساعي إلى «تفتّح البصيرة الإنسانية الخالدة على الطوية»[2]... وحتّى لو حال صغر سنّه دون استيعابه لطائف فكر بلايك جميعها، فقد استوعبَ بعضاً من أفكاره كانتقاده الشديد للمجتمع والدولة، وثورته على الأمير والكاهن، وفضيلة الرغبة الخلاّقة، وأولوية المخيّلة بوصفها «إلهاً داخلياً»، ووحدة الكائن، وقوّة المسيح بوصفه ثائراً، ما حدا به إلى الشروع في خطّ رسوم تمهيديّة مثقلة بالرموز، مستلهمة من عالم الفنان اللندني الكبير. ومنـذ ذلك الحين لن يفارق وليم بلايك مخيّلة جبران، وسيحتلّ، على الدوام، مكانةً على حدة في عالمه الروحاني.

أتاحت صلة الشاب اللبناني بهولاند داي التعرّف إلى أعمال سوينبرن وكاربنتر وويتمان وكيتس وأمرسن والكتاب الرومنطيقيين. وانصياعاً لنصيحة معلّمه قرأ

(1) Henri Lemaitre, *William Blake, vision et poésie,* José Corti, 1985، ص 10.

(2) William Blake, *Jérusalem, the Emanation of the Giant Albion,* I. 5.

«كنز الودعاء» *Trésor des humbles* لموريس ماترلنك، وهو مؤلّف يستكشف فيه الكاتب أسرار الحياة اللدنيّة من خلال بواعث أخلاقية وفلسفيّة؛ ويقول جبران إنّ ماترلنك كان مثله الأعلى في الفترة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من عمره، ويسمّيه بـ«ساحر الغموض». وقد التقط داي عام 1901 صورةً لهذا الكاتب الذي توّج نتاجه عام 1911 بجائزة نوبل للآداب. انصرف جبران إلى الملاحظة والاستيعاب، ولن تلبث أن تمثَّلَ التفاصيلُ البيّنة في رسومِ معلّمه، في عدد من لوحاته اللاحقة.

كان تأثير فريد هولاند داي على جبران حاسماً. ذلك أنّ فنّ البورتريه الذي كان داي يتقنه ببراعة فتنَ الفنانَ الشاب الذي سعى بدوره إلى اتقانه في لوحاته. التحرّر من جميع القيود، والسعي وراء الجمال في العري، والرجوع إلى الميتولوجيا، وهاجس بناء الجسور بين الثقافات، والبحث المستمرّ عن البعد الروحاني في الرموز (ذلك أنّ «اللامحدود هو سبيل اللامتناهي»، حسبما كان داي يردّد على الدوام)... كانت هذه الأفكار والمواقف جميعاً بالغة التأثير في جبران الشاب في فترةٍ من عمره هي الفترة التي تتشكّل فيها الذهنية وتتوطّد معالم الشخصيّة...

بفضل داي أتيح للفنّان المراهق الإفادة من فرصٍ لا تُحصى: إذ زَيَّن بالرسوم كتباً صادرة عن دار نشر كوبلاند وداي وعن دُور أخرى، من بينها ديوان الكندي دانكان كامبل سكوت **Duncan Campbell Scott** وكتاب عن الفلكي والشاعر الفارسي عمر الخيّام، من تأليف ناتان هاسكل دول. كان جبران يسلك طريق النجاح خطوةً خطوة: إذ أتيح له، وخلال مهلة زمنية قصيرة نسبياً، أن يزيّن بأحد رسومه الترجمة الإنكليزيّة لكتاب ماترلنك «الحكمة والمصير»: *La Sagesse et la destinée*.

في شهر شباط 1898، نظّم فريد هولاند داي معرضاً مؤلفاً من 250 صورة فوتوغرافية في «كاميرا كلوب» في نيويورك، ثمّ أتبعه بمعرض آخر، في شهر آذار، في قاعة النادي نفسه في بوسطن. يقول جبران إنها كانت مناسبة أتاحت له أن يلتقي جمهرةً من الأشخاص الذين يتمتّعون بذوق مرهف؛ وإنّه كان حدثاً عظيماً.

كانت والدته قد خاطت له زياً خاصّاً بالمناسبة... كما التقى أيضاً الآنسة جوزفين بيبودي التي خاطبته قائلة: «أراك في كلّ مكان»؛ فقد فوجئ، هو نفسه، بأن داي كان علّق على الجدران عدداً من رسومه، بعد وضعها في إطارات مناسبة، بين صور البورتريه التي التقطها له. ما جعله يشعر بإفتخار كبير لأن رسومه جاورت، وهو بعدُ في الخامسة عشرة من عمره، أعمال أحد اكبر المصورين الفوتوغرافيين في زمانه.

من تكون جوزفين برستون بيبودي هذه؟ هذه الفتاة المرهفة الذوق، البالغة 23 عاماً، الملقّبة «بوزي»، هي ابنة عائلة كانت موسرة فيما مضى، رقّت حالها وتدهورت أوضاعها المالية إثرَ وفاة ربّ العائلة الذي قضى عام 1884. أتمّت تحصيلها العلمي في مدارس حسنة السمعة: مثل «المدرسة اللاتينية للبنات» في بوسطن و«راد كليف كولج»؛ ولها محاولات في نظم الشعر وطموحها أن تنشر أعمالها لدى دار نشر «كوبلاند وداي». وعندما التقَت جبران خلال معرض بوسطن، بادرته بالقول، مشيرةً إلى البورتريهات ورسوم الصبا: «أراك في كلّ مكان! غير أني أجدك كئيباً جداً. لمَ أنت كئيب؟» بُهتَ جبران متلعثماً أمام الحسناء ذات البَشَرة الشاحبة والعنق الفارَع والقسمات الرقِيقة. غير أنّه لم يحاول إنكار الكآبة الغالبة على طبعه. أليس هو من روى عن لسان والدة داي قولها إنها «تحبّ هذا الفتى (جبران) حباً جمّاً» غير أنّها لا تحبّذ صحبته لأنه لا يتبسّم قط! وهذا صحيح، يقول جبران معترفاً بأنه لم يكن يتبسّم على الإطلاق. تأمّل جبران وجه «بوزي»، متملّياً ملامحها وقد صمّم، في قرارته أن يرسمها في أقرب فرصة.

كانت أسرة جبران دائمة القلق حيالَ صحبه والأوساط التي يتردّد عليها. فقد كان داي ذا سمعةٍ لا تخلو من الفضائح. فراحت الأسئلة المقلقة تطرح نفسها: لمَ يبدي هذا القدر من الاهتمام بمراهقٍ مثل جبران ما زال ساذجاً وبريئاً على الرغمَ من موهبته اللافتة؟ حتّى بلغ الأمر ببعض كتّاب السيرة، واستناداً منهم إلى تلك الصداقة المثيرة للشبهات وإلى العلاقات المأزومة التي أقامها الفنّان مع النساء، حدّ الافتراض بأنّ جبران كان شاذاً جنسياً. لكنّ فرضية مثل هذه تبدو متهافتة إذا ما

التفتنا إلى الموقف الصارم المستنكر الذي طالما تردّد على لسان الكاتب في مراسلاته، حيال المِثلية الجنسية، وإلى صلاته العديدة، الذائعة منها والمكتومة، بنساء يكبرنه سنّاً في معظم الأحيان...

لكنّ الأمور إزدادت سوءاً عندما أغرم جبران، في شباط 1897، بإمرأة على مشارف الثلاثين من عمرها، هي زوجة أحد التجّار. عندئذٍ، ولشدّة ما أثارته تصرّفاته لديهما من إستهجان وضيق بتغيّبه المتكرر ليلاً، قرر. كاملة وبطرس - الذي تمكّن، بفضلِ ما إدّخراه هو وأمّه، من افتتاح دكّان للملابس الشرقية في 61 بيتش ستريت - التَدخّل لإعادة الأمور إلى نصابها. ولكن ما هي الوسيلة التي تباعد بين الفتى المراهق وتلك المرأة المستخفّة، لا بل ما هي الوسيلة الكفيلة بإبعاده نهائياً عن تأثير فريد هولاند داي الذي لا يتوانى عن رسم الرجال عراة؟ لم يجد كاملة وبطرس أمامهما سوى وسيلة وحيدة: تدبّر عودة الفتى مجدداً إلى لبنان! فلم يبدِ الفتى ممانعةً بل وافق من دون تردّد، وقال إنّ الأمر كان أشبه بحلم؛ لم يكن حلماً واضحاً وجميلاً، بل حلم غامض مشوّش. أمه وأخوه وشقيقتاه كانوا وراءه، في بوسطن، وأمامه، في البعيد، كان والده المقيم في جبل لبنان، بجوار الأرز. أمّا هو... فقد كان يعلم أنـه لن يكون ما هو مقدّر له أن يكون، إلاّ إذا عاد إلى لبنان.

على الرغم من انزعاجها الشديد لسماعها نبأ عودته، إعتبرت مُدَرِّستُه، فلورانس بيرس، أن جبران الآن «بات مدركاً ميوله الفنيّة، وبإمكانه أن ينهل من الأجواء المحليّة ثمّ يعود [...] منتعشاً من زيارته إلى مسقط رأسه».

قبل رحيله، أنجز جبران بورتريه «بوزي» وعرضه على فريد هولاند داي الذي اقترح عليه إرساله إلى الفتاة مذيّلا بإهداء. انصاع الفنان المراهق لنصيحة صديقه: ولم تمضِ أيام حتّى تلقّت جوزفين بيبودي التي كانت، في هذه الأثناء، تعدّ العدّة لنشـر باكورتها لدى دار نشر «كوبلاند وداي»، وبكثير من الدهشة، هذا البورتريه مصحوباً برسالة باللغة العربية مقتضبةً ومبهمة الفحوى. «في الحقيقة، لم أنسَ خليل، تقول في إحدى رسائلها إلى داي. ولكن ما أدهشني هو أنّه ما زال يتذكّرني...» فدفعها فضولها إلى إستشارة أستاذ اللغات الشرقية في جامعة هارفرد

لفكّ رموز الرسالة التي كتب فيها جبـران بكثيرٍ من الارتباك والاستحياء: «إلى العزيزة الغير معروفة، جوزفين بيبودي».

عند مغادرته بوسطن، متكئاً إلى درابزين المركب الذي حمله إلى بشرّي، لم يستطع الفتى اللبناني إلاّ أن يفكّر في ملهمته الأولى، آملاً أن يلتقيها مجدّداً.

-3-

العودة إلى الينابيع

نزل جبران في مرفأ بيروت يوم 30 آب 1898. كان يحمل في حقائبه سبعة كتب من بينها «الأناجيل» و

The Age of the Fable or Beauties of Mythology

لتوماس بالفنيتش، وهو كتاب كان داي قد أهداه إيّاه قبل رحيله، واكتشف فيه الفنّان الفتي، خلال الرحلة، مأساة بروميثيوس، وأسطورة أورفيوس، والنبي الفارسي زرادشت، وفلسفة فيثاغورُس، والميثولوجيا الهندية...

من دون إبطاء، توجّه جبران إلى بشري حيث هرع لمعانقة أبيه، فألفى خليل قانطاً، قلقاً على مصير العائلة التي بقيت في بوسطن، مفرطاً في معاقرة الخمرة. هرع الأقارب والأصدقاء لاستقبال «الأميركاني». أمّا الطبيب والشاعر سليم الضاهر فقد أتيح له أن يلتقي مجدداً، وبتأثّر بالغ، تلميذه الفتي، ونصحه بأن يكمل دروسه في معهد «الحكمة»، أحد أفضل معاهد البلاد الذي أنشأته الكنيسة المارونية عام 1875 والذي كان آنذاك تحت إشراف حبر متخرّج من رهبانية «سان سولبيس» في فرنسا، هو المونسينيور يوسف الدبس. وقد وافقَ والد جبران على انتقال ابنه إلى بيروت وزوّده ببعض المال.

في 20 تشرين الأول 1898 التحق جبران بمعهد الحكمة، وبقي فيه حتّى شهر تموز عام 1901. وعلى الرغم من تأخّره الملحوظ في بعض مواد الدراسة، كاللغة العربية مثلاً، «اشترط الفتى المراهق أن يُقبَل في صفّ أعلى وألاّ يخضع لامتحان قبل مضيّ ثلاثة شهور، كي يتسنّى له استيعاب المنهاج الجديد. إذ لفتتهم

جرأة الفتى وقوّة شخصيّته، وافق المشرفون على المعهد، الذين كانوا ارتأوا في البداية أن يلتحق بصفّ ابتدائي، على «شروطه»!

كان الخوري يوسف الحدّاد[1] أحد معلّمي جبران. ويُظهِر البورتريه المحفوظ له في المكتبة الوطنية، رجلاً ملتحياً، نافر الجبين، ذا نظرة ثاقبة، وقد غطّت رأسَه قلنسوة. لم يكن هذا الكاهن مدرّساً كغيره من المدرّسين: بل كان شاعراً ومؤلّف مسرحيات، متمتّعاً بموهبة إرشاد تلاميذه إلى الأدب. وأتيح لجبران، من خلال صلته به، أن يكتشف كنوز اللغة العربية، فقرأ ابن خلدون والمتنبّي وابن سينا وشعراء الصوفيّة، وعمّق معرفته بـ«العهد القديم». وشرعَ بامتلاك أدوات التعبير السليم عن أفكاره بلغته الأم، كما أنّه كتب أول نصوصه بالعربية، لا بل باشر بتدوين الصفحات الأولى من كتاب راقَ له أن يسمّيه: «لأجل أن يكون الكون خيّراً»، وهو ليس، في الحقيقة، سوى المسوّدة الأولية، المرتبكة، لكتابه «النبيّ». كما تعلّم جبران اللغة الفرنسية وانصرف، بمتعة بالغة، إلى قراءة أعمال فيكتور هوغو وشاتوبريان وروسّو. «كان يأتيني بمقالات من عندياته، فأرى فيها جسماً متناسق الأعضاء عليه مسحة من الجمال تحت ثوب من اللفظ لا يشاكل المعنى»، يقول الخوري يوسف الحدّاد مستذكراً: «وكان جبران ينمو في أسلوبه نمو الحورة وينبثق انبثاق الحوض، ومعه تقوى الروح الوثّابة العابثة المتمردة. فكّر طويلاً، واكتب قليلاً...»؛ وقد عبّر الفتى، بدوره، عن تقديره لمعلّمه بقوله إنّه كان الوحيد الذي علّمه شيئاً...

كيف قضى جبران سنوات الدراسة؟ يقول في ذلك مستذكراً إنّ العامين الأولين في المدرسة كانا قاسيين لصرامة النظام فيها. كانت مدرسة متشدّدة لا يتوانى المدرّسون فيها عن الضرب. ويضيف أنه كان لا يؤمن بإنضباطهم ولا يطيعهم على الإطلاق. ومع ذلك كان أقل تعرّضاً للتأديب من رفاقه، لأنّه يعوّض عن ذلك بمثابرته وانكبابه على الدرس. والحقيقة أنّ المدرّسين كانوا يعاملونه

[1] مواليد عين كفاع (قضاء جبيل). سيم يوسف الحداد (1865-1949) كاهناً في العام 1889 وكان له تأثير كبير على عدد من الكتّاب اللبنانيين المرموقين، نذكر منهم أمين تقي الدين وميشال زكّور.

بشيء من التسامح نظراً للمكانة الخاصّة التي يحتلّها بوصفه مهاجراً سابقاً. في غرفة الصفّ كان يلبث ساهياً، منصرفاً إلى الرسم، مسوّداً صفحات كتبه ودفاتره برسوم كاريكاتوريّة لأساتذته. وما كانت رسومه تلك، والتي كان يخطّها بالحبر أو بقلم الرصاص، لتخلو، في تلك الحقبة، من طابع رمزيّ بل كانت تبشّر بأعماله التصويرية المقبلة: جالسات أو مستلقيات، نساءٌ أو خِناثٌ يتأمّلنَ، يتأمّلنَ أو يحتضنّ شكلاً ما أو طفلاً. بدا جبران في نظر رفاقه فتىً غريبَ الأطوار بشعره الطويل الذي كان يرفض أن يقصّره، وبتصرّفاته المستهجنة. فبديهيّ أن يجد هؤلاء صعوبةً بالغة في تصديق أقواله عندما يخبرهم أنّ له أصدقاء من بين الناشرين الأميركيين وأن رسومه تزيّن أغلفة عدد من الأعمال المطبوعة في نيويورك...

في تلـك الفترة أقام جبران علاقة صداقة مع أيوب تابت الذي عيّنته فرنسا، عام 1943، رئيساً للحكومة المؤقتة، ومع ابن شقيق البطريرك الماروني، يوسف الحويك - الذي أصبح فيما بعد نحّاتاً ذائع الصيت، مبدع تمثال الشهداء الشهير، «الباكيتان»، الذي نُصِبَ وسط ساحة البرج في بيروت -، وانصرف إلى تلقينه مبادئ فنّ الرسم: «كان يوسف على نحوٍ ما إبناً روحياً لي»، كما قال ذات يوم عن هذا الفتى الذي سيلتقيه مجدداً في باريس.

على بُعد آلاف الأميال من بشرّي، كان الحظّ يبتسم أخيراً لجوزفين بيبودي التي تمكّنت، في أواخر عام 1898، من إصدار باكورتها الشعريّة: *The Wayfarers* (عابرو السبيل)[1]. ولمناسبة الاحتفال بصدور كتابها التقت داي، وراحا يستعيدان معاً ذكرياتهما مع جبران: «كأنّ هذا الفتى قد خُلق لكي يكون نبياً»، تؤكّد له قائلة. «رسومه تنبئ بذلك، على أوضح وجه. فلا يملك الناظر إليها إلاّ أن يشعر بنشوة الخلق فيها، أن تغمره بالمشاعر الروحانية...» وفور عودتها إلى منزلها قرّرت بوزي أن تكتب «لصديقها الشاب» لكي تشكره على البورتريه الذي أهداها إيّاه:

---

[1] سوف تنشر فيما بعد أعمالاً مسرحية (*Piper, Wolf of Gubbio, Wings...*) ونصوصاً سرديّة (*Old Greek folk stories*).

كانت مفاجأة سارّة ذلك اليوم الذي تلقّيت فيه البورتريه الذي رسمته بيديك قبل أن تبحرَ صـوبَ الشرق. في البداية لم أصدّق أنّ الرسمَ لـي. كيف حفظت ملامح وجهي؟

[...] إلتقيت مؤخّراً صديقك داي وتحدّثنا عنك. أطلعني على عددٍ من رسومك التي أبقيتها في عهدته. وأودّ أن أقول لك إنّها كانت بلسماً للقلب. من خلالها يُخيّل إلي أنني أفهمك على نحوٍ أفضل وأشعر بأنّ نفسك طالما كنزت فرحـاً غامراً للمشاركة. لك عينان لتبصر وأذنان لتسمع.
[...] إنّ صانعي الجمال من أمثالك يهبون الآخرين خبز الحياة. لا أدري كيف هي بلادك وهل لديك مكان هادئ لتنمو فيه... أذكر كم نبيّ نما في العزلة يرعى الغنم! ألم يحرس أبولون قطعان الملك أدميتوس؟ كلّ من أغوته نفسه بالعزلةِ رَدْحاً سوف يهتدي إلى الأبرار في قلب العزلة، مثل ربيعٍ مخبوء في كنفِ صحراء».

شعر جبران بسعادة غامرة لدى تلقّيه هذه الرسالة مرفقة بنسخة من باكورة «بوزي» وصورة لها. فأمسك بقلمه، على الفور، منكبّاً على تحرير رسالة جوابيّة، مجتنّباً، قدر المستطاع، الوقوع في أخطاءٍ لغوية كثيرة، خاصّة أنّه كان لا يزال غير متمكّن تماماً من اللغة الإنكليزية:

«عزيزتي جوزفين،
يبدو أنني أخيراً ربحتك كصديقة. هل يمكنني أن آمل ذلك؟ هذا الأمل كاد أن يشرف على الموت.
بالطبع، كنت جد مسرور لما شاهدت صورتك وما يقولون عنها. لكني كنت أسرّ أكثر لو كان ذلك رسالة صغيرة منك لي تفتح الباب أمام الصداقة بيننا [...]. سأحتفظ لك في قلبي بنوع من الحب. وسأحتفظ بذكراك بالقرب من قلبي ولن يفرق أي شيء بينك وبين فكري [...]. مرّت الأيام بسرعة هائلة

بحيث لم أعد أراك لأزداد معرفة بك، حتّى حملني حب الحكمـة والمعرفة عبر هذه المسافة البعيدة، وحطّني في بيروت، حيث أدرس، في كلية، اللغة العربية والفرنسية وأشياء أخرى عديدة».

كانت رسالته آية في السذاجة. إذ ذيّلها بعبارة «من صديقك البعيد البعيد، خليـل جبران».

كما أخطأ في تدوين اسمها: فلأنّ العربية لا تحتوي على حرف «P»، كتب الإسم على النحو التالي: «Miss Beabody»! تلقّت الفتاة الرسالةَ ببهجة، ونسخت بعناية «هذه التحفة» على صفحة من دفتر يوميّاتها «لكي تحفظها على نحو أفضل». فمن الواضح أنّها تكنّ مشاعر صادقة حيال جبران لكنّه يصغرها بتسع سنوات، فكيف لمثل هذه العلاقة الوليدة أن تدوم؟

سـنة 1900، صمّم جبران وصديقه يوسف على إصدار مجلّة أسمياها **المنارة، الحقيقة، النهضة**. وعمد جبران إلى نشر نصوصه فيها مصحوبة برسومه. يقول جبران بهذا الصدد مستذكراً إنهما أصدرا مجلّة: «كان يوسف مديرها أما أنا فتولّيت رئاسة تحريرها؛ طبعناها في البداية على ورق رديء النوعية؛ ثمّ في العام التالي أذن لنا الأب الرئيس باستخدام مطبعة المعهد». وذات مساء إذ جافى النومُ الصديقين، غادرا عنبر النوم وجلسا على الشرفة. ويذكر يوسف في مذكّراته أنّ جبران راح عندئذ يحدّثه عن المجرّة والأفلاك السماوية والكون اللامتناهي. وأنّه راح يقول إنّ الأرض ليست سوى ذرّة غبار على فوّهة بركان هائل، وإنّ البشر الذين يعتقدون أنهم يعرفون الله لا يعلمون من الأمر شيئاً. الإنسان شبيهٌ بسلّم لا متناهٍ قدماه تلمسان الأرض ورأسه يلامس السماء...

في شهر تموّز قصد جبران بشرّي لقضاء عطلة الصيف. وهناك اتضح له أنّ طباع والده الشرسة لم تتغيّر: كان غالباً ما يجرح مشاعره متهكّماً من «شروده»، غير متفهّم لرغبته في أن يكرّس حياته للرسم والأدب. فهو الذي عانى الكثير من المتاعب معَ العدالة كان يأمل في أن يصبح إبنه محامياً. وإذ ضاق الفتى بملاحظات

أبيه المهينة هجر منزله وراح ينقّل إقامته بين قبو منزل ريفيّ لأحد وجهاء المنطقة، يُدعى راجي الضاهر، وبين منزل عمّته ليلى. وكان يقضي أوقاته منصرفاً إلى القراءة بقرب نبع مار سركيس، أثناء النهار، أمّا في الليل فكان ينامُ مفترشاً الأرض في الهواء الطلق.

إنتهز جبران فترة البطالة تلك لتوطيد صلته بالدكتور سليم الضاهر. كان هذا الأخير يقرأ على مسامعه القصائد، ويسرد له الحكايات التي يدوّنها على دفاتره، كما كان يتلو عليه «نشيد الأناشيد» ومقاطع أخرى من «العهد القديم». وبفضله التقى جبران حلا، البنت البكر لأحد وجهاء البلدة، ويُدعى طنوس حنا الضاهر، فنشأت بينهما علاقة ودّ وانسجام. لكنّها لم تُرضِ شقيق الفتاة، اسكندر، الذي نبّه «الغريب» إلى كونها علاقة يائسة: فالتباين الإجتماعي كبير بين عائلتيهما. إضافةً إلى كون حلا تكبره سنتين. لم يبدِ جبران أي إصرار بهذا الشأن. ففي تلك المنطقة من لبنان، حريّ بالمرء ألاّ يستخفّ بعواقب العلاقات الغرامية!

بمضي بضعة أشهر، تعرّف جبران، وقد بلغ الثامنة عشرة، إلى سلطانة تابت، شقيقة أيوب، رفيق صفّه. إمرأة في الثانية والعشرين من عمرها كانت فقدت زوجها للتوّ. وباعتراف الفنّان نفسه «كانت جميلة، متعدّدة المواهب وتعشق الشعر». ويؤكّد وصفَه لها البورتريه الذي رسمه لها، بعينيها الفاتحتين الواسعتين، وشعرها الطويل وشفتيها المكتنزتين، وذقنها الرقيق. تواصلت لقاءاتهما لأربعة أشهر كاملة، كانا يتبادلان خلالها الكتبَ التي يدونّان على حواشيها الملاحظات والانتقادات. «كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحبّ عينيّ بأشعته السحرية، ولمس نفسي لأوّل مرّة بأصابعه الناريّة. [...] أي فتى لا يذكر الصبيّة الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتاكة بحلاوتها؟ من منّا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعة الغريبة؟ [...] كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحبّ يهمس بشفتيّ سلمى في آذان نفسي»، سوف يكتب فيما بعد، في «الأجنحة المتكسّرة»، حيث بطلة الرواية، سلمى

كرامه، مستلهمة من شخصيّة سلطانة تابت. غير أنّ أمد هذا الحب لم يطل: إذ سرعان ما بلغه نبأ وفاة سلطانة المفاجئة. تعاظم حزن جبران عليها أضعافاً عندما بُعِثَ إليه ببعض متعلّقات الراحلة: «منديل حرير، وبعض الحليّ ورزمة من سبع عشرة رسالة». هي رسائل حبّ كانت المرأة الشابّة كتبتها له ولم تجرؤ على إرسالها إليه. «لا أحد قد يتخيّل شدّة الألم الذي شعرت به»، سوف يكتب جبران قائلاً. لِمَ لم ترسلها إليّ من قبل؟».

في المعهد، كان جبران التلميذ يحرز تقدّماً. وفي شهر تموز 1910، رشّحت إحدى قصائده لنيلِ جائزة الجدارة. وهو يقول في ذلك مستذكراً إنه كان يبذل كثيراً من الجهد للفوز بمسابقة الشعر. كان الأمر على قدرٍ كبير من الأهميّة في الحياة المدرسيّة. ذلك أن التلميذ الممتاز، في نظر معهد الحكمة، هو المتفوّق على أقرانه في موهبة الشعر. ويقول جبران إنّه كان يصبو إلى نيل تلك الجائزة. وعشية الإعلان عن النتائج أبصرَ المسيحَ في منامه. وعند الصباح أبلغَ أنّه فاز بالجائزة الأولى.

في تلك الأثناء، في أميركا، قرّر داي المنصرف تماماً إلى التصوير الفوتوغرافي، أن يصفّي دار النشر التي يملكها – وفي ثبت منشوراتها نحو مائة عنوان لم تدرّ عليها ربحاً –، وأن يحقّق أخيراً حلمه: أي أن يذهب في رحلة طويلة إلى الشرق. هل التقى جبران خلال رحلته؟ لا شيء يؤكّد لنا ذلك. فما نعلمه هو أن داي توجّه إلى الجزائر. وثمة رسالة من جبران، بتاريخ 5 نيسان 1901، يُعلِم فيها والده أنه ربّما «تأخّر أيضاً شهراً كاملاً متجولاً في سوريا وفلسطين أو في بلاد مصر والسودان مع عائلة أميركية تهمّني جداً...». في رسالةٍ أخرى إلى مي زيادة، يقول: «عندما كنت في مصر كنت أذهب مرّتين في الأسبوع وأصرف الساعات الطوال جالساً على الرمال الذهبية محدقاً بالأهرام وأبي الهول، وكنت في ذلك العهد صبياً في الثامنة عشرة ذا نفس ترتعش أمام المظاهر الفنية ارتعاش الأعشاب أمام العاصفة...».

في نهاية هذه الرحلة، بدأ جبران بالإعداد لعودته إلى أميركا: فبعد أن أنجز تعليمه غلبه اشتياقه إلى أهله. وقد بلغه أنّ سلطانة مريضة. شعر بارتباك وحيرة:

ما مقدار الصدق في هذا الخبر؟ هل اختلقوا الأمر لحثّه على العودة في أقرب وقت؟

أبحر جبران مسافراً من دون تردّد في نيسان سنة 1902. وقبل مغادرته لبنان عهد إلى ابن خالته بولس بيطار كيروز بالكتب السبعة التي حملها معه من بوسطن، مصحوبةً ببعض الملاحظات المدوّنة ورسوم تمهيديّة لامرأة وللقديس يوحنا المعمدان، ولمنظر غروب... آملاً في استردادها ذات يوم. غير أنّه كان يعلم، في قرارة نفسه، أنّه أبداً لن يعود: فأهازيج لبنان لن تبلغ، بعد اليوم، مسامعه إلاّ في الأحلام...

-4-

مآسٍ

في طريق عودته توقّف جبران في باريس. هناك بلغه نبأ وفاة شقيقته سلطانة - الأكثر شبهاً به «سواء لناحية المظهر أم لناحية الطباع»، بحسب داي -، التي وافتها المنيـة يوم 4 نيسان عام 1902، عند التاسعة صباحاً. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وجاء نبأ وفاتها شديد الوطأة على جبران: ما الذي جرى؟ لِمَ هذا الموت المبكر؟ «منذ عام 1900، بحسب ما رَوَت مريانا، شقيقة جبران الأخرى، أصيبت سلطانة بتدرّن في جانبي عنقها. وصف لها الطبيب عقاقير وأسرّ إلى بطرس أنّها لن تعيش طويلاً وليس بالإمكان إخضاعها لعملية جراحيّة لأنّها لن تتحمّلها. في شهر أيلول 1901، أصيبت بسلّ حادّ سريع. وذات يوم من شهر كانون الثاني 1902، لدى عودتها إلى المنزل أرتها سلطانة ساقيها المتورّمتين حتّى الركبتين وقالت لها بمرارة دموعها المنهمرة: «أصبحت عاجزة عن النهوض». وبالفعل، منذ ذلك اليوم أصبحت عاجزة عن السير. وغالبـاً ما كانت تردّد: «آهِ، كم أفتقد جبران وأبي! آه، لو أستطيع أن أراهما للحظة واحدة، وليأخذني الربّ بعد ذلك إلى الأبد!»».

وصل جبران إلى بوسطن في 13 نيسان. وهناك استقبلته عائلةٌ مفجوعة بوفاة سلطانة الصبيّة. ومراعاةً منه لألم العائلة وفجيعتها، اجتنب أي ذكر لشقيقته الراحلة. واحتراماً منه للتقاليد، قرّر، حداداً عليها، أن يقصّ شعره وأن يرتدي الأسود.

بمضيّ بضعة أيام، انتقل آل جبران من منزلهم القائم في رقم 9، أوليفر بلايس، ليقيم في رقم 7، تايلر ستريت، بقرب كنيسة سيّدة الأرز المارونية. كان المونسنيور

اسطفان الدويهي، راعي الأبرشيّة، يقيم في المبنى نفسه؛ وكان غالباً ما يزور جيرانه لمواساتهم ويناقش جبران في أمور الدين. في تلك الفترة أسرّ جبران إلى والدته بعزمه على تأليف كتاب بعنوان: «لأجل أن يكون الكون خيّراً»، النواة الفعلية لكتابه المقبل «النبيّ». فـأجابته: «دعه يختمر مع الوقت». فعلى الرغم من ثقتها في قدرات ابنها، رأت كاملة أنّ الأوان لم يئن بَعْدُ لنشره، وأنّ أفكاره يُعوَزها النضج. وإنصاع جبران لنصيحتها فوضع الكتاب جانباً لكَي يُكمِلْ اختماره فَي ذهنه.

في هذه الأثناء، ماذا حلّ بجوزفين؟ حداد جبران على سلطانة صرفه، فقط لبعض الوقت، عن تلك التي لم ينسها يوماً. ففي 6 تشرين الثاني 1902 كتب لها ليُنبئها بعودته. طوال السنوات الأربع التي استغرقها غياب جبران لم تتوقّف جوزفين عن الكتابة: أصدرت في تلك الفترة كتابين جديدين وعملاً مسرحياً؛ وبعد أن زاولت التدريس لبعض الوقت في «ويلسلي كولدج»، ذهبت إلى إنكلترا لقضاء عطلة الصيف. فور تلقّيها رسالة مُعجَبِها، سارعت جوزفين، في اليوم التالي، إلى الردّ برسالة جوابية دعته فيها إلى حفل استقبال كان مُقرّراً أن يُقام يوم الأحد في 16 تشرين الثاني. قَبِلَ جبران دعوتها على الفور. وكان لقاؤهما حارّاً. فعلى الرغم من أنها لم تكن تشعر حيال الفتى بحبّ حقيقي، فإنها، في قرارة نفسها، كانت تفتخر بكونها ملهمته: «لو أنني التقيته أكثر مما ينبغي لجعل منّي بوذا»، تقول في يوميّاتها. لكنّها أيضاً مفتونة بهذا الشاب «المختلف»، وبأفكاره، وبرسومه: «إنّه منصرف حالياً إلى نظم قصائد بالعربية. أمّا رسومه الجديدة فسوف أطلّع عليها قريباً. إني على يقين من أنّها ستهزّ العالم ذات يوم. لقد كان عزائي طوال هذه السنوات الخمس أنني أدركتُ رقّة فؤاد هذا النبيّ الشاب». «نبيّ»؟ تبدو الصفة سابقة لأوانها. فمما لا شكّ فيه أنّ جوزفين هي أوّل من استشعر تلك الروحانية الملابسة لأعمال هذا «الزاهد الشاب»، هذا «العبقريّ»، الذي تنظر إليه شقيقتها ماريون كأنّه «ملاك»...

تكرّرت اللقاءات بين «بوزي» وجبران. فتبادلا الكثير من الرسائل، وتردّدا سوياً على الحفلات الموسيقيّة، وشاهدا سوياً عرضاً لأوبرا فاغنر «برسيفال». وقد

قدّم لها عدداً من الهدايا: ناي، بورتريه بالباستيل مُرفق بهذه العبارة البليغة التي هي أشبه بالإلماح: «حذارِ، يا نفسُ، ذاك أنّ الحبّ يخاطبك: فلتصغي إذاً: افتحي سدود قلبك واستقبلي الحَبّ فلسوف يمجّدك الحب»... ففي نظره جوزفين هي «الصديقة العزيزة» و «المحبوبة»، وهي «الحبّ العذب». ويوقّع رسائله التي يبعث بها إليها بأحرف اسمه الأولى مرسومة كالأرابسك: «.G.K.G» وفي دفتر يومياتها الحميمة كانت تذكره بهذه الأحرف. إنّه «أليف نفسها»، ذلك «المخلوق العبقري» الذي تسعى لأن تكون «عرّابته» (ففي شهر أيّار عام 1903، تتدبّر عرض أعماله في وليسلي كولدج)؛ إنّها ملهمته. غير أنّ سلوك المرأة الشابة يشوبه بعض التعالي، حتّى العجرفة، ما جعل التعاطي معها على قدرٍ من الصعوبة. جوزفين - التي يرى جبران أنّها تبالغ في تقدير جمالها - كانت مقتنعة بأنّها تغذّي موهبة الفنّان، وتحسب أنّ وجودها بقربه ضرورة لتوازن الفتى وإبداعه: «لا يسعني إلاّ أن أبقى موجودة لأجله» كتبت ذات يوم. كما كتبت في موضع آخر: «في كلّ مرّة أمدّ له يديّ الممتلئتين بالأمل، فينهل منها الأفكار والسعادة والامتلاء. ثمّ أصغي إلى عبارات امتنانه ويغادرني وقلبه مفعمٌ بالحريّة والمجد. فليبارك الله ذاك الذي يتلقّى منّي العطايا التي أهبها بطيبة خاطر...» فهي ترى صديقها أشبه «بنعجة مصابة من قطيع الربّ يسعدني أن أغذّيها على نحوٍ ما...» كأنّ «بوزي» لا تكتفي بدور المُلهمة بل تجعل من نفسها بغماليون.

واجه جبران وجوزفين مواقف بالغة الصعوبة، غير أنّ هذه الشراكة في المآسي كانت تمتّن صداقتهما («إنّ النفس الحزينة المبتلاة تجد راحتها عبر إنصهارها بنفس أخرى تخالجها المشاعر نفسها، يكتب جبران قائلاً. ففي كنف الحزن تُنسج روابط أمتن من تلك التي ينسجها الرخاء والبهجة...») لأنّ الأمر لا يعدو كونه صداقة، على الأقلّ في نظر جوزفين. أمّا جبران فكان يؤلّه المرأة الشابة إلى حدّ تبدو معه في نظرِه تجسيداً لمثالِ الأنوثة، والسبيل المفضي إلى ذاك الكيان الأنثوي العلوي الذي يسمّيه «هي». وفي حالٍ مماثلة تبدو الصلة الجسديّة مستبعدة. «وحبّي، يكتب لها قائلاً، لا يولّد رغبةً، ولا يثير أي خاطرة أنانية [...] فهذه نفوس ضعيفة تستسلم لشهوة الجسد: ولا تقدر أن

تحبّ». مع ذلك، في شهر تشرين الأول عام 1903، انقلبت الأمور رأساً على عقب. فماذا جرى؟ تأخذ بوزي على جبران «تلميحه المُغيظ على نحوٍ ما»، أو كما ترد العبارة حرفياً: «your infuriating suggestion more or less». ماذا تعني بذلك؟ هل تردّ على اعترافه لها بحبّه؟ على طلبه الزواج منها؟ المهمّ أن المرأة الشابة بدت حانقةً جداً بحيث أنها مزّقت جميع الرسائل التي كان صديقها قد أرسلها إليها منذ شهر آب. لمَ أتلفت هذه الرسائل بالذات واحتفظت بالرسائل السابقة؟ مما لا شكّ فيه أن جبران غَيّر موقفه منها منذ ذلك التاريخ، ولعلّه كتب لها، بدءاً بشهر آب، أشياء كانت تفضّل أن تنساها... مع حلول شهر أيّار، تغدو رسائل جبران «أكثر إلحاحاً»: «لقد صبّحـتُ للتوّ الوردة التي أعطيتني إياها أمس مساءً. لثمتُ شفتيها وتخيلتكِ تلثمين شفتيها أنتِ أيضاً». أيكون الشاعر قد واصل على هذا النمط؟

على الرغم من أنهما لم يكفّا عن التراسل (وإن تبدّلت النبرة) مواظبين على التلاقي بين الفترة والفترة (ففي عام 1904، يقضي ليلة عيد الميلاد وعيد مولده الثاني والعشرين بصحبتها)، فقد أدرك جبران وبوزي أخيراً بأنّ علاقتهما مبنية على سوء تفاهم: كان يحبّها؛ أمّا هي فكانت تحبّ أن يحبّها. وشيئاً فشيئاً شهدت علاقتهما بعض التباعد. وكعربون انفصال قدّم لها جبران خاتماً عتيقاً من الفضّة، عمره نحو قرنين من الزمـن، كان جدّه لأمّه، الخوري اسطفان، قد انتزعه من يد تمثال العذراء ليعطيه إيّاه لمناسبة عَمادِه. فلا بدّ أنّه أحبّها فعلاً لكي يتخلّى عن هذا الذخر! كما رسم لها بورتريه يذيّله بسطرين بالإنكليزية غنيين بمشاعر الحبّ نحوها: «لَقد أحببتك بثقة، واليوم أحبّك بخشية. لقد أحببتك كما لم أحبّ يوماً، غير أنني أخاف منك». بعد تفاقم مشكلاتها الماليّة، إرتبطت بوزي بعلاقة مع رجل إنكليزي، هو ليونيل ماركس، كان يعمل أستاذاً في هارفارد. لم يتقبّل جبران هذا الغريم الحائز على شهادات جامعية والموسَر على نحوٍ ما. أدرك مكامن ضعفه ومقدار سذاجته. غير أنّ ما حصل قد حصل. فوجّه في نَص أسماه «مناجاة» نداءً يائساً إلى تلك التي تسكن أفكاره وهجرته للتوّ من أجل رجل آخر:

«أين أنتِ يا حبيبتي؟ هل أنتِ سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي، وناظرة ضعفي ومذلّتي؟ [...] آه ما أعظم الحبّ وما أصغرني!».

عام 1906، تزوّجت بوزي من خطيبها. وعلى الرغم من تلقّيه دعوةً إلى حفل الزفاف، رفض جبران أن يحضره.

في هذه الأثناء، واجهت عائلة جبران مزيداً من النكبات. إذ تفشّى وباء السلّ في بوسطن، وخاصّة في منطقة «الوست أند». وظهرت على بطرس الذي كان يقيم صلات مباشرة بالزبائن، عوارض السعال. فنصحه الطبيب بالعودة إلى لبنان هرباً من أجواء المدينة الملوّثة. فضّل بطرس أن يستقرّ في كوبا لكي لا يبتعد كثيراً عن عائلته ولكي يتمكّن من الاستمرار في تجارته. ولكن هذا الحلّ لم يكن مجدياً: إذ تفاقم مرضه، وإزداد هزاله يوماً بعد يوم.

في 15 كانون الأول 1902، نُقِلَت كاملة المصابة بورم إلى المستشفى. وهناك واظبت مريانا، التي أصبحت المعيلة الوحيدة لأسرتها، على ملازمتها في «المساتشوستس جنرال هوسبيتال». «أخضعت أمّي لجراحة. ولدى خروجها من غرفة العمليات أسرّ الجرّاح لإحدى صديقات العائلة بأنّ أمّي مصابة بالسرطان. فطلبتُ من جبران أن يفسّر لي بالعربية ماذا يعني السرطان. وفيما كان يشرح لي كانت دموعنا تنهمر. بعد ذلك بوقت قصير، تمكّن جبران من نقلها إلى المنزل، متيحاً لها أن تعيش بسكينة أيامها الأخيرة بيننا». بمضي أسبوع على مغادرة كاملة المستشفى، عاد بطرس من كوبا وقد بلغ به النحول مبلغاً فلم تتعرّف إليه أخته. شغل بطرس إحدى الغرفتين، فيما شغلت كاملة الغرفة الأخرى. أمّا مريانا فكانت تفترش أرضيّة الممرّ الذي يفصل بين الغرفتين. استبدّ حزن عميق بجبران الذي دوّن بالعربية هذه السطور المفعمة بالتمرّد على القدر الأعمى الذي لم يوفّر أحداً:

«ها إني أحاول أن أقبض بقلمي على بعض الخواطر العابرة كأسراب طيور. ما قيمة حياتي ومَن يشتريها منّي؟ ما جدوى هذه الآمال كلّها، هذه الكتب الكثيرة هذه الرسومات، ما جدوى هذه المعرفة التي تقيم برفقتي؟ ما هذه الأرض

الفاتحة شدقيها العارية الصدر التي تسعى إلى ابتلاع المزيد ثمّ المزيد؟».

ساءت حال المريضين. فاستبدّ اليأس بمريانا: كيف لها أن توفّر لهما العناية الضرورية للتخفيف من آلامهما الأخيرة - لأنّها الأخيرة، فلا أحد يتوهّم أن أمامهما فرصة للنجاة - وكيف لها، في الوقت نفسه، أن تواظب على عملها لتوفير المال اللازم للعلاج والعقاقير؟ كان داي، الذي يُخاطبه جبران بكثير من الودّ، بـ«صديقي الكبير العزيز»، يزودّهم بالمؤن، غير أنّ صنيعه هذا لم يكن كافياً. حيال أوضاعهم المستجدّة وجد جبران نفسَه مضطراً إلى اتخاذ مبادرة ما: فقرّر، متناسياً كلّ أفكاره وأحكامه المُسبَقة، أن يتولّى تجارة العائلة في الدكّان. تذكر جوزفين في يومياتها الحميمة هذا القرار على النحو الآتي: «أمسِ، أتى G.K.G. لزيارتي وكان غارقاً في حزنه. غير أنّه أقدم على أمر جيّد: فقد قَبل، على الضدّ من أشدّ ميوله طغياناً، بصون شرف أخيه الذي يعاني مرضاً عضالاً، وذلك عبر تولّيه أعمال دكّانه. فهو يعتقد أنّ الإعلان عن إفلاس هذا الدكّان الغارق في الديون ينمّ عن عدم استقامة، وإن بدا من السهولة بمكان. هكذا قرّر أن يعمل فيه حتّى سداد الديون على الأقلّ؛ وقد أفلح، على كلّ حال، في إقناع أكبر الدائنين بأن يشاركه فيه. ألا يشقّ علينا أن نتخيّل G.K.G. رجلَ أعمال؛ بعيداً عن مكابدات البؤس؟ أعلم في قرارة نفسي أنّ الأمر سيقلقه؛ ومع ذلك، إني فخورة بأن تبلغ به عبقريته حدّ مواجهة الصعاب مباشرة. إذ ينبغي له أن يجني أرباحاً وفي أسرع وقت».

يوم الخميس 12 آذار 1903، أسلم بطرسُ الروح. كان في السادسة والعشرين. فكتب جبران المحزون رسالة إلى داي ليبلغه النبأ: «انطفأ شقيقي الحبيب عند الثالثة فجراً، مخلّفاً في أعماقنا الحزن والغصّة. عليّ الآن أن أعزّي أمّي المريضة المفجوعة: فهي ومريانا وأنا، كلّنا ننظر إلى عتمة المستقبل بقلق». وفي اليوم التالي، كتبت جوزفين في يومياتها: «صديقي العبقري فَقَدَ أخاه وأحسب أنّ الأمّ المسكينة لن تقوى على العيش طويلاً. ما الذي قد أصنعه لأجله؟ إني يائسة لعلمي أنّني عاجزة عن أي شيء...».

كانت جوزفين محقّة في حسبانها: ففي 28 حزيران 1903، لفظت كاملة أنفاسها الأخيرة أمام مريانا العاجزة عن ردّ القضاء. بمضيّ خمس دقائق على وفاتها، أي في تمام السادسة مساءً، عاد جبران، وكان قد ذهب لفتح الدكّان، ليجد أمّه قد فارقت الحياة، فأغمي عليه ونزف دماً من أنفه وفمه. بعد أن استعاد وعيه، انحنى على وجه كاملة: «لم أرَ طيلة حياتي شيئاً يشبه تعبير الغبطة الإلهية التي أحاطت وجهها كهالة...» مُدرِكاً أنّه سيبقى وفياً لها: «والنغم الكامن بصمت في قلب الأمّ سوف تنشده شفتا ولَدها».

في غضون خمسة عشر شهراً، أرخت المأساة بظلّها ثلاث مرّات. ويعترف جبران قائلاً: «ما بكيت عليها لأنها أمّي وحسب، بل لأنها صديقتي. فقدتُ بفقدها العزاء». في 29 حزيران، كتب إلى داي قائلاً: «أمّي لن تتعذّب بعد اليوم؛ أمّا مريانا وأنا، ولداها البائسان، فسوف يلازمنا العذاب وسنشتاق لرؤيتها مجدّداً». بعد أن أفنى الموت عائلته، غرق خليل، والده، في اليأس والقنوط. فهجر منزله لدائنيه وانتقل للإقامة في قبو راجي الضاهر المتداعي، مضيفاً بذلك مأساته إلى المآسي الثلاث التي سبقتها.

ألفى جبران نفسه مضطراً إلى سداد الديون التي تراكمت جرّاء استثمار والدته أموال بعض صديقاتها السوريات في تجارتها. فعقد العزم على بيع دكّان أخيه لكي يتمكّن من سداد الديون، وبذلك يتخلّص أيضاً من عبئه: «كاد هذا الدكّان أن يتسبّب بموتي. كدت أُضَيِّع حياتي فيه».

بعد تخلّصه من هذا العبء، شعر جبران بأنه أصبح حرّاً، وبأنه بات قادراً على استئناف مسيرته الفنية. ولكن إلى من يلجأ؟ فريد هولاند داي!

-5-

البدايات

بوسطن، التي وُصِفَت ذات يوم بـ«أثينا أميركا»، كانت، مطلع القرن العشرين، مركزاً فكرياً حيوياً تدور في فلكه نخبة من الفنّانين المعروفين والواعدين. سعى عددٌ من هؤلاء، بدافع نفورهم من البشاعة الناجمة عن الاقتصاد الصناعي، ورغبةً منهم في «الخروج من معاقل النزوع المادي»، وراء سُبُلٍ فنية جديدة، مستكشفين، إلى الميتولوجيا والحضارات الشرقية، علومَ الغَيب والعوالم الروحانية، ناهلينَ من تلك الروحانية القادرة على رفدِ إلهامهم وحفظ توازنهم النفسي. انخرط جبران في هذا الوسط حيث ازدهرت الحركات الزهدية كـNew Thought وTheosophical Society أو Christian Science، ودعاوى سويدنبرغ وفينياس كويمبي ووارن فِلت إيفانز، التي كانت تتمايز عن الديانات المُمَأسسة مؤمنة بوحدة الوجود والماهيّة الإلهية للكائنات البشريّة وبالتناسخ. ولعلّ أبرز هذه المذاهب كان مذهب التيوصوفية théosophie (مذهب الإشراقيين الداعي إلى الاتحاد بالربّ): لقد تأسّس هذا المذهب عام 1875 على يد هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي وهي امرأة من الأرستقراطية الروسيّة تعمّقت في حكمة بلاد الهند والتيبت والدروز (التي تعرّفت إليها عن كتب في سوريا ولبنان بين عامي 1865 و1872) وحفزت نهضة البوذيّة والهندوسيّة، وأسهمت في نشر الفكر الشرقي في بلاد الغرب وأعادت الاعتبار إلى المعتقد القائل بالتقمص. عبر صلته بمحيط فريد هولاند داي (الذي لم ينتمِ هو شخصياً

إلى التيوصوفيّة)[1] وصلته، فيما بعد، بصديقته شارلوت تِلِر، إطّلع جبران على الأفكار التي تدعو إليها هذه الجماعة. وأدرك، مع الوقت، أنّ الروحانية المشرقيّة التي تسكنه قد تجد لها تربةً خصبة في هذا الوسط المتعطّش للتصوّف...

في 6 كانون الثاني عام 1904، اقترح فريد هولاند داي على جبران أن يعرض لوحاته خلال فصل الربيع في «هارتكورت ستوديوز». أقبل الفنان الشاب على الفكرة بحماسة على الرغم من إدراكِه لصعوبة هذه المهمّة: إذ لم يكن يفصله عن الموعد المقرّر سوى أربعة أشهر ينبغي له أن ينجز أعمالاً جديدة خلالها وأن يعيد النظر في الأعمال المنجزة. غير أنّه، متأثّراً بالميتولوجيا وبوليم بلايك، أنجز عدداً من الرسوم ذات الطابع الرمزيّ الواضح. وفي شهر آذار عام 1904، أصيب جبران بوعكة صحيّة جرّاء انكبابه المتواصل على العمل وبسبب المناخ غير الصحيّ الذي يغلب على بوسطن. قلقت شقيقته لمرضه وكذلك أصدقاؤه: هل أصيب بالعدوى؟ هل ستكتب له النجاة؟ لحسن الحظّ تعافى جبران من وعكته. وأقيم معرضه بين 30 آذار و10 أيار في «هارتكورت ستوديوز»، وهو مبنى مؤلّف من أربعين مُحتَرَفاً لرسامي المدينة ومصوريها، من بينهم فريد هولاند داي: جذبَ المعرض عدداً كبيراً من الزائرين الفضوليين، والقليل من الهواة الراغبين في الشراء. أحد النقّاد حلّل بعمق أعمال جبران في صحيفة ***Evening Transcript*** ولخّص أسلوبه ومشروعه على النحو الآتي: «بعض أعماله يبرز جمالاً ونُبلاً صارخين، وبعضها الآخر يبرز حسّاً تراجيدياً مرعباً. في المحصّلة، تولّد رسومه انطباعاً بالعمق، وبالنظر إلى حداثة سنّه، فإنّ المزايا التي تفصح عنها

[1] «لم يتبع داي مذهب التيوصوفيّة أو مذهب الكريستشان ساينس ، المعتقدين الدينيين الدارجين في تلك الحقبة واللذين كان لهما أتباع ودعاة في بوسطن»، تكتب آنا إ. هافينغا بهذا الشأن في «Setting the Time of Day in Boston» (في كتاب Pam Roberts, *Fred Holland Day*, Van Gogh Museum, Amsterdam, 2001).

مذهلة بجدّتها وعمق معناها الرمزي... جميع رسومه هي [...] كنايات بالغة الدلالة. إذ حملتها ببراعة الرغبةُ العنيفةُ في إطلاق الأفكار الميتافيزيقية، إلى حدود الاحتراف التقني، بحيث تخضع المخيّلة لتأثير الجمال المجرّد أو المعنوي للفكرة المعبّر عنها [...]. تطالعنا هنا باقةٌ من الوجوه الجديدة البهيّة التي تعبّر عن أنقى تطلّعات النفس و ألطف ظلالها».

خلال هذا المعرض التقى جبران ماري هاسكل، التي ستلعب دوراً حاسماً في حياته، والتي ستصبح «ملاكه الحارس». كانت ماري تنتمي إلى أسرة موسرة من كولومبيا بولاية كارولاينا الجنوبية - فهي ابنة ضابط سابق في الجيش الإتحادي أصبح نائباً لرئيس مصرف كولومبيا -، واستقرّت في نيوإنغلند لمتابعة تعليمها في ويلسلس. وإذ جذبها الوسط الفكري في بوسطن، آثرت البقاء في هذه المدينة حيث أنشأت، بمساعدة شقيقتها لويز، مدرسة للبنات، هي «هاسكلز سكول» القائمة في 314 مارلبورو ستريت. كما كانت تعمل على مساعدة الفنّانين الشبّان المعوزين، متطوّعةً لخوضِ أشكال النضال كافّة في سبيل القضايا الاجتماعية والسياسية الكبرى. كانتَ تلك الناشطة المتحمّسة في الحركة النسوية، الشغوفة بركوب الخيل وتسلّق الجبال، تعشق مباهج الحياة جميعها. فهل كانت تسعى، من خلال إقامتها في بوسطن، إلى التحرّر من قيود عائلتها المحافظة؟ المؤكّد أنّ حياتها الغراميّة كانت معقّدة، يسودها الاضطراب، كما أنّ علاقاتها العاطفية أو الجنسيّة غالباً ما كانت تبدو مشوّشة ملتبسة. عَقِبَ تلقيها دعوة من ليونيل ماركس، زوج بوزي العتيد، قصدت ماري «هارتكورت ستوديوز» يوم الثلاثاء 10 أيار، آخر أيام المعرض. لَحِظَ جبران حضورَ تلك المرأة التي ارتدت ثوباً أسود ذا حزام فضيّ، والتي تملّت اللوحات واحدة تلو الأخرى باهتمام بالغ. كانت تكبره عشر سنوات. فما سبب شغف جبران بالنساء اللواتي يكبرنه سنّاً؟ أهي الرغبة في العثور على بديل للأمّ؟ أم أنّ السبب، ببساطة، هو نضوجه الفكري الذي يجعله «بمتناول» من يسعى لإستمالتهنّ؟ لا يمكن القول إنّ ماري كانت تتمتّع بجمال لافت، بجسمها الرياضيّ، ووجهها المتطاول وحاجبيها الكثّين، وبشرتها المسمرّة جرّاء رحلاتها

المتكرّرة إلى جبال كاليفورنيا، وشعرها الكستنائي الفاتح الأشعث، غير أنّ وجهها كان مشرقاً وعينيها الزرقاوين تشعّان ببريق لامع. تجرّأ الفنان الشاب على الاقتراب منها وخاطبها قائلاً:

- هل تودّ سيّدتي أن أشرح لها معاني بعض اللوحات؟
- بكل سرور، تجيبه ماري هاسكل جاهلةً من يكون. ولا أخفي عليك أنني في أمسّ الحاجة إلى من يفسّر لي هذه الأعمال؛ لأنها غير مألوفة في الفنّ. صحيح أنني من عشّاق الفنّ، غير أنني لست فنّانة. هل أنت فنّان؟
- لي الشرف أن أكون فنّاناً.
- هل تعرف مبدع هذه اللوحات؟
- إنّه أنا!

فوجئت ماري هاسكل ورمقت بفضول الفنّان «الشاب، الأسمر القصير القامة» الذي انتصب أمامها.

- أنت! من المؤكّد أنّك درست الرسم في باريس...
- كلاّ! لقد درست على نفسي واستعنت ببعض فنّاني بوسطن.
- فتيّ وموهوب! قل لي لِمَ كلّ هذه الأجساد العارية في أعمالك؟
- لأن الحقيقة عارية. ولأنّ الجسد العاري هو أقرب الرموز إلى الحياة وهو أجملها...
- ولِمَ رموز الموت والألم هذه؟
- لأنّ الألم والموت كانا نصيبي من الحياة حتّى يومنا هذا. ففي غضون سنتين فقدت شقيقتي وشقيقي وأمي. وكان لكلّ منهم مكانة خاصّة في قلبي.
- إني أشاطرك ألمك. والدمعة التي ألمحها في عينيك، تفهمها دموع قلبي جيداً. مثلك فقدت مؤخراً والدتي. هكذا نكون مرتبطين بصلتي قرابة: قرابة الفن وقرابة الألم.

- قرابة الألم أقوى من قرابة البهجة وقرابة الدمّ!

شكرت ماري الفنّان وسألته عمّا إذا كان المعرض مجدياً، ودعته لزيارتها في المدرسة التي كانت هي مؤسِّستها ومديرتها.

بقيت تلك الحقبة محفورةً في ذاكرة جبران: «كان الناس في ذلك المعرض يحبّون أن يجعلوني أتكلّم لأنّهم رأوا فيّ أشياء مستهجَنة»، كتب، فيما بعد، في رسالة إلى ماري. «كان يروق لهم، بالإجمال، أن يتفرّجوا على القِرد. أمّا أنت فقد كنت مختلفة عن الآخرين: كنتِ تحاولين الإصغاء إلى ما في ذاتي، وتحثّينني على الكلام كمن يحفر في قرارة نفسه. وكان هذا في نظري أمراً مستحبّاً».

بمضيّ أربعة أيام تلقّى جبران دعوةً لاحتساء الشاي في «هاسكلز سكول». ثمّ اقترحت عليه ماري أن يعرض أعماله لأسبوعين في قاعات المدرسة. فلم يتردّد في القبول. ثمّ راحت لقاءاتهما تتكرّر بعد المعرض.

عقب إقامة قصيرة على الشاطئ، في «فايف آيلندز» حيث كان داي يمتلك منزلاً صيفياً، عاد جبران إلى بوسطن عازماً على إيجاد عمل مجزٍ أكثر من الرسم: كانت تؤرقه معاناة مريانا التي كانت ترهق نفسها في عملها في مشغل الخياطة لتدبّر مصاريف البيت. وإذ بلغه أن مهاجراً لبنانياً يدعى أمين الغريّب أنشأ صحيفة عربية في نيويورك أسماها «المهاجر»، سارع إلى دعوتِه وأطلعه على رسومه والمقالات التي امتدحت أعماله، كما أطلعه على دفتره العتيق الذي دوّن فيه شعره المنثور بالعربية. على الفور وافق الغريّب على فتح صفحات جريدته لكتابات ابن بلده مقابل دولارين اثنين في الأسبوع. وبمضيّ بضعة أشهر، نُشِرت مقالة جبران الأولى في «المهاجر» تحت عنوان «رؤيا». نصّ مفعم بالغنائية يتحدّث فيه الكاتب بلسان «القلب البشري أسير المادّة وقتيل شرائع الإنسان الترابي».

في 12 تشرين الثاني عام 1904، حلّت الكارثة: إشتعلت النيران في مبنى «هارتكورت». حريق هائل أتى على محترفاته الأربعين، والتهم معدّات فريد هولاند داي وصوره - ما مجموعه 2000 صورة سالبة - بالإضافة إلى الرسوم

التي كان جبران تركها في عهدة صديقه. كان الحريق في نظر داي كارثة قضت على ثمانية عشر عاماً من العمل والجهد. أمّا في نظر جبران فقد شكّلت فصلاً جديداً من فصول المأساة التي يعيشها منذ عامين... كتب إلى جوزفين التي سعت إلى التخفيف من مصابه، هذه العبارة الحكيمة: «المهمّ أن يدرك المرء أنه ما زال حيّاً». وإلى ماري هاسكل التي كتبت تؤاسيه مبدية تعاطفها (هي الأولى من مجموعة رسائل سوف تتواصل ثلاثة وعشرين عاماً وسوف تشتمل على ستمائة وخمس وعشرين رسالة غلبت عليها المثالية وإن مالت أحياناً إلى غنائية مفرطة)، كتب مؤكّداً: «عزيزتي الآنسة هاسكل، إنّ عطف الأصدقاء وحده يجعل الحزن طيّب المذاق...» وفي محاولة منه لتعزيم المصاب الذي ألمّ به، نشر جبران في جريدة «المهاجر» مقالةً لافتةً جعل لها عنواناً بليغاً هو «الحروف الناريّة»:

«أيهدم الموت كلّ ما نبنيه، ويذري الهواء كلّ ما نقوله، ويخفي الظلّ كلّ ما نفعله؟ أهذه هي الحياة؟ [...] أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثمّ تمرّ نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنّه لم يكن؟ لا لعمري، فحقيقة الحياة حياة [...] هناك في العالم الآتي سنرى جميع تموّجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا، وهناك ندرك ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط. [...] الأرزاء التي نحتملها ستكون إكليلاً لفخرنا».

تحت وطأة صدمة الحريق، إنصرف جبران إلى الكتابة أكثر من انصرافه إلى الرسم. «لا أدري ماذا أصنع بأقلامي الملوّنة؛ ربّما تركتها في غياهب النسيان»، يسرّ إلى ماري قائلاً. أصبح لجبران زاوية دائمة في جريدة الغريّب أسماها: «خواطر»، لم يلبث، فيما بعد، أن جعل لها عنواناً آخر هو «دمعة وابتسامة». منها انطلقت بدايات جبران ككاتب وراح يضمّنها آراءه في الحبّ والجمال والصبا والحكمة. وفي عام 1905، أصدر بالعربية، عن منشورات «المهاجر» القائمة في 21 واشنطن ستريت في نيويورك، باكورة أعماله وهي بحث مقتضب بعنوان «الموسيقى» يتحدّث فيه، بلغة مزوّقة، عن الموسيقى بوصفها الحبيبة، منهل الذكريات والمشاعر، التي ترتقي

بالنفس البشريّة إلى ما وراء العالم المادي:

«بلى، فالموسيقى هي لغة النفوس، والألحان نسيمات لطيفة تهزّ أوتار العواطف. هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبّه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثّرت فيها بماضٍ عبر».

في الحقبة نفسها، اقترح عليه نسيب عريضة أن يملأ استمارة أسئلة مستلهمة من استمارة بروست Proust[1]. قَبِلَ الفنان الشاب الاقتراح من دون تردّد:

- أي محاسن الطبيعة أحب عليك؟
- الجبل.
- وماذا تحب من الفصول؟
- الخريف.
- ومن الروائح؟
- رائحة العود العتيق في النار.
- أي الأسماء أحب إليك؟
- سلمى.
- وأي التماثيل هي الأحسن في رأيك؟
- ما نحته ميكال آنجلو[2].
- ومن تحب من الشعراء؟
- شكسبير، والمتنبي، ومجنون ليلى، وأبو نواس... وكلّهم مجانين.
- ومن الناثرين؟
- ابن خلدون كمفكّر؛ ونيتشه كخيال؛ وتورغنييف كمصوّر.

[1] وردت هذه الإستمارة التي يعرفها قلّة من الناس والتي ننشر هنا أهمّ ما جاء فيها في كتاب جميل جبر: **جبران في عصره وأعماله الأدبية والفنية**، منشورات نوفل، 1983، ص 54.

[2] يمتدح جبران عبقريّة الفنّان المذكور في بطاقة بريدية تحمل صورة لإحدى منحوتات ميكال آنجلو، موجّهة إلى مي زيادة في 3 تشرين الثاني 1923.

- ومن تفضّل من أبطال الروايات؟
- هاملت وبروتوس[1] وفرنشيسكا دا ريميني[2].
- في أي عصر تودّ أن تخلق؟
- في العصر الحاضر، لأن فيه كل ما أبقته العصور الخالية.
- وأين تؤثر ان تعيش؟
- لبنان.
- أي الاخلاق تفضّل في الرجل؟
- الصدق.
- وفي المرأة؟
- العفّة.
- لو لم تكن أنت جبران خليل جبران، فمن كنت تريد أن تكون؟
- جبران خليل جبران.
- ما هي ألطف الكلمات؟
- الحبّ والطبيعة والله.
- ما هو غرضك في الحياة؟
- العمل، ثم العمل، ثمّ العمل.
- من تحب من أبطال التاريخ؟
- محمد.
- ومن بطلاته؟
- زنوبيا وجان دارك.
- أي الكتب تفضّل مطالعته؟
- سفر أيوب وماكبث والملك لير.

[1] الأرجح أنّ المقصود هو بطل في مسرحية **يوليوس قيصر** لشكسبير.

[2] بطلة النشيد الخامس من «الجحيم» في **الكوميديا الإلهية** لدانتي. ابنة أحد إقطاعيي رافينا، زوّجت من جيانشيوتو مالاتيستا، ابن طاغية ريميني. يُفتَضَح أمرها وهي برفقة عشيقها فيقتلا على الفور.

لهذه الإستعارة دلالة بالغة: إذ يقرّ جبران، وهو في الثالثة والعشرين، بتأثّره بنيتشه وشكسبير وميكال آنجلو و«سفر أيوب». يبدي تصميماً هائلاً (يريد أن يكون نفسه، ويصبو إلى الانكباب على عمله)، ويعبّر، منذ ذلك الحين، عن افتتانه الكبير «بالمجانين»، ويمتدح في الوقت نفسه النبي محمّد وجان دارك – قرينة إضافية على انفتاح ذهنه – ويؤكّد بوضوح تشبّثه بمسقط رأسه. أمّا الإجابتان المتعلّقتان بسلمى وفرنشيسكا دا ريميني، فهما تمهّدان لاثنين من أعماله: «الأجنحة المتكسّرة» و«الأرواح المتمرّدة» حيث تذكّر قصّته المعنونة «مضجع العروس» بمأساة فرنشيسكا في مؤلَّف دانتي. لا مناص هنا من الترداد بأنّ جبران، ومنذ صباه المبكر، قد اختطّ لنفسه بوضوح، سواء في كتاباته أو في رسمه، المسارَ الذي سيسلكه...

وفي خريف عام 1906، أصدر جبران بالعربيّة «عرائس المروج»، وهي مجموعة من ثلاث حكايات رمزيّة: «رماد الأجيال والنار الخالدة»، «مرتا البانية» و «يوحنا المجنون». تسرد الأولى قصّة كاهن فينيقي يفقد حبيبته، ثمّ بعد ألفي عام، يلقاها مجدّداً متقمّصاً في هيئة راعٍ وهي متقمّصة في هيئة فلاّحة. الحكاية الثانية هي قصّة يتيمة تقع في حبائل ثريّ من المدينة يغرر بها ثمّ يهجرها، وهي عبرة ينتهزها جبران لفضح التباينات الاجتماعية والتنديد باستغلال المرأة من قبل الرجل. وفي القصة الثالثة يروي نزاعات راعٍ مع كهنة دير ويندّد بطغيان الإكليروس وجشعه في تلك الحقبة. «تعالَ ثانيةً يا يسوع الحيّ واطرد باعة الدين من هياكلك، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم...» هذا المؤلَّف، الذي يغلب عليه الطابع الرومانسي، يحمل بذور الموضوعات التي ستلازم تفكير الكاتب: عظمة المسيح وصغارة رجال الدين؛ التناسخ والجنون بوصفه نبعاً للحقيقة والحرية:

> «أنا راحلة يا حبيبي إلى مسارح الأرواح وسوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة ترجع إلى هذه الحياة أرواحَ المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبدية قبل أن يتمتعوا بملذّات الحب وغبطة الشبيبة...».

أثار هذا الكتاب، فور صدوره، موجةً من الاستنكار في البلدان العربية. كان

جبران يتوقّع ردّ فعلٍ كهذا فكتب إلى ابن عمّه نخلة قائلاً:

«فالقوم في سوريا يدعونني كافر والأدباء في مصر ينتقدونني قائلين: هذا عدو الشرائع القويمة والروابط العائلية والتقاليد القديمة. وهؤلاء الكتاب يا نخلة يقولون الحقيقة لأنني بعد استفسار نفسي وجدتها تكره الشرائع التي سنّها البشر للبشر وتبغض التقاليد التي تركها الأجداد للأحفاد. وهذا البغض هو ثمرة محبّتي للعاطفة الروحية المقدّسة التي يجب أن تكون بدء كلّ شريعة على الأرض لأنها ظلّ الله في الإنسان... ولكنني أشعر بقوة بين تلافيف دماغي وفي عمق صدري تريد الخروج وسوف تخرج مع الأيام إن شاءت السماء».

نبوءات فنّان يعلم، كما يعلم نبيّ، أنّه منذورٌ لرسالة.

-6-

مدينة النور

في 6 كانون الثاني عام 1907، احتفل جبران بذكرى مولده الرابعة والعشرين. دعته ماري هاسكل لكي يحتسيا الشاي معاً في المدرسة التي تديرها. حمل إليها نسخة موقّعة من كتابه الأخير. وإذ انتحى ركناً منعزلاً، خطّ رسمين أولين كأنّ صلته بـ«قريبته في الفن» أيقظت في إهابه مجدداً شيطان الرسم. وبمضيّ بضعة أشهر، رسم، بطلب من صديقته، رسماً ذاتياً على خلفيّة وجه أنثوي. أرّخ اللوحة (1908)، وأهداها إلى م. أ. هـ. (ماري أليزابت هاسكل)، وذيّلها بتوقيع حروفيّ غريب مُشكّلٍ من أحرف اسمه الأولى.

في تلك الحقبة بدأ جبران بالتردّد خلسةً على عازفة بيانو، تدعى جرترود بارّي، لم يلبث أن يتّخذها عشيقة: وهكذا شهد استديو المرأة الشابة القائم في الطبقة السادسة من العمارة القائمة في 552 تريمونت ستريت، علاقتهما الجسدية الحميمة. استمرّت العلاقة بينهما بضع سنوات، غير أنها لم تترك أثراً، ولو ضئيلاً، في كتاباته...

وفي مطلع عام 1908، دعت ماري جبران إلى العشاء بصحبة صديقتين لها: الأولى تدعى شارلوت تِلِر. وهي من مواليد العام 1876، صحافية مطلّقة، قريبة من مذهب التيوصوفيّة، مقبلة على الحياة، تسعى لأن تكون كاتبة ناجحة (كانت أصدرت منذ بعض الوقت، عن دار نشر «أبلتون»، رواية «القفص» *The Cage* وتكنّ لماري حبّاً يقارب العشق («لا أحد يقدر أن يحبّني كما تحبينني أنتِ، ولا حتّى كما أنا أحبّك»، كتبت لها ذات يوم). أما الصديقة الثانية فهي فتاة فرنسية،

تدعى إميلي ميشال، من مواليد عام 1880، كانت ماري اختارتها خلال رحلة إلى أوروبا، واصطحبتها معها إلى بوسطن لكي تتولّى الإشراف على دروس اللغة الفرنسية في الهاسكلز سكول. فتاة تهوى المسرح وتحلم بتأدية أدوار على مسارح برودواي... نشأت صلةُ مودّة بين المدعوين الثلاثة. وخلال السهرة، أنجز جبران رسماً أولياً لوجه شارلوت التي رأى، بحسب قوله، أنّ «جمالها غريب». وانتهز المناسبة لكي يتطرّق، على مسامعهنّ، إلى مفاهيمه بشأن الفنّ ولله:

«معظم الأديان تتحدّث عن الله في صيغة المذكّر. ولكن في نظري الله هو أمّ كما هو آب. إنّه أم وآب في وقت معاً. والمرأة هي مثال الله الأمومي. أمّا الله الأبوي فلنا أن ندركه بالعقل أو بالمخيّلة. لكنّ الحبّ هو السبيل نحو الله الأمومي...».

أمعنت ماري خلال السهرة في تأمّل ضيفها. رموشه الطويلة الناعمة وعيناه اللتان كأنّهما «نجمان منعكسان في لجّة مياه عميقة». أعجِبَت بملامح وجهه «التي تتغيّر كظلال الوريقات، كلما خطرت بباله خاطرة، كلّما راوده إحساس»، وبجماله «البسيط الشاحب الذي لا تتسع له صورة». رأت فيه فتىً ملهماً مختلفاً عن سواه؛ كأنّه من طينة الأنبياء. وصمّمت على أن ترعى مستقبله كفنّان بنفسِها.

بعيد دعوتها جبران إلى المدرسة لكي يرسم أمام التلميذات (وقد انتهز الرسّام الفرصة لرسم بورتريه لإميلي ميشال!)، استقبلته ماري في منزلها. هناك احتسيا القهوة معاً، ودخّنا السكائر متطرّقين في معرض حديثهما إلى خطط المستقبل. اعترف لها جبران بأنّه، منذ بعض الوقت، ما عاد يحرز تقدّماً، وأنّه ربّما كان محتاجاً إلى تطوير مهاراته. فاقترحت أن يذهب إلى باريس ليقيم فيها سنةً، على نفقتها الخاصّة، لأجل تحسين مهاراته. فوجئ جبران باقتراحها: كان يعلم أنها امرأة متعاطفة لكنّه لم يدرِ من قبل إنّها سخية ومهتمّة به إلى هذه الدرجة. باريس! طالما راوده الحلم في زيارة مدينة النور. فقد كتب ذات يوم في رسالة إلى جميل المعلوف، وهو شاعر لبناني شاب، قائلاً:

«سمعت بأن في نيّتك الرجوع إلى باريس لتسكن فيها وأنا أيضاً أريد أن أذهب إليها فهل نلتقي في مدينة الفنون؟ هل نلتقي في قلب العالم ونذهب ليلاً إلى الأوبرا وإلى الكوميدي فرانسيز ثمّ نعود لنتحدّث عن مسرحيات راسين وكورنيل وموليير وهوغو وساردو؟ أنلتقي هنا ونسير ببطء إلى حيث كانت [قلعة] الباستيل ثمّ نعود إلى البيت شاعرين بملامس روح روسو وفولتير ونكتب ونكتب. ونكتب عن الحرية والاستبداد لنكون من المساعدين على هدم الباستيل القائم في كلّ بلدة في الشرق. أو نذهب إلى اللوفر ونقف أمام رسوم رفائيل ودافنشي وكورو. ثمّ نعود إلى البيت ونكتب. ونكتب عن الحبّ والجمال وتأثيرهما في خلايا القلب البشري؟».

ليل 12 شباط، كتب جبران إلى أمين الغريّب: «لأنّ في بوسطن ملائكة تريني المستقبل مشعشعاً»، مشيراً بذلك إلى داي وهاسكل من دون شكّ، «وتفتح أمامي سبيل النجاح الأدبي والمادي... سيكون ذلك، بمشيئة الله، بداية صفحة جديدة في تاريخ حياتي». وفي 28 آذار، أبلغ ناشر مقالاته وكتبه، الموجود في لبنان، أنّه سيغادر «بوسطن المفعمة بالحركة والضجيج» متوجهاً إلى باريس:

«أنا في هذه الأيام مثل صائم يترقب قدوم فجر العيد، لأن سفري إلى باريز يجعل أحلامي وأميالي حائمةً حول الأعمال الكبيرة التي سوف أحاول إتمامها في عاصمة المعارف والفنون... أنت ستمرّ بباريز طبعاً عندما تعود من سوريا وفي باريز سنلتقي ونفرح».

وقبل رحيله عن بوسطن، أصدر جبران لدى منشورات «المهاجر» كتابه الثالث بالعربيّة: «الأرواح المتمرّدة». عبارة عن أربع قصص واقعية تدور أحداثها في لبنان، عبّر فيها عن ثورته على اضطهاد الإقطاعيين ورجال الدين ورجال القانون، وفضح بشدّة خضوع العالم الشرقي للتقاليد البالية. وعلى الرغم من احتجابها وراء أفكاره الثوريّة وقوّتها، فإنّ الروحانيّة الماثلة في أعماله المستقبلية ليست غائبةً تماماً:

«النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان، ويبيّن سرائر النفس للنفس، ويجعلها فارحةً بالحياة مترنّمةً باسم الروح. [...] إنّ الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحةً في فضاء الحبّ والحريّة، فلماذا تجزّونها بأيديكم وتدبّون كالحشرات على أديم الأرض؟».

القصّة الأولى، «وردة الهاني»، هي وثيقة إتّهام ضدّ الزيجات القسريّة؛ قصّة «صرخة القبور» جعلها صدىً لثلاثة نداءات تطلقها شخصيّات محكوم عليها بالاعدام ظلماً: شاب يقتل قائداً من قوّاد الأمير في حالة من الدفاع المشروع عن النفس؛ وامرأة زانية، وخادمٌ عجوز. «مضجع العروس» تروي القصّة الحقيقية لفتاة مخطوبة وحبيبها، جُعلا ضحيتين على مذبح التقاليد الاجتماعية والأعراف، ويجري دفنهما على نحو لائق على الرغم من سباب الكاهن الذي لعنهما؛ أمّا قصّة «خليل الكافر» فهي قصّة راهب شابَ يُطرد من الدير فتستقبله أمّ وابنتها. بعد وشاية يمثل الشاب أمام محكمة. لكن، وعلى الضدّ مما هو متوقّع، تنقلب مجريات المحاكمة لتغدو في صالحه. فيسخر من قضاته ويبثّ روح التمرّد في أوساط القرويين. يتساءل جبران في هذا الكتاب:

«الشريعة – وما هي الشريعة؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشرّي رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطأة بأقدام من حديد؟».

ثمّ يؤكّد في فقرةٍ أفردها للحريّة:

«لحفظِ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلّحوا الدرزي لمقاتلة العربي، وحمّسوا الشيعي لمصارعة السنّي، ونشّطوا الكردي لذبح البدوي، وشجّعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي. فحتّى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم، وإلى متى يتوعّد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة، وإلامَ يتباعد الصليب عن

الهلال أمام عين الله؟ اصغي أيّتها الحرية واسمعينا! [...] بدّدي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة، المغمورة بالدماء والدموع».

بعد ذلك بأعوام، يقول جبران في رسالة إلى ماري: «يسمونني حفّار القبور. يعتقدون أنني حاقد وهدّام. ولكنّهم لا يعلمون أن البناء يقتضي الهدم أولاً... إنّ اللمسة المحبّبة لا توقظ الناس». إن «الأرواح المتمرّدة » تنطلق من هذه القناعة. إنّه عمل ملتزمٌ بالقضايا الاجتماعية، مفعم بالرومانسيّة، وقد يذهب البعض إلى وصفه بالهوغويّة (نسبةً إلى الشاعر فيكتور هوغو) لفرط ما تذكّر نبرة جبران العنيفة الحادّة، في بعض الأحيان، بنبـرة شاعر «العقوبات» *Les châtiments*. أثار الكتاب موجات احتجاج في سوريا ومصر. وتقول بعض المصادر أنّ السلطات العثمانية عمدت إلى إحراقه في إحدى الساحات العامّة في بيروت، ومعه أعمال أخرى إعتُبِرَت «تخريبيّة»...

سارع جبران إلى وضع نسخة من «الأرواح المتمردة» بين يدي ماري، نسخةً مرفقة بالإهداء التالي: «ببالغ الحبّ إلى ماري هاسكل التي بثّت وستبثّ الحياة فيّ، والقوة في جناحي، وجمال الحركة في أناملي». وفي 25 آذار، كتب إليها رسالة يؤكّد فيها أنّه جاور المسيح:

«اليوم نفسي سكرانة. ذلك أنني هذه الليلة حلمت به، هو من وهب الإنسان ملكوت السماء. آه! لو أستطيع أن أصفه لك. لو أستطيع فقط أن أحدّثك عن هذا الفرح الحزين في عينيه، ومرارة العذوبة على شفتيه، وجمال كفّيه الواسعين وردائه الصوف الخشن، وقدميه الحافيتين المكسوّتين بطبقة رقيقة من التراب الأبيض. كان كلّ شيء واضحاً وطبيعياً: الضباب الذي يكتنف الأحلام الأخرى ويغشاها لم يكن هناك. جلست بجواره وحدّثته كأنني أحيا معه منذ زمن بعيد. لا أذكر كلماته ومع ذلك أشعر بها الآن كما يشعر المرء عند الصباح

بموسيقى كان يسمعها قبل نومه... اليوم صار ظمأ قلبي أشدّ وأعمق من ظمأ كلّ يوم. يسكرني هذا الظمأ. نفسي جائعة لما هو سام وجميل. ومع ذلك، أعجز عن الكتابة، عن الرسم، عن القراءة. لا أستطيع إلاّ أن أجلس وحيداً صامتاً متأمّلاً في غير المرئي».

ما مصدر افتتان جبران بيسوع إلى هذا الحدّ؟ أهي طفولته التي قضاها في بيئة متديّنة تبدي إيماناً كبيراً بالعذراء وبالمسيح الذي تشاطره درب آلامه - حتّى المحاكاة - يوم الجمعة العظيمة؟ أم أنه التماثل مع أفكار هذا الكائن العُلوي الذي انحاز إلى المضطهدين والفقراء، وبشّر بالتسامح والحبّ؟ وهل يراه حقّاً في الحلم أم أنه يختلق لنفسه رؤىً وَجْديّة لكي ينمّي في روع أصدقائه صورته «كنبيّ شرقي»؟ ثمة أمر مؤكّد: وهو أن جبران سيبدي، طوال حياته، إعجاباً لامتناهياً ب «ابن الإنسان» الذي «من وُسموا بالميسم الخاص لأعماله يسموّنه الله[1]!».

تتالت لقاءات ماري وجبران على نحو شبه منتظم. ولكن على الرغم من اعترافها، في سرِّها، بأنّ مَحظيَّها أصبح أكثر فأكثر حضوراً في تفكيرها وأحلامها، فإنّ علاقتهما لم تتخطَّ آنذاك مرحلة الصداقة. بالمقابل بدا أنّ العلاقة بين جبران والمدرّسة الفرنسيّة الشابة إميلي ميشال، التي باتت تعرف بـ«ميشلين»، الاسم الذي أطلقته عليها ماري لرنّته وانسجامه مع جاذبيّة مظهرها، قد جاوزت حدّ الصداقة إلى ما يتعدّاها. فميشلين كانت أشبه ببطلات التراجيديا بشعرها الطويل المُسبَل إلى الوراء، وعنقها الفارع، وأنفها البارز وعينيها المعبّرتين المظلّلتين بحاجبينِ مرسومين. كانت الفتاة تستمتع برفقة الفنّان، فتقرأ له القصائد الفرنسيّة ولا مانع لديها من التّوَضُّع أمامه عاريةً ليرسمها. ولم يمضِ وقت طويل حتّى نشأت ألفة فيما بينهما: إذ حرصت، من جهتها، على مراعاة حساسيّته («هذا الفتى

(1) Ernest Renan, *De la part des peuples sémitiques dans l'histoire de la civilisation,* Discours inaugural au Collège de France, 1862.

شديد الحساسيّة»، تلاحظ قائلة)؛ فيما تعلَّم هو كيف يتقبّل ملاحظاتها بشيء من الدعابة. إلى الأمور الأخرى التي جمعت بينهما، كمنفاهما المشترك، وتطلّعاتهما التي لم تتحقّق بعد، وشغفهما المشترك بفرنسا... أغرم أحدهما بالآخر أمام عيني ماري هاسكل التي، للمفارقة، رحّبت بتلك العلاقة وشجّعتها: «كلّ التمنيات لـ خ + م»، كتبت بكثيرٍ من الرضا في يوميّاتها الحميمة. ولم يكن في هذا الحبّ ما يجعله حبّاً أفلاطونياً عفيفاً، فقد أوحى لجبران بنصٍ كتبه تحت عنوان: «أوّل قبلة»:

«هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحبّ...
هي عروةٌ توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي، وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها...
هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنةً صيرورة القلب عرشاً، والحبّ مليكاً، والفاء تاجاً...
وإذا كانت النظرة الأولى تشابهُ نواة ألقتها آلهة الحبّ في حقل القلب البشريّ، فالقبلة الأولى تحاكي أوّل زهرة في أطراف أول غصن في شجرة الحياة».

غير أنّ خطباً ما طرأ، وضع العلاقة على المحكّ: تقول بعض المصادر[1] إنّ ميشلين حملت من جبران وأن الحمل كان خارج الرحم: فأجهضت مبقيةً طيّ الكتمان هذا السرّ المؤلم الذي كان له الأثر الكبير في علاقات جبران اللاحقة...

وفي حزيران 1908، انهمك جبران بترتيبات سفره: أعدّ حقائبه وودّع أصدقاءه. وكتب رسالة إلى فريد هولاند داي ليعلمه بسفره معبّراً عن أسفه لما اعترى علاقاتهما من فتور. «لقد كنت يا صديقي العزيز أول من فتح عينيّ شبابي على الضوء...»، قال له لكي يعبّر عن امتنانه.

وفي 9 حزيران، أقيمت مأدبة وداع على شرف جبران. وقرّرت ميشلين أن تلحق به إلى باريس حيث ينبغي لها أن «تزور بعض الأقارب». أمّا ماري فقطعت

[1] راجع الكتاب الجريء الذي وضعه روبن واترفيلد، مرجع سابق، ص 135، والذي يستند إلى معلومة تضمّنتها الطبعة العربية الأولى من سيرة جبران بقلم ميخائيل نعيمة.

له عهداً بأن تزوره في باريس في أوّل فرصة ممكنة.

وفي مطلع تموز عام 1908، أبحر جبران من نيويورك على متن السفينة «روتردام». لم يكن أثرٌ لحزنٍ في نظراته الشاخصة صوبَ المرفأ المبتعد: كان يعلم جيّداً أنّه سيعود ذات يوم.

***

كانت باريس، مطلع القرن العشرين، حلم الفنّانين في بقاع العالم أجمع: فمدينة النور نبعٌ للحيوية المبدعة لا ينضب؛ مدينة تستثير الأحاسيس وتوقظها؛ تصقل النظرة الجمالية، تثقّف وتعلّم... وصلها جبران في 13 تموز 1908 وشهد بافتتان الاحتفالات التي تقام في ذكرى الاستيلاء على الباستيل - الواقعة التي أتى على ذكرها، بكثير من الحماسة، في رسالته إلى جميل المعلوف! انضمّت إليه ميشلين وساعدته في العثور على غرفة كسكنٍ مؤقت في الطبقة الخامسة من أحد المباني في جادّة «كارنو». بعد ذلك بوقتٍ قصير انتقل للإقامة في ستوديو في 14 جادة «مين»[1]. سارع الفنّان الشاب، فور استقراره هناك، إلى الالتحاق بأكاديمية جوليان Académie Julian، وهي أكثر أكاديميات باريس الخاصّة شهرةً آنذاك، أنشأها رودولف جوليان وكان في عِداد طلابها كلّ من ماتيس وبونّار وفرنان ليجه، إذ أنّها تشكّل وسيلة فُضلى لانطلاقة الفنّان في مهنته: فلقاء مبلغٍ زهيد نسبياً، توفّر الأكاديميّة للوافدين الجدد موديلاً، وتعليماً، وتجاربَ وصِلاتٍ، من دون أن تشترط امتلاكهم لكفاءات بعينها لدى تسجيلهم[2]. كما سجّل نفسه كطالب مستمع في «معهد الفنون الجميلة»، القائم في شارع «بونابرت»، وانصاع بطيبة خاطر لطقوس التزريك: «خلال حَفل الطلاب الذي أقيم لاستقبال

[1] وُضعت لوحة تذكارية عند مدخل العمارة للتذكير بأنّ جبران، «الشاعر والرسّام اللبناني الأميركي»، قد أقام فيها.

[2] John Milner, *Ateliers d'artistes Paris, capitale des arts à la fin du XIX siècle*, éd. Du May, 1990, p. 18.

الوافدين الجدد، كان عليّ أن أحتسي الشراب كما فعل الجميع. بعضهم غلبه النعاس، وبعضهم الآخر شعر بتوعّك... أما أنا، فلم أشعر بشيء: لا بل كنت مبتهجاً وأمضيت وقتاً ممتعاً». كيف كانت الأجواء السائدة في محترفات تلك الحقبة؟ في كتابه *In the Quarter* يصف لنا الكاتب روبرت وليم تشامبرز هذه الأماكن التي يتردّد عليها عدد من الفنانين الأميركيين: «كان الحرّ خانقاً، والجدران الملطّخة بفضلات نحو مائة مَلْوَن كأنّها تنشّ وتنبعث منها رائحة مقزّزة هي مزيج من روائح الطلاء والتِربانتين. وضْعَتان فقط أنجزتا، ومع ذلك كان الموديلات، وقوفاً أو جلوساً، متعبين تتصبّب أجسادهم عَرَقاً. من بين الفتية المتمرّنين على الرسم، كثيرون خلعوا قمصانهم ولبثوا عراة الصدور. كان الهواء مثقلاً بدخان التبغ وبأنفاس نحو مائتي طالب ينتمون إلى نحو مائة جنسية»... مما لا شكّ فيه أنّ جبران، المبتدئ، كان يتوقّع أجواء أفضل من تلك التي طالعته.

بمضيّ أيام قليلة، وصلت ماري هاسكل إلى باريس برفقة أبيها. سُرّ جبران كثيراً لرؤية وليّة نعمته مجدداً ولما سمعه منها عن أحوال مريانا، التي لم تكن تراسله لأنها لا تحسنُ الكتابة. غير أنّه لم يتمكّن حقّاً من الاستمتاع بوجودها: كان والدها يلازمها أينما ذهبت، وأصدقاؤها الباريسيون يحيطون بها.

لشدّة ما شعر بالوحدة عقبَ عودة ماري إلى بوسطن وانتقال ميشلين إلى مدينة نيفير حيث يقيم أبواها، ألمّت به وعكة صحيّة أخرى. ولكن بعد شفائه، بفضل عناية زوجين لبنانيين من الأصدقاء، من آل رحيّم، استأنف دروسه في الأكاديميّة: «إنّي أرسم، أو أتعلّم الرسم»، يكتب في إحدى رسائله إلى ماري. «لن أتمكّن من رسم ما أريد إلاّ بعد وقتٍ طويل. ولكن من الرائع أن يشعر المرء بتحسّن نظرته إلى الأشياء... الآن بدأت أفهم الأشياء والناس من خلال عينيّ أنا ويبدو أن ذاكرتي بدأت تحفظ أشكالَ وألوان الأشخاص والأشياء».

عادت ميشلين إلى أميركا وأقامت في نيويورك على أمل تحقُّق حلمها في أن تجد لها مكاناً في عالم المسرح. «لا ينبغي لها أن تبقى، ولا ينبغي لي أن أطلب منها البقاء»، قال جبران الذي لم يكن راغباً في أن يكون العقبة دونَ تحقّق مستقبل

صديقته المهني. لذا وجد ملاذه في ذكرى ماري، كاتمة أسرارِه. جعله الفراق أكثر اشتياقاً لها، ويجعلها أقرب إلى قلبه. فكتب إليها بعاطفة تجاور الحبّ، هذه الكلمات المفعمة بالحنين:

«عندما تستبدّ بي الكآبة، يا عزيزتي ماري، أقرأ رسائلك. عندما يبتلعني الضباب أفتح العلبة الصغيرة التي أحفظ فيها رسائلك وانتقي منها رسالتين أو أكثر لكي أعيد قراءتها. إنّها تذكّرني بأناي الحقيقي وتفتح لي طاقة الهروب من كلّ ما ليس سامياً أو جميلاً في الحياة. ينبغي لكلّ منّا، يا عزيزتي ماري، أن يكون له ملاذ للراحة في مكان ما. وملاذ نفسي هو غيضةٌ وارفة حيث تحيا كلّ الرسائل التي تكتبينها».

غدت النبرة أكثر حميميّة، والمشاعر أكثر دفئاً: ذلك أنّ البُعاد جعل جبران قابلاً للبوح بخفايا قلبه بلا تردّد. كما كانت حاله مع «بوزي»، ومع مي زيادة، التي راسلته من القاهرة، إذ ترك لقلبه أن يُسيّر قلمه. فكانت حصيلة البوح رسائل مفعمةً بالشغف طغت فيها الغنائية أحياناً على الصدق...

لكن لحسن الحظّ أنّ جبران وجد العزاء عن غياب ماري وميشلين في صداقة رفيق الدراسة يوسف الحويّك، المولود في السنة نفسها التي ولد هو فيها، والوافد إلى روما، ثمّ إلى باريس، لتعلّم مبادئ فنّ الرسم والنحت. لم تكن ليوسف، لبساطة طبعه وحبّه للدعابة وانفتاحِه على الآخرين، تلك الطباع القلقة الحالمة التي طبعت شخصيّة جبران. فبينما كان الأوّل كثير التردّد على المقاهي، معتبراً أن الجلوس في مقهى لو دوم Le Dôme هو فنّ في حدّ ذاته، كان الثاني حريصاً على اجتناب الأماكن الصاخبة، لا يحبّ الرقص مؤثراً، شأنَ الكاتب الفرنسي بلزاك، السيرَ على ضفاف السين والتجوالَ ليلاً في أحياء باريس القديمة. غير أنّ هذا لم يحل دون انسجامِ الرفيقين اللذين قضيا في فرنسا عامين لن يفارقا ذاكرتيهما، سَرَدَ الحويّك وقائعهما في كتاب مذكّرات. بعد ذلك بسنوات، قال جبران ليوسف مستذكراً تلك الحقبة إنّ روحَه تعود كلّ مساء إلى باريس، هائمةً بين منازلها. وإنّه يستيقظ كلّ

صباح متفكّراً في تلك الأيام التي قضياها بين معابد الفنّ وعالم الأحلام...

أحرز جبران تقدّماً: «في بعض الأيام أترك عملي وبي إحساسٌ بأنني طفلٌ يُطلب منه أن يأوي إلى فراشه باكراً»، كتب ذات يوم في إحدى رسائله إلى ماري. غير أنّه كان نافد الصّبر: فبمضيّ أشهر قليلة على التحاقه بأكاديمية جوليان، قرّر أن يترك هذه المدرسة. ضاق بالفوضى التي كانت تعمّها، يروي يوسف مستذكراً. ورأى أن نصائح جان بول لورنس، أستاذه، لا تأتيه بأية فائدة. ولا عجب في ذلك، إذ أن جان بول لورنس (1921-1838)، وهو مَن زيّن البانتيون وكابيتول تولوز (قاعة المشاهير) ومبنى بلديّة باريس (قاعة لوبو)، كان يُعتبَر أحد آخر رموز الرسم التاريخي. فمن البديهي ألاّ تنجذب روح جبران الرومانسيّة إلى أسلوبه! ولكن إلى أين يذهب؟ في مطلع شهر شباط 1909، اهتدى جبران أخيراً إلى أستاذ جديد: بيار مارسيل-بيرونو Marcel-Béronneau، أحد الرسّامين الزهديين، تلميذ غوستاف مورو، الذي يشرف على مجموعة من اثني عشر تلميذاً يمرّنهم على رسم العري والموديلات المتشحة. يقول جبران عنه إنّه فنّان عظيم ورسّام رائع وذو ميول زهديّة. لقد اقتنت وزارة الثقافة الفرنسية عدداً من لوحاته وهو معروف في الوسط الفنّي بوصفه «رسّام سالومِه»... ويضيف جبران قائلاً إنّه قصده ذات يوم حاملاً معه عملين أو ثلاثة من أعماله البسيطة لكي يطلعه عليها. فعاينها مدقّقاً لبعض الوقت وبعد عبارات التشجيع تحدّث إليه مطوّلاً بصفة شخصيّة وقال له: «دع الزمن يأخذ مجراه، لا تحاول أن تصوغ تعبيراً لخواطرك وأفكارك الآن. انتظر ريثما تطّلع على قاموس الرسم بأكمله...». غير أنّ هذه الكلمات لم تلقَ أذناً مصغية: كان جبران نهماً متلهّفاً للمعرفة والخلق، راغباً في إحراق المراحل، يكاد لا يطيق الانتظار. لذلك رأى أنه أخذ عن أستاذه كلّ ما وسِع هذا الأخير أن يعطيه، وقرّر التخلّي عن متابعة دروسه.

عندئذ التحق، مع يوسف، بأكاديميّة كولاروسّي Académie Colarossi، التي تديرها إمرأة إيطالية تُدعى كاترينا. كانت هذه الأكاديمية القائمة في 10، شارع «غراند-شوميار»، والتي إستقبلت كميل كلوديل وعدداً من الفنّانين الأجانب

الذين يقصدون باريس لتحسين تقنياتهم (أمثال الكنديين جان بول لوميو، وسوزور كوتِه، وفرنسيسكو إياكورتو، والألماني هربرت فيدلر)، كانت متخصّصة في رسوم العُري نقلاً عن موديلات. غير أنّ جبران فضّل العمل بمفرده وبحريّة تامة في محترفه، كما آثر ارتياد المتاحف والمعارض لكي يتمكّن من «متابعة الأنشطة الفنّية»، بحسب زعمه. كان يعطي دروساً خاصّة في الرسم لخمسة تلاميذ، مرّتين في الأسبوع، لكي يجني بعض المال، وباشر بتنفيذ مشروع طموح: وهو إنجاز سلسلة من البورتريهات لشخصيّات عصره البارزة. كانت باكورة تلك السلسلة التي سيطلق عليها اسم «معبد الفنّ»، بورتريه النحّات الأميركي بول بارتليت، مبدع تمثال لافاييت القائم عند مدخل «اللوفر»، ثمّ استكملها ببورتريهات لكل من أدمون روستان، وكلود دوبوسي وأوغوست رودان، وهنري روشفور، صاحب القلم النقديّ اللاذع الشهير: لائحة طويلة لافتة لمشاهير ذلك الزمان! فهل كان يلتقي هؤلاء «الثلاثين دقيقة فقط» كما يؤكّد لماري في إحدى رسائله، أم أنه كان يكتفي برسمهم معتمداً على ذاكرته أو على صورٍ فوتوغرافية؟ لا يسعنا الجزم بأحد الاحتمالين.

كلّ يوم أحد، كان جبران ويوسف، المتعطّشان للمعرفة، يقصدان متحف اللوفر. وهناك يقضيان ساعات طويلة متنقلّين بين قاعاته الرحبة، ثمّ يغادرانه متوجهين إلى حديقة الـ«لوكسمبورغ» للتمتّع ببساط أديمها الأخضر وأشجارها وأزهارها وخمائلها. وهناك كانا يتذكّران سيرَ الفنانين الكبار: دانتي، بلـزاك، فولتير، روسّو... ويتناقشان ويتبادلان الآراء. عند «البانتيون»، على بعد أمتار من الحديقة، كان جبران يقف مذهولاً أمام جداريّة تمثّل القديسة جنفياف، من أعمال بوفي دو شافان Puvis de Chavannes الذي كان له تأثير حاسم على عمله كرسّام[1]: «هل من غبطةٍ أعمق من تلك البادية على وجهه؟» يسأل صديقه.

[1] لقد كشف أحد المعارض الذي أقيم في «بالتزو غراسي» في مدينة البندقية (شباط-حزيران 2002)، عن كون بوفي دو شافان (1824-1898) أحد «رواد» الحداثة وعن كونه مُلهم بيكاسو، وغوغان وماتيس...

وأحياناً كانا يقصدان الـ«كلوزري دي ليلا» لاحتساء القهوة، أو تناول طعام الغداء في مطعم «مدام بودِه»، القائم عند تقاطع شارع «ليبولد-روبير» وبولفار «راسباي»، أو الاستمتاع بمشاهدة الراقصة إيزادورا دنكان Isadora Duncan في مسرح «الشاتلِه». ذات يوم تلقيا دعوة من صديق، هو الدكتور غاسبار، لزيارة «معهد باستور». فأبدى جبران إعجابه الكبير بالمكان وسأل يوسف قائلاً إذا كان لا يلاحظ حقاً أنّ العالِمَ يتفوّق على الأديب والفنّان؟

كان عدد من الفتَيات، معظمهنّ من الأجنبيات، يدور في فلك الشابين «الباريسيين»: أولغا، الطالبة الروسيّة، التي كانت تتابع دروساً في الأدب الفرنسي في جامعة السوربون، والتي كانت، في طفولتها، «تجلس على ركبتي تولستوي وتداعب لحيته»؛ وسوزان وليا وهما يهوديتان من رومانيا؛ وروزينا الإيطالية «ذات الشعر الذهبي، رفيقة روح بوتيتشيلي»؛ والفرنسيّتان مارتين التي تحيّرها مسألة وجود الله، ومارغريت، الراقصة في «المولان روج»... كان يوسف يستمتع برفقة «ربّات الإلهام»، ويحاول استمالتهنّ، بينما حرص جبران، الذي لم يكفّ، طبعاً، عن التفكير بماري، على الابتعاد عنهنَّ وإن كُنَّ قد لَقَّبنَهُ بـ «الأمير» ذي الاحاديث المبهمة. وإذ انتهز زيارة شارلوت تِلِر، صديقة ماري، إلى باريس، أطلعها على أعماله الجديدة وقضى أسبوعاً بصحبتها في فرساي. ألهمته رسماً جديداً غير أنّه تخلّى في آخر الأمر عن مشروعه إذ أحبطه ميلها الدائم إلى الحركة كأنّ رأسها المزدحم بالأحلام يحثّها دوماً على السعي عَدْواً وراء ظلّها!

غير أنّ هذه الانشغالات والتسالي واللقاءات لم تمنح جبران سكينة النفس. موت والده الذي بلغه بواسطة رسالة موجّهة إليه من بشرّي أغرقه في حزن عميق. وفي 23 حزيران 1909، كتب إلى ماري:

«ماري الحبيبة، لقد فقدتُ أبي. مات في البيت القديم حيث ولد قبل 65 عاماً... كتب إليّ أصدقاؤه ليخبروني بأنه باركني قبل أن يُسلِم الروح. لا أستطيع إلاّ أن أرى ظلال الأيام السالفة عندما كان أبي وأمي وبطرس، وكذلك أختي

سلطانة، أحياء ويبتسمون أمام وجه الشمس. أين هم الآن؟ هل ما زالوا معاً؟ هل يمكنهم تذكّر الماضي كما نفعل نحن؟ هل هم قريبون من هذا العالم أم بعيدون عنه؟ أعلم، يا عزيزتي ماري، أنّهم يواصلون حياتهم، وأن حياتهم الجديدة أكثر حقيقة، وأجمل من حياتنا. إنهم أقرب منّا إلى الله».

كان جبران لا يكفّ عن الجهرِ بشكوكه، سائلاً يوسف عمّا أنجزاه إلى اليوم؟ أو متى ومع من سيبدأ الشَرق بالتفكير؟ وعندما يواجه صعوبات ماديّة تمنعه من السفر واكتشاف التحف الفنيّة في إيطاليا، كان لا يخفي قنوطه قائلاً بما يشبه التسليم بالمحتوم: «كم هو ملعون المال الذي يحول بين الإنسان وبين إيمانه!» فالفنان الشاب طموح ومثالي؛ تراءى له أنّه قادر على تغيير العالم، وسعى لإقناع الآخرين بأفكاره ونظريّاته حول الفنّ والله والطبيعة... «أذكر جيّداً حالة جبران النفسيّة، يقول يوسف في مذكّراته. كان يجرجر أقدامه على الأرض الباردة فيما روحه تحلّق في الأعالي». قلقاً، «عالقاً في أوحال الحياة»، كان جبران يدخّن بشراهة، ويُفرط في احتساء القهوة خلال النهار، ويقرأ ويعيد قراءة جيد Gide وريلكه Rilke وتولستوي ونيتشه الذي يصفه يوسف بأنه «فيلسوف عابس»، كما كان يكتب بالعربيّة نصوصاً يجدها المقربون منه «كئيبة واعظة». اكتشف أرنست رينان Ernest Renan وتأثّر بالأفكار الجريئة لهذا المفكّر الذي عرف لبنان حيث ترقد هنرييت، أخته، التي أهداها كتابه «حياة يسوع»:

«أقرأ الآن رينان. أحبّه لأنه أحبّ يسوع وفهمه. لقد رآه في وضح النهار، لا في غسقه... إنّ رجائي الكبير هو أن أتمكّن ذات يوم من رسم حياة يسوع كما لم يفعل أحد من قبل. ليس لحياتي أن تجد سكينة أعمق من السكينة التي تجدها في شخصيّة يسوع...».

في 13 شباط 1909، نشر في الصفحة الأولى من جريدة «المهاجر» قصيدة نثر

طويلة، مهداة إلى «م.أ.هـ.» عنوانها: «يوم مولدي»، يتحدّث فيها عن كآبته وعن الموت وعن حبّه للحياة والحريّة، وعن السعادة والبشريّة:

«سلامٌ أيتها الحياة. [...] سلام أيّها الزمن السّائر بنا نحو الكمال. سلام أيّها الروح الضابط أعنّة الحياة، المحجوب عنّا بنقاب الشمس...».

في تلك الحقبة، وضع جبران خطّة لتأليف رواية أراد من خلالها البرهان على أنّ الإنسان، أينما وُجِد، قادر على الاتصال بالله من دون اللجوء إلى المعابد والكهنة، وأنّ منبع جميع الديانات واحد. بطل الرواية، وقد أسماه خليل بن سالم، يرى وجه الله من خلال الطبيعة ويصغي إلى الطيور والشلاّلات تُسبِّح بمجده. ويؤمن بيسوع، ويبارك بوذا وموسى، ويؤكّد أنّ جميع من يهدون البشر إلى السبيل المفضي إلى الكمال هم فيضٌ من روح الله السامية[1]. غير أنّه تخلّى، في النهاية، عن مشروعه هذا لينكبّ على مخطوطته «لأجل أن يكون الكون خيّراً»، نواة كتابه «النبيّ»، ولكي يستكمل تأليف رواية عنوانها «الأجنحة المتكسّرة»، وهي قصّة حبّ يعاني من أسرِ التقاليد والسلطات الكنسيّة. وفي الوقت نفسه، نشرت إحدى قصصه، «مرتا البانية»، من مجموعته «عرائس المروج»، في ترجمة فرنسيّة لميشال البيطار، أستاذ اللغة العربية في جامعة السوربون، ضمن عدد خاص، هو العدد العاشر، من مجلّة *Les Mille nouvelles nouvelles* حيث جرى التقديم له بوصفه «كاتباً عربياً شاباً، يؤلّف القصص داعياً إلى الإصلاح، كإصلاح أوضاع المرأة الشرقيّة... وتحطيم القيود الدينيّة في لبنان». فشعر جبران بالزهو لرؤية اسمه مجاوراً لاسم كاتب كبير كتشيخوف.

في هذه الاثناء، وفي أعقاب ثورة تركيا الفتاة على نظام حكم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني، لجأ عدد كبير من الثوريين السوريين اللبنانيين إلى باريس. ونشأت جمعيّات سريّة للدفاع عن قضيّة القومية العربيّة مطالبة بالحكم الذاتي

[1] ج. ب. دحداح، المرجع المذكور، ص 208.

في البلدان التي يحتلّها العثمانيون. ومن بين أبرز هؤلاء المناضلين، شكري غانم، الشاعر والكاتب المسرحي، ومؤلّف مسرحية «عنتر» التي عُرِضَت بنجاح على مسرح «الأوديون». خالط جبران هذه الأوساط وتشبّع بأفكارها. كما تابع عن كثب أعمال المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1910 الذي عقده دعاة الاستقلال السوريون واللبنانيون، والذي دعا إلى منح العرب الخاضعين للنير العثماني حقوقهم السياسيّة، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، ومشاركة العرب الفعلية في الإدارة المركزية للإمبراطورية العثمانية، وإجراء إصلاحات جذريّة داخل هذه الإدارة. ولكن بعد ذلك بثلاثة أعوام، رفض جبران حضور مؤتمر عربي عُقِد لبحث خطة استقلال ذاتي للبلدان التي يحتلّها العثمانيون، بذريعة أنّه ينبغي للعرب أن يثوروا وأن يحرّروا أنفسهم بأنفسهم، وأنّ اللجوء إلى القوى الأوروبية والحصول على الاستقلال الذاتي بالطرق الدبلوماسيّة أمران لا ينطويان على أي قدرٍ ولو قليلٍ من الفطنة. غير أنّ أبناء بلاده كانوا لا يشاطرونه رؤيته تلك: فقد تكبّد أمين الرِّيحاني عناء الرحلة بين نيويورك وباريس لكي يمثّل الجالية السورية اللبنانية في الولايات المتحدة في أعمال المؤتمر.

رغبة منه في تعريف الناس على أعماله الفنية، أفلح جبران في الحصول على دعوة للمشاركة في «صالون الربيع»، وهو أحد أبرز المعارض السنوية في باريس. فقد كان الفنان الشاب يعلم أن ساعة الرجوع إلى بوسطن أصبحت وشيكة، وهو يصبو، بأي ثمن، إلى المشاركة في أحد المعارض قبل رحيله عن مدينة النور. من بين الأعمال الثلاثة التي رشّحها للاشتراك في المعرض، حظي عمل واحد منها بموافقة لجنة التحكيم المنبثقة عن «الجمعية الوطنية للفنون الجميلة»: لوحة الخريف التي تصوّر روزينا نصف عارية، ضامّةً شعرها المذهب بيدها اليمنى. من خلال وَضْعَتها وألوانها وخلفيّتها، تعبّر هذه اللوحة عن الكآبة التي تتخلّل أفراح الصيف وأحزان الشتاء، يقول جبران مفسّراً أجواء اللوحة. ولكن لسوء الحظ، عندما حان موعد تعليق اللوحات، لم تُعرَض لوحته في القاعة الكبرى، بل عُرِضَت في رواق ضيّق من مبنى «الغران باليه»، ما أثار حنق جبران: لقد كان يعلم

أن رودان، رودان العظيم، سيزور المعرض. وإذا علّقت اللوحة في ركنٍ مهمل، لن يتمكّن من مشاهدتها والإعجاب بها والتعرّف إلى مبدعها! هرع يوسف لنجدة صديقه، وتمكّن من رشوةِ أحد الحرّاس فقبل بنقل اللوحة وتعليقها في القاعة الكبرى!

في اليوم التالي، أتى أوغست رودان لزيارة المعرض محاطاً بسرب من النساء المعطّرات المرتديات فساتين واسعة الأذيال طويلة، ومعتمرات قبّعات مزيّنة بالزهور. لمح جبران الرجل السبعيني ذا اللحية البيضاء مقبلاً نحوه. فسرت رعشة في أوصاله، ثمّ استجمع كلّ ما أوتيَ من شجاعة ودنا منه محيياً مُسرّاً إليه بعد التحية، وبصوت متهدّج لشدّة اضطرابه، ببضع كلمات. وبحسب ما أقرّ به جبران، طلب منه أن يشاهد لوحته «لكي يسمع منه تقويماً سيحظى بالصدى الكبير في أميركا». غير أن رودان لم يتسع وقته لأكثر من وقفة عابرة أمام لوحة الفنّان الشاب، وهزّة من رأسه قبل أن يواصل جولته.

في حزيران سنة 1910، عرّج أمين الريحاني على باريس. كان جبران معجباً بالأديب المولود سنة 1876 في الفريكه، البلدة الصغيرة في جبل لبنان، وبآرائه الجريئة حول تصرفات الاحتلال العثماني وموقف رجال الدين. استأجر أمين ويوسف وجبران عربة خيل وراحوا يجولون فيها عبر أحياء باريس: «الآب والابن والروح القدس»، علّق الريحاني على تلك الصحبة، ساخراً. عند المساء قصد أمين ويوسف «المولان روج» للاستمتاع بمشاهدة «الفتيات شبه العاريات اللواتي يرقصنَ مدوِّمات»، مخلّفين جبران في شقّته الجديدة، في شارع «شيرش ميدي». أمّا في اليوم التالي، فقد كان عليهم جميعاً الخضوع لبرنامج تثقيفي، وهكذا قام الأصدقاء الثلاثة بجولة لمدّة ثلاث ساعات في أرجاء متحفً اللوفر.

بعد ذلك بأيام قليلة، غادر الريحاني وجبران إلى لندن. وهناك لم يفوت جبران على نفسِه فرصة الاستمتاع بمشاهدة لوحات ترنر Turner، في «تايت غالري»، ولوحات واتس Watts وروسيتي Rossetti؛ وذهب بصحبة صديقه لزيارة توماس باور أوكونر Thomas Power O'connor، المناضل الوطني

الايرلندي الذي اصطحبهما في زيارة للبرلمان البريطاني. وهناك عمد توماس وجبران إلى تدبيج رسالة عجيبة إلى يوسف، إذ تناوبا على تأليف سطورها التي جاء في مطلعها: «نحن في هذه المدينة الملبّدة بغيوم سودٍ، أشبه بطائرين من الجنوب تائهين في قلب عاصفة شمالية...».

عقِبَ تلك الرحلة، غادر الريحاني إلى نيويورك بينما قامت إميلي ميشال بالرحلة في الاتجاه المعاكس: إذ خانها الحظّ في برودواي. حاول جبران أن يخفّف عنها. «الحقيقة أنها عانت الكثير، غير أنّها امرأة شجاعة استطاعت أن تواجه الخيبة بأعصاب باردة. ما زالت تراودها أحلام المسرح والشهرة، غير أنّها اليوم تدرك جيّداً الجانب الخفيّ من خشبة المسرح. وآمل أن تتغلّب على كلّ هذا». مع الوقت شهدت علاقتهما قدراً متزايداً من الفتور. ولم يصمد غرامهما، في آخر المطاف، إلاّ بضعة أشهر، وهي المدّة الكافية لاستثارة الوحي لدى جبران الذي كرّس لها عدداً من اللوحات، وقال عنها: «ستبقى على الدوام فريدة في عينيّ، ستبقى على الدوام جميلة». في الأول من شهر تشرين الأول 1914، انتهي الأمر بالفتاة الفرنسيّة بأن عقدت قرانها على محام يُدعى لامار هاردي، كان يعمل مستشاراً لدى عمدة نيويورك، جون ميتشل[1]. غير أنّها لن يكتب لها عمرٌ مديد: ففي شهر أيلول سنة 1931، وبمضيّ خمسة أشهر فقط على وفاة جبران، اصيبت بمرض عضالٍ أقعدها عن الحركة، مودياً بأوهامها الضائعة وأحلامها المحطّمة. وكان عزاؤها الوحيد: ابنة ولدت في 16 آب 1915، أسمتها... «ميشلين»[2]!

بدوره قام يوسف الحويك برحلة تبدأ من ألمانيا وتنتهي بإيطاليا مروراً بالنمسا وتركيا واليونان. وخلال رحلته الطويلة تلك واظب على الكتابة إلى جبران

[1] لامار هاردي، المولود في 29 أيار 1879، والمتوفى عام 1950، هو ابن وليم هاريس هاردي، رجل القانون ومنشئ مدن غالفبورت، ولوريل، وهاتيسبرغ بولاية ميسيسيبي. وتولّى بين العامين 1935 و1939 منصب النائب العام للقطاع الجنوبي من مدينة نيويورك.

[2] لقد تمكّنا من تتّبع أثر ميشلين هاردي، ابنة إميلي ميشال: عقد قرانها على وليم براوسون كلاغيت في 7 أيلول 1945، وأنجبت منه ابنتين: سوزان سومر كلاغيت (مواليد عام 1947) وبرباره هاردي كلاغيت (مواليد 1950).

المنهمك في إعداد ستّ لوحات أملاً في عرضها خلال شهر تشرين الأول في معرض «الاتحاد الدولي للفنون الجميلة» الذي تلقّى دعوةً رسمية للمشاركة فيه. غير أنّ ضيقه من ظروف حياته غير المستقرّة دفعه إلى التخلّي عن هذا المشروع: في 22 تشرين الأول 1910، غادر باريس عائداً إلى أميركا. وبحسب يوسف الحويك لم تكن إقامته في باريس بالغة الأهمية على الصعيد الفنّي. غير أنّ هذا الرأي ليس هو الراجح: «عمله ينمّ عن تطوّر لافت. لقد اختبر الواقع وتعلّم الرسم. وامتلكَ معنى الألوان، وأنا أشعر بأنّ فطرته بمجملها قد نضجت ونمت مع مرور الأعوام»، كتبت شارلوت تِلِر، الوافدة إلى باريس في زيارة إلى صديقتها ماري. ذلك أنّ الثراء الفكري والنَفَس الإنساني الذي باتَ سمةً من سمات أعماله، بالإضافة إلى تمكّنه من التقنية التصويريّة وعلى الأخص الرسم بالألوان الزيتية والمائية والأكواريل، والتحسّن الكبير الذي طرأ على إجادته فنّ البورتريه، والتزامه السياسيّ... هذه الأمور جميعها كافية لاعتبار إقامته في باريس مرحلة حاسمة في مسيرته. ولكن، مهما كان من حقيقة ما كان، لقد احتفظ جبران من تلك الحقبة بذكرياتٍ مؤثرة، ودليلنا على ذلك ما ورَد في رسالته المؤرّخة في 19 كانون الأول 1911 من بوسطن، إلى صديقه يوسف:

«أخي يوسف،
سعداً لمن له مرقد عنزة - في باريس! وهنيئاً لمن يسير على ضفاف نهر السين، متأملاً بصناديق الكتب العتيقة والرسوم القديمة. أنا في هذه المدينة [بوسطن] المملوءة بالأصدقاء والمعارف [...] ولكنني غير مسرور [...] أذكر اسمي في قصر اللوفر وأمام ربّة الانتصار. سلام إلى موناليزا».

بعد ذلك ببضعة أشهر، أي في 23 نيسان 1912، كتب إلى صديقه جميل المعلوف المقيم آنذاك في فرنسا:

«باريس - باريس - باريس مسرح الفنون والفكر ومهبط الخيال والأحلام

- في باريس قد ولدت ثانية وفيها أودّ أن أصرف ما بقي لي من العمر... سأعود إلى باريس وأطعم قلبي الجائع وأسقي روحي الظمآنة فنشترك بالتهام خبزها العلوي وبشرب خمرتها السحرية...».

أبداً لم يعد جبران إلى باريس، كما لم يرَ ثانيةً مسقط رأسه، لبنان. فهل تُكتَب للفنّان السعادة إذا نأت عنه الأماكن التي يهوى؟

-7-

«ماري الحبيبة»

فور وصولِه إلى بوسطن، في الأول من تشرين الثاني 1910، هرع جبران لرؤية مريانا، أخته، التي غاب عنها سنتين. كان لقاءً مؤثراً بين الناجيين الوحيدين من أسرة كاد القدر أن يفنيها. ثمّ توجّه إلى منزل ماري التي استقبلته بالترحاب وأنبأته بموت والدها. ولمّا كانت راغبةً في أن تبقيه كفنّان تحت رعايتها، أبلغته بأنها مستعدّة للاستمرار بمنحه الخمسة والسبعين دولاراً شهرياً التي كانت واظبت على تحويلها له أثناء إقامته في باريس، ونصحته بالانتقالِ إلى مَسكَنٍ أرحب لكي يتسنّى له مزاولة فنّه بحرّية أكبر.

لم يتردّد جبران في قبول عرضها وانتقل للإقامة في 18 وست سيدار ستريت، في حيّ «بيكون هيل». وتوطّدت العلاقة بين الفنان الشاب ووليّة نعمته: فبينما كان يطلعها هو على رسومه التي نفذّها في باريس، كانت هي تعمل على تحسين لغته الإنكليزيّة. وغالباً ما كانا يخرجان معاً قاصِدَين متحف الفنون الجميلة أو الحفلات الموسيقيّة أو يشاهدان أعمالاً مسرحية. كان جبران يحكي لوليّة نعمته عن افتتانه بيسوع، «أسمى الكائنات البشريّة»، ويسرّ إليها، متأثّراً بأفكار رينان، قائلاً:

«قرأت كلّ ما وقعت عليه يدي عن يسوع... طوال حياتي وإعجابي به يزداد ويتعاظم. إنّه أعظم الفنانين قاطبةً، وأكبر الشعراء... وعندما نسمّيه إلهاً إنّما نصغّره. فلو اعتبرناه إلهاً لكانت كلماته قاصرةً على الرغم من روعتها، أمّا كونه إنساناً فهو أمرٌ يجعلها، بلا ريبٍ، من أصفى الشعر...».

يوم السبت في 10 كانون الأول، عشية عيد مولد ماري السابع والثلاثين، تعشّى جبران في بيتها. وباغتها، عند منتصف الليل، بأن أمسك بيدها ثمّ رفعها إلى شفتيه، مُسرّاً لها بصوتٍ خفيض:

- أحبّك... أريد أن أتزوّجك.

انتفضت ماري لوقع المفاجأة. غير أنّها تمالكت نفسها. وأجابت متبسّمة:

- أعلم أنك تحبّني. أنا أيضاً أحبّك. ولكن بيننا عشر سنوات... وهذا الفرق في السنّ يجعل الزواج مستحيلاً. عمري هو الحاجز القائم ما بيننا ومن شأنه أن يفسد كلّ الأمور[1]...

آلمَ هذا الرفضُ جبران خاصّة أنّ الذريعة المعلنة لتبريره لم تكن مقنعة. فيما بعد كتب إلى ماري قائلاً: «لدى عودتي من باريس، منحتك قلبي كلّه على أبسط وأصدق ما يكون. كنت كالطفل الذي يضع كلّ ما كانه وكلّ ما كان يملك بين يديك. والمستغرب أنّ جوابك كان بارداً»؛ وفي رسالة أخرى كتب لها قائلاً: «ما إن حدّثتك عن الزواج حتّى جرحت مشاعري...».

لكن ماري التي ندمت على ردّها المرتجَل، لم تلبث أن عدلت عن رأيها وراجعت نفسها. وأجابته، في مناسبة أخرى، بـ «نعم» ردّت إليه الروح. ولكن لم تمضِ أيام قليلة حتّى عدلت عن رأيها مجدداً. فما تفسير هذا الموقف؟ هل نصدّقها عندما تزعم أنها لن تكون يوماً قادرة على منح جبران الحبّ الذي يستحقّ؟ هل أنّ علاقاتها الملتبسة مع شارلوت وصلاتها بنساء أخريات، كما تقرّ هي في رسالة مؤرّخة في 19 كانون الثاني 1914، هي التي تفسّر موقفها؟ أم أنّ فكرة الزواج من «أجنبي» هي التي أقنعتها بالإحجام عن خطوة مماثلة، علماً بأنّها لم تستطع أن تداري حَرَجها ذات يوم، عندما جاءها شقيقها على نحو مباغت وشاهدها برفقة جبران؟ لكن بصرف

[1] يقول نعيمة أن ماري أجابته: «وهل أنت نظيف يا خليل - هل جسمك نظيف؟»، وهي إجابة من شأنها أن تؤذي مشاعر الفنان الشاب، جبران خليل جبران، ص 123.

النظر عن حقيقة الأسباب، كانت ماري تعلم أنها مذنبة. وفي رسالة تعود إلى شهر تموز عام 1915، تعترف له بذلك: «خليل لقد سبّبت لك كلّ الأذى الذي أقدر عليه. لقد احتضنتني بأرقّ ما في قلبك وهناك طعنتك [...] لقد عامَلْتُكَ نفسي ككائن دوني [...] هل كانت خطيئة متمادية ومتكرّرة تلك التي ارتكبتها في حقّك يا خليل؟ أملي هو أن أعترف لك من أعماق نفسي بكلّ الأذى الذي سبّبته لك طيلة السنوات الخمس عشرة هذه والذي تألّمت منه». ولكن ما جدوى هذا الاعتراف المتأخر؟ لقد ضاقَ بتردّد وليّة نعمته («شيء ما فيّ يموت يوماً بعد يوم. كنت دائماً أتعذّب. ولو كنتِ أبعد خطوة واحدة لكرهتك») فسعى جبران إلى تعويض خيبته بالعمل: اتخذ من مريانا واثنتين من بنات عمّه موديلات لرسومِه، وأنجز بورتريهات لعدد من الشخصيّات البوسطونية، كما شرع برسم بورتريه ذاتي بالزيت حيث ظهر مشيحاً بوجهه في ثلاثة أرباع التفاتة نحو اليمين، فيما مَثُلَت في الخلفيّة امرأة (أهي ماري؟) ممسكةً بكرة بلورية. ولم يتوقّف في الأثناء عن الكتابة بل أرسل إلى نجيب دياب، مدير الجريدة النيويوركية باللغة العربية «مرآة الغرب»، مقالة عنيفة اللهجة، تحت عنوان «نحن وأنتم»، مهداة كالعادة إلى «م.أ.هـ.»:

«أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد، والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدّث الأجيال عن خلودنا وفنائكم. ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة تردّدها الأمم فتباركنا وتلعنكم. [...] قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدّفون عليه، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من على صليبه وسار كالجبّار يتغلّب على الأجيال بالروح والحقّ ويملأ الأرض بمجده وجماله. وقد سمّمتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبديّة».

ولمناسبة الجمعة العظيمة، نشر مقالة تحت عنوان «يسوع المصلوب» (ضمّها فيما بعد الى مجموعتَه «العواصف») يظهر فيها بوضوح تعلّق جبران بصورة يسوع

ورغبته في أن يسمو بنفسه عبر التأمّل في مصير الناصريّ:

«اليوم وفي مثل هذا اليوم من كلّ سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلّفة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلّقاً على خشبة الصليب... منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع، ويسوع كان قوياً ولكنّهم لا يفهمون معنى القوّة الحقيقية. ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجّعاً بل عاش ثائراً وصلب متمرّداً ومات جبّاراً...

لم يجئ يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحقّ والحريّة... بل جاء ليبثّ في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قويّة تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين...

وأنت أيّها الجبار المصلوب [...] فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم، واغفر لهم لأنّهم لا يعلمون أنّك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور!».

متأثّراً بالأفكار السياسيّة لدعاة الاستقلال المقيمين في باريس، سارع جبران إلى إقناع الأوساط اللبنانية والسوريّة في بوسطن بتأسيس جمعيّة للدفاع عن قضيّة البلدان العربيّة الخاضعة للإمبراطورية العثمانية. فتأسّست الجمعيّة سنة 1911، وأطلق عليها اسم «الحلقة الذهبيّة». وقرّر المؤسسون الإبقاء على نشاطاتهم سريّة وتسمية أعضاء هذه الأخوية المستلهمة من المحافل الماسونية، بـ«الحرّاس». وفي 25 شباط 1911، ولمناسبة اجتماع كبير نظّمته الجمعيّة، توجّه جبران إلى المجتمعين بخطبة رنّانة يدعو فيها السوريين إلى الحذر من وعود السلطان وإلى الاتّكال على أنفسهم، من الآن فصاعداً، للتحرّر من النير التركي: من لا يسير مرفوع الرأس سوف يبقى عبد ذاته، خاطبهم قائلاً، ومن يكون عبد ذاته لا يستطيع أن يسير حرّاً. الحريّة هي نور ينبثق من أعماق الإنسان ولا يُسكبُ له من الخارج. هذا الخطاب

الذي نُشر في شهر آذار في جريدة «مرآة الغرب»، أثار ضدّه الصحف الموالية في سوريا ومصر. كذلك الأمر مقالته التي نشرها، بعد سنتين، في جريدة «السائح» تحت عنوان: «إلى المسلمين من شاعر مسيحي»، والتي يدعو فيها المسلمين كافّة إلى الانتفاض ضدّ المحتلّ، لأنّ الدولة العثمانية هي المسؤولة عن انحطاط الحضارة الإسلامية، والتي أثارت ضدّه حَنَق العثمانيين وحلفائهم:

«أنا لبناني ولي فخر بذلك، ولست بعثماني ولي فخر بذلك أيضاً...
أنا مسيحي ولي فخر بذلك ولكنني أهوى النبيّ العربي وأكبرُ اسمه وأحبّ مجد الإسلام وأخشى زواله...
بينكم أيّها الناس من يلفظ اسمي مشفوعاً بقوله: هو فتى جحود يكره الدولة العثمانية ويرجو اضمحلالها. أنا أكره الدولة العثمانية لأنني أحبّ الإسلام وعظمة الإسلام ولي رجاء برجوع مجد الإسلام...».

مدفوعاً بحدس «تنبؤي»، يرى جبران أنه إذا لم يثر السوريون فسيضطرّون إلى الانصياع للقوى الإمبريالية الطامعة بالمنطقة:

«خذوها يا مسلمون، كلمةً من مسيحي أسكن يسوع في شطرٍ من حشاشته ومحمداً في الشطر الآخر! إن لم يتغلّب الإسلام على الدولة العثمانية، فسوف تتغلّب أمم الإفرنج على الإسلام... إن لم يقم فيكم من ينصر الإسلام على عدوّه الداخلي فلا ينقضي هذا الجيل إلاّ والشرق في قبضة ذوي الوجوه البائخة والعيون الزرقاء»...

على الصعيد الفنّي لم يبدُ ابن بشرّي راضياً عمّا كان يشهده. فمدينة بوسطن صغيرة جداً، وخانقة جداً بالنسبة لمن عاش في باريس وارتاد متاحفها: «إنّها مدينة صمت قاتل لا يحدث فيها شيء»... ولعلّ موقفه هذا أشبه بالموقف الذي عبّر عنه بطل رواية هنري جايمس *The Point of view*، المدعو لويس ليفيريت، والذي، عَقِبَ مغادرته مدينة النور عائداً إلى بوسطن، كتب إلى هارفارد تريمونت قائلاً:

«إنني غريب هنا... هذه بلاد بالغة القسوة، والبرودة والخواء. أفكّر في باريسك، الغنيّة الدافئة[1]». فجبران الذي طالما نظر إلى التجربة الفرنسيّة على أنها «الدرجة الأولى في السلّم الذي يصل بين الأرض والسماء»، كان يشعر بأمسّ الحاجة إلى تبديل المكان لكي يتابع تقدّمه. فكتب إلى أمين الريحاني قائلاً:

«أنا في هذه الأيام كسفينة مزّقت الأرياح شراعها وكسرت الأمواج دفّتها فهي تسير إلى كلّ ناحية بين غضب الأمواج وسخط الأرياح...».

وحرصاً منه على إيجاد بيئة أفضل لإنتاجه الفني، ورغبةً منه في الابتعاد قليلاً عن وليّة نعمته المتردّدة، إختار الانتقال إلى نيويورك. لم يُصغِ إلى توسّلات مريانا التي كانت تدعوه راجيةً إلى البقاء: كان جبران قد اتخذ قرارَه ولم يتراجع عنه. حزنت ماري لتصميمِه على الابتعاد عنها. واعتملت العواطف في قلبها الحائرِ بين موقفين: لقد صمّمت على رفض الزواج منه، لكنها، في الوقت نفسه، كانت مصرّة على دعم مسيرته الفنية حتّى النهاية، وذلك لاقتناعها بأنّ «المستقبل لم يعد بعيد المنال» وبأنّه «أنمل الله الأخير». فسارعت إلى الطلب من شارلوت تِلِر، التي كانت التقت جبران أثناء زيارتها العابرة لبوسطن، أن تساعده على إيجاد مسكن بجوار مكان إقامتها، هي، في منهاتن، وحثّتها على الاستمرار في العمل معه كموديل.

جبران الذي كان يأمل، لسذاجته، في أن تتخلّى ماري عن مدرستها لتلحق به، جوبهَ برفضٍ ثان. ومجدّداً شعر بأنّ الرفض نالَ من عزّة نفسِه، فراح يعدّ حقائبه مصمّماً على الرحيل، حاملاً معه مخطوطة «الأجنحة المتكسّرة» ونسخة من كتاب نيتشه: «هكذا تكلّم زرادشت».

[1] ذكره: Jean Meral, *Paris dans la littérature américaine*, éd. du CNRS, 1983، ص 91.

-8-

نيويورك

رأى بول كلوديل الذي نزل في نيويورك عام 1893، أنّ «أسفل المدينة الذي يُطالعنا فور وصولنا أشبه بتكديس مفرط لأبراج وقبب ومبانٍ من 10 أو 15 أو 25 طبقة، ومصارف وصحف ومقارّ حكومية. فالغريب الذي يحلّ فيها، جاهلاً كلّ شيء وأسباب كلّ شيء، يعيش أيّامه الأولى في حال ذهول»[1]. منذ البداية أدرك جبران هذه الحقيقة: «نيويورك ليست هي المكان الذي نجد فيه الراحة». بدأ بزيارة متحف «المتروبوليتان» للفنون وغادره مذهولاً. ثمّ التقى الجالية اللبنانية في المدينة وتعرّف، بفضل رسائل التوصية التي زوّدته بها ماري، إلى عدد من الشخصيات النيويوركيّة البارزة. كما التقى أمين الريحاني، صديقه: «كم أكون سعيداً عندما تجمعني بك الأيام في مدينة واحدة»! كتب في إحدى رسائله إليه قبل سفره. وانكبّ على إنجاز بورتريه له قبل أن ينتقل للإقامة مؤقتاً في المبنى نفسه.

في مطلع حزيران، جاءت ماري إلى نيويورك. لحقت بجبران الذي أَلْفَتْهُ منهمكاً في وضع اللمسات الأخيرة على لوحة جديدة، عنوانها «إيزيس»، متخذاً من شارلوت تِلِر موديلاً. ما مكانة هذه المرأة في حياة جبران؟ في تلك الفترة، حتّى ماري التبس عليها الأمر. صحيح أنها بذلت المستحيل لدفع شارلوت - التي ترعى وتحبّ - إلى أحضان جبران، غير أنّها لم تكن لتفهم جيّداً طبيعة تلك العلاقة. «الحبّ الجسدي الذي تقدّمه له هو في حدّ ذاته مصدر إلهام. أنا لا أستطيع أن أقدّم له ذلك - أمّا هي فتقدِر»، كانت تقول في سرّها. والحقيقة أنّ شارلوت كانت

[1] ذكر في François Angelier, *Paul Claudel*, Pygmalion/Gérard Watelet, 2000، ص 79.

تفتن جبران (ما دام يرسمها)، غير أنّ «الكيمياء لا تسري بينهما». وفي آخر المطاف وهبت نفسها لأمين الريحاني الذي وقع في غرام تلك المرأة الغامضة والتي ما لبثت أن عقدت قرانها، بمضيّ بضعة أشهر، على شخص يُدعى جيلبرت هيرش[1].

خلال إقامة وليّة نعمته القصيرة، زار جبران بصحبتها متاحف المدينة، وكاتدرائية مار يوحنا الحبيب Saint John the Divine وجامعة كولومبيا. أمّا في الأمسيات، فكان ينصرفُ، إذا لم يتشاركا قراءة «هكذا تكلّم زرادشت»، وعلى سبيل التسلية، إلى وضع رسوم تمهيديّة لبورتريهات كيتس وشيلي ورودان ودانتي...

غادر جبران وماري عائدَين سويّاً إلى بوسطن: كان يودّ أن يرى شقيقته، أمّا هي فكانت تستعدّ لقضاء العطلة في غرب البلاد حيث تمارس رياضتها المفضّلة: تسلّق الجبال. في هذه الأثناء، اقترحت على جبران الاستعاضة بالمبالغ الضئيلة التي كانت تخصّه بها كلّ شهر بمبلغ مقطوع قدره خمسة آلاف دولار، الأمر الذي يتيح له هامشاً أكبر من الاستقلاليةّ. فوافق جبران لكنّه أصرّ عليها بأن يهبها كلّ ما يملك كبادرة عرفان بالجميل. وبالفعل قَرَن الكلام بالفعل فأحضر ورقة دوّن عليها – وهو بَعْدُ في الثامنة والعشرين! – وصيّته؛ تلك الوصية العجيبة التي لحظ فيها جميع أصدقائه تقريباً: فمبوجبها ترك لوحاته ورسومه لماري أو، إذا اتفق عندما يحين الوقت أنها هي أيضاً رحلت عن هذا العالم، إلى فريد هولاند داي؛ وترك مخطوطاته لأخته مشيراً عليها بأن تستشير أمين الريحاني والصحافيين نجيب دياب وأمين الغريب قبل العمل على نشر أي منها؛ أمّا الرسائل بالعربية والفرنسية التي تلقّاها فتركها ليوسف الحويك؛ والكتب التي كان يملكها في لبنان في مكتبة بشري وتلك الموجودة في بوسطن إلى جمعيّة «الحلقة الذهبية». أليس هذا غاية الإنصاف؟

انتهز جبران، الآلة المنكبّة على العمل («كم أودّ أن أكون أكثر من خليل

---

[1] غادرت شارلوت تِلر هيرش إلى أوروبا عام 1922 وإستقرتّ في فرنسا . وواصلت الكتابة تحت الاسم المستعار (هو اسم رجل) جون برانغوين John Brangwyn وصدرت لها تباعاً *Everybody's Paris* (1935) و*Reasons for France* (1939). ووافتها المنية في باريس عام 1954.

واحد!» كان يردّد متحسّراً)، فصل الصيف لإنجاز عدد من خطَطِه: بعد فراغه من تأليف «الأجنحة المتكسّرة»، ووضعه اللمسات الأخيرة على لوحة «إيزيس»، باشر العمل على لوحات جديدة، ووضع رسوماً مرافقة لكتاب السيرة الذاتية الشهير الذي ألّفه أمين الريحاني «كتاب خالد»، وأرسل إلى «مرآة الغرب» مقالتين، إحداهما تحت عنوان «العبودية»، يندّد فيها بـ«العبوديّة الحدباء، وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم آخرين. والعبودية الجرباء، وهي التي تتوّج أبناء الملوك ملوكاً»، والثانية تحت عنوان: «يا بني أمّي» يثور فيها على خنوع أبناء بلاده الذين لا ينتفضون ضدّ المحتلّ. كان من شأن انتقادات جبران اللاذعة، وعباراته الواعِظة، التي تذكّر بعبارات القديس يوحنا المعمدان وأنبياء «العهد القديم»، أن تثير الدهشة، لكنّها جاءت بموازاة الخمول السياسي والاجتماعي والثقافي في العالم العربي الخاضع للإمبراطورية العثمانية، ومن بعدها للقوى العظمى الغربية...

في بوسطن، حيث أقام لفترة وجيزة، ذهب جبران للاستماع إلى محاضرة ألقاها الشاعر والمسرحي الايرلندي وليم ييتس الحائز، بعد ذلك بسنوات، على جائزة نوبل للآداب، الذي ضرب له، في نهاية الأمسية، موعداً للقائه. في الأوّل من تشرين الأوّل، تلاقى الرجلان. انكبّ جبران المفتون بهذا الشاعر «الذي أفسدته الحميّة الوطنية»، على إنجاز رسم له. ثمّ تلاقيا مجدداً سنة 1914 خلال مأدبة عشاء في دارة السيدة فورد، وعام 1920، في مقرّ «جمعية الفنون والعلوم».

في 18 تشرين الأول 1911، انتقل جبران، بُعَيْد عودته إلى نيويورك، للإقامة في مبنى مشيّد من الآجر الأحمر، في «تنث ستريت ستوديو»، وهو مبنى مخصّص للفنّانين قائم في 51 «وست تنث ستريت»، في وسط «غرينويتش فيلدج». وفي السنة نفسها أصدر كتابه «الأجنحة المتكسرة» بالعربيّة عن دار «مرآة الغرب». هذا الكتاب الذي يُعتبر، من دون أدنى شك، أكثر أعمال جبران رومانسيّة، يسرد قصّة حبّ مستحيل، حبّ الراوي، وهو شاب مثالي النزعة، لسلمى، وهي فتاة من بلدته زوّجت قسراً، إثر ضغوطٍ مارسها مطران البلدة، من ابن شقيق المطران المذكور والذي يُعرَف عنه أنّه رجل غير مستقيم يستغلّ الثروة والجاه أبشع

استغلال. بعد الزواج تتواصل اللقاءات بين الراوي وسلمى في الخفاء. تحبل سلمى وتضع مولوداً ميتاً، قبل أن تفارق الحياة بدورها. يحتوي هذا العمل، وهو أحد الأعمال الروائية الأولى في الأدب العربي الذي طالما طغى عليه الشعر، البذور الأولى لما ستؤول إليه أفكار جبران وأسلوبه. على صعيد الشكل، يلاحظ القارئ أن الحبكة الرومانسيّة لا تلبث أن تطغى عليها الأفكار والاستطرادات التأمّلية، وأنّ القصة ليست أكثر من ذريعة تبيح للمؤلّف صوغ الأفكار المعتملة في صدره: رفض التقاليد البالية التي تقيّد المرأة الشرقيّة، وانتقاد السلوك الإقطاعي لرجال الدين، ممثّلين بالمطران، بالإضافة إلى موضوعاتٍ أخرى كالكآبة والموت والجمال والثورة والحبّ والأمومة والطبيعة... يكتب جبران، في مقاربته وحدة الوجود، وهي موضوعة متكرّرة في أعماله: «إنّ حياة الإنسان لا تبتدئ في الرحم كما أنها لا تنتهي أمام القبر، وهذا الفضاء الوسيع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبّة والنفوس المتضامنة بالتفاهم». ومستلهماً روسّو الذي يستحسن أفكاره، يؤكّد أنّ «الإنسان وإن ولدَ حرّاً يظلّ عبداً لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده»، ويحتفي بالجمال المتناغم وطهارة الطبيعة التي يرى أنها تتعارض مع فساد البشر. ومتفكّراً بلا ريب في علاقته مع ماري هاسكل، يقول عن الحب: «ما أجهل الناس الذين يتوهمون أنّ المحبّة تتولّد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرّة. إنّ المحبّة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي...» وإذ يتطرّق إلى موضوع الموت أخيراً، يقول على لسان محتضر: «أيّام العبودية قد مضت فطلبت روحي حريّة الفضاء». غير أنّ الروائي لا ينجح دائماً في الاحتجاب وراء شخصيّاته، فعندما تقول سلمى «إنّ ظمأ الروح أعظم من ارتواء المادّة، وخوف النفس أحبّ من طمأنينة الجسد»، إنّما تتكلّم بلسان جبران. ما يشفع لـ«الأجنحة المتكسّرة» على المستوى الشكلي، هو النفس الشعري الذي يبث الحياة في النصّ بمجمله: فأشكال المجاز والرموز الماثلة حتّى في عناوين الفصول تثير باستمرار مخيّلة القارئ؛ كما أنّ وتيرة الجمل مُوَقَّعةً بحيث يُخيّل إليه أنّه أمام قصيدة نثر – وهو نوعٌ من الشعر كان جبران سبّاقاً إليه في الأدب العربي.

بعث جبران بنسخة موقّعة من كتابه إلى ماري التي كانت قد أرسلت إليه، يوم عيد مولده، بالعبارات التالية: «أيتها اليد الحبيبة، العين الحبيبة، أشكر الله لأنّه، قبل تسعة وعشرين عاماً، وهبك لأمّك، والذي منحنا سنة إضافية لتقاربنا... أنتَ يا أحبّ تجليّات الله، يا معلّمي». يندر أن تُكتَنَف علاقةٌ بين رجل وامرأة بمثل الغموض الذي لابَسَ علاقة جبران وماري، وبمثل تعقّدها، إذ قامت على مدّ وجزرٍ وسيطرة وعبادة وشغف حارق وبُعد، على أفلاطونية وقدر كبير من الشهوانيةِ، في وقتٍ معاً، مجسّدة بكلمات ورسوم، كأنّ ماري حين تدبّج الرسائل إلى جبران أو حين تفرغ مكنون مشاعرها على صفحات دفتر يوميّاتها، إنّما تمتلك جسدَهُ هو؛ وكأن جبران حين يرسم وليّة نعمته أو حين يهدي إليها نصوصه، إنّما يمتلك جسَدَها هي... ألم يقل أندره بروتون ذات يوم إنّ «الكلمات تصنع الشهوة»؟ خلال إحدى زيارات ماري إلى نيويورك، تناهى إلى سمعها ذات ليلة صوتٌ يخاطبها قائلاً: «خليل ينبئك بأنّ للصبر حدوداً. يجب أن ينال كلّ شيء أو لا شيء». فسّرت ذلك الحلم بأنّه دعوة لأن تقيم علاقة جنسيّة، خارج الزواج، مع جبران، وبذلك توازنُ ما بين استحالة زواجها منه وبين قوّة الرغبة التي تجذب أحدهما إلى الآخر. فهرعت إلى صديقها لتطلعه على «منامها». فرفض جبران رفضاً قاطعاً تلك الفكرة المستهجنة. لربّما كان يفكّر مليّاً بالعواقب المحتملة لعلاقة مماثلة وعمليـة الإجهاض التي خضعت لها ميشلين في الماضي، إذا صحّ ما رواه البعض بهذا الشأن.

– الآن أعلم أنك تحبينني، يهمس قائلاً.

انتفضت ماري قائلةً:

– أما كنت تعلم منِ قبل؟

– بلى، ولكن بطريقة مغايرة! لكنني لا أستطيع أن أقبل عرضك: حبّي أكبر من أن أرضى بك عشيقة...

غادرت ماري، خجلةً لأنّها «تجرّأت» على عرض مماثل. وعند المساء أخلّت بوعدها له بأنّها ستأتي لزيارته برفقة ميشلين الموشكّة على عقد قرانها. ولكن في اليوم التالي عاودت الكرّة:

- أودّ قبل عودتي إلى بوسطن أن أكون لك، قالت له بلهجة حازمة.
- كم كنت أودّ أن أبادر، أنا، إلى مثل هذا الطلب، أجابها بمرارة.
- لطالما قلتَ لي إنّ المفتاح بين يدي. واليوم إنّي أعطيك المفتاح.
- ولكن لَمَ أحجمت من قبل عن التطرّق إلى هذا الموضوع؟
- لما كنّا تَطرّقنا إليه البتّة، لو لم أبادر أنا إلى ذلك.

فقال جبران:

- ولكن أنا من أعترف لك بحبّه أولاً، ومن طلب يدك للزواج، ومن كان يودّ أن يقرّبك من قلبه! أمّا في الوقت الحاضر فلا رغبة لي في الارتباط بامرأة...

في عباراته الأخيرة أجمَلَ جبران القَصْدَ كلّه؛ غاية هذا الاعتراف الذي يصدر عن رجلٍ مجروح الفؤاد. إذ يؤثر عن طباع جبران أنّه كان كثير الارتياب وصاحب ضغينة. لَم ينسَ رفضَ وليّة نعمته، كما لم ينسَ حَرجَها عندما شاهدها أخوها برفقته («كانت تلك هي الضربة القاضية بالنسبة لي، قال فيها بعد. كان على الرجل الذي في داخلي أن يبدّل موقفه بما يشبه الدفاع عن النفس») فبعد أن أسقمه تردّد ماري، ما كان ليرضى بأن تتلاعب بمشاعره. لا شيء في سلوكه يدفعنا إلى القول، كما فعل بعض كتّاب سيرته، أنّه تظاهر بحبّها لكي يستغلّ كرمها أو أنه عرض عليها الزواج تعبيراً عن امتنانه لها، وأنه، في قرارة نفسه، كان يأمل أن يلقى طلبُه الرفض من قِبَلِها. ذلك أنّ رسائل جبران لا تترك مجالاً للشكّ: إنها تزخر بإشارات حبّ صادق. وإذا أمعنّا النظر قليلاً لاتضح لنا أن موقفه أصدق بما لا يقاس من موقف ماري التي لا تقرّ البتّة بالأسباب الحقيقية التي تحول دون قبولها بالزواج من

الرجل الذي تزعم بأنها تجلّه: «لم أعد أطيق الشكّ، كتب إليها قائلاً. قلتِ أشياء كثيرة متناقضة بالجديّة نفسها، والحقيقة أنني ما عدتُ أدري أيّها أصدّق. كان ذلك مبعث عذابي المضني لشهور طويلة». الحقيقة أن شخصيّة ماري أكثر تعقيداً مما قيل عنها: ذلك أن قراءة يوميّاتها ورسائلها تكشف عن امرأة ذات ميول متنازعة بين طاقة شبقيّة غير محقَّقة ومحرّمات لا تُقهَر؛ بين ميلها إلى النساء ورغبتها في الرجال؛ بين إرادة التحرّر لديها واحترام آداب السلوك التي تفرضها عليها عائلتها المحافظة... مال بعض المحللين النفسيين إلى تفسير موقف جبران حيال صديقته بأنه مظهر من مظاهر عقدة أوديب، معتبرين أن جبران كان يبحث عن وجه أمّه في وجه كلّ امرأة، بحيث شكّلت كلّ علاقة غرامية مصدراً لنزاع داخليّ: فمن جهة، هناك نداء الرغبة؛ ومن جهة أخرى، هناك المُحرّم المتمثّل في اغتصاب معبد الأمّ المقدّس. والحال أنّ هذا التحليل لا يفسّر إلاّ جزئياً سلوك جبران - الذي يقول في «الأعمى» إنّ «كلّ رجل إنما هو طفل المرأة التي تحبّه»-، لأنّ الحاجز الحائل بينه وبين ماري كان يعود، أولاً، إلى موقفها، هي، المتردّد، ومن ناحية أخرى، لأنّ علاقاته مع نساء أخريات لم يكن لها أي طابع «نزاعي» - في المعنى النفسي التحليلي للعبارة. إذاً، لماذا أحجم عن الزواج؟ لقد اختار جبران ألاّ يرتبط مطلقاً، لأنه ضنين بحريّته، ولأنّه تأثّر بالحادثة التي تعرّضت لها ميشلين (تؤكّد ماري في كتاباتها، أنّه كان يخشى العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن علاقة جنسيّة)، ولأنّ بوزي سبّبت له خيبة أمل، ومثلها ماري («الله يساعدني على السيّدات اللطيفات المغنجات الشاكيات المشكّكات!» كتب ذات يوم إلى هيلانة غسطين). ولكي يريح ضميره، أكّد قائلاً: «لو كانت لي زوجة وانصرفت إلى الرسم أو نظم القصائد فقد أنسى وجودها لأيّام. ما من امرأة محبّة قد ترضى بزوج مماثل لوقت طويل!» لا بل أكثر: مع إقراره بأنّ «الكائن الأقدر جنسياً هو المبدع»، فهو يزعم أنّه يحوّل كلّ طاقته الجنسيّة ويصبّها في إنتاجه الفنّي: «أعتقد أنّ فيّ ولا شكّ شيئاً حيوياً جداً أيضاً، لكنني أعتقد أنّ جزءاً كبيراً من قوّتي الجنسيّة يتحوّل وينصبّ في نتاجي...».

يبقى أنّه بعد أن باءت محاولاتها المتكرّرة بالفشل، قرّرت ماري أن ترضخ للأمر الواقع. ومنذ ذلك الحين، تقول في يوميّاتها، لن تنظر إلى جبران بوصفه صديقاً تحبّه، بل بوصفه زوجاً تربطها به علاقة صداقة متينة. أمّا جبران فقد كان يرى الأمور في أوضح صورة: «على المستوى الشخصي والحميم، تبدو علاقتي مع هذه المرأة مستحيلة. ينبغي لها أن تقتصر على الروح والنفس. لقد جرحت مشاعري بقوّة فكان لا بدّ للحبّ أن يجد شكلاً آخر للتعبير عن نفسه». وكتب بعد ذلك إلى ماري قائلاً: «لو كنّا أقمنا علاقة جنسيّة، لكانت فرّقت بيننا مع الوقت... لقد عرفت حياتانا المسار نفسه، وجُنّبنا العلاقات الجنسيّة». وبالفعل، على الرغم من المداعبات والقبلات التي كانت تهيئ جسديهما للجماع، فإنّهما لم يتخطيا ذلك الحدّ مطلقاً.

في 15 نيسان 1912، هزّ نبأ فظيع إرجاء العالمَ أجمع. نبأ غرق «التايتانِك» وعلى متنها مئات المسافرين ومن بينهم عدد كبير من اللبنانيين المتكدّسين في الأنبار السفلى من السفينة[1]. تلقّى جبران صدمةً عنيفة فور تبلّغه نبأ الكارثة. لم ينم ليلة المأساة سوى ثلاث ساعات: «كان الهواء ثقيلاً جداً بسبب هذه المأساة الفظيعة في البحر...».

وفي اليوم نفسه، التقى عبد البهاء، ابن بهاء الله، منشئ الحركة الروحانية التي تعرف بالبهائيّة في إيران، والتي تدعو إلى قيام ديانة جامعة، وتبشّر بوحدانية الله وتعترف بوحدة الأنبياء، وترسيخ مبدأ وحدانية الجنس البشري وانسجامه، كما تدعو إلى المساواة بين الجنسين وتمجّد العمل. أنجز جبران رسماً لعبد البهاء ودعاه إلى إلقاء محاضرة أمام أعضاء وأصدقاء «الحلقة الذهبيّة» حول وحدة الأديان[2]. ثمّ عاود انكبابه على تأليف «لأجل أن يكون الكون خيراً» الذي أجرى تعديلاً على

[1] من أصل 85 لبنانياً كانوا على متن «التايتانِك»، لاقى 52 حتفهم (م. كرم، اللبنانيون على متن التايتانِك، بيروت، 2000، ص 43).

[2] إبتداءً من شهر نيسان 1912، قام عبد البهاء بجولةٍ إستغرقت ثمانية أشهر على أربعين مدينة من مدن الولايات المتحدة وكندا، وإلتقى خلالها ما يزيد على المئة خطاب! (أنظر: Christian Cannuyer, *Les Bahai's*, éd. Brepols, 1987، ص 27).

عنوانه فأصبح: «إله الجزيرة».

وفي مطلع الخريف، حلّ بيار لوتي Pierre Loti ضيفاً على نيويورك حيث كان مقرّراً أن تُعرَض «ابنة السماء»، المسرحية التي ألّفها بالاشتراك مع جوديث، ابنة الكاتب تيوفيل غوتييه البكر. وفي 26 أيلول، التقاه جبران. «لوتي رجل مرهف وحسّاس. حساسيّته الفنيّة مجبولة بعللٍ شرقيّة مفيدة... عمره اثنان وستون عاماً، ووجهه مكسوّ بالذرور، وبمسحوق أحمر، وعيناه مرسومتان بالكحل... كم أشعر بارتياح أمام حالمٍ مثله، أمام غربيّ مستشرقٍ مثله».

بعد ذلك بشهر واحد، عند انتهاء عروض المسرحيّة، تلاقى الرجلان مجدداً. بدا لوتي متعباً، «متقزّزاً من صخب أميركا ومن الأميركيين الذين لا يتمتّعون بالقدر الكافي من رهافة الذوق». وقبل أن يغادر قطع على نفسه عهداً أمام جبران بأن يزوره وأن يقف كموديل أمامه في باريس، ثمّ نصحه قائلاً: «أنقذ روحك وارجع إلى الشرق؛ مكانكَ ليس في أميركا!».

كيف لنا أن نتخيل جبران في تلك الحقبة؟ كان له مظهر أهل قريته: أسمر البشرة، بارز الأنف، ذا شاربين أسودين كثيفين وحاجبين مقوّسين كَثَّيْن وشعر جعديّ قليلاً وشفتين لحيمتين. كان جبينه العريض البارز قليلاً كالقبّة وعيناه الممتلئتان حيويّةً تحت أجفانه المسبلة، تعكس ذكاء هذه الشخصيّة قصيرة القامة ذات العنقِ الصلبِ واليدين القويتين، والابتسامة المشرقة التي تنطوي على غمّازتين عميقتين وَسط الخدّين وتذكّر بنقاوة الأطفال. المؤكّد أن سحراً ما كان يلابسُ شخصيّته: «مهما كان عدد المقرّبين في جلستِه، يقول كلود براغدون، فإنَّ السحر يفعل فعله ويكون، هو، محطّ انتباه الجميع». ماري، من جهتها، كانت ترى أنه «مُكَهرب، متحرّك مثل شعلة». أمّا على المستوى الخلقي، فكان مزاجه أمْيَل إلى الحزن. يعشق العزلة («العزلة هي عاصفة صمت تقتلع كلّ أغصاننا اليابسة»)، وينصرف بكليّته إلى العمل. عزيز النفس، سريع التأثّر حتّى الإفراط، ولا يتقبّل الانتقاد ولو بالقَدَر

الأقلّ. مستقل ومتمرّد بطبعه، يمقت الظلمَ بكلّ أشكاله. هل من جانب مجهول في شخصيّته؟ بلى، حسّ الدعابة المرهف لديه. ذلك أنّ رسائله إلى ميّ زيادة، صديقته المقيمة في القاهرة، زاخرة بالعبارات الطريفة: فمثلاً عندما تأخذ عليه إيثاره الشقراوات على السمراوات، يجعل جوابَه في صيغة صلاة: «إبعث ربّاه ملكاً من ملائكتك ليقول لها إنّ عبدك هذا (...) يترنّم بجمال الشعر الحالك مثلما يترنّم بالشعر الذهبي». وفي رسالة إلى ماري هاسكل مؤرّخة في 21 كانون الثاني 1918، يقول: «أبعث إليك برسمين بالألوان المائيّة. وأرسلهما فقط لما يحتويانهما من ألوان - جدرانك تحتاج إلى ألوان. ليسا عاريين بالقدر الذي قد يُسيء إلى ذوق أهل بوسطن - وأقصد هنا الرسمين وليس جدرانك!» ولدى سماعه أنّ وليّة نعمته قد أجّلت رحلةً إلى مصر، يقول لها: «أسف لأن رحلتك قد تأجّلت. غير أنّ مصر موجودة هناك منذ ستة آلاف سنة وستبقى حيث هي لستة آلاف سنة أخرى. فلا بدّ أن تتمكني من زيارتها في يوم ما!» في شذراته، يُظهر جبران - الذي يبدي أسفه لأنّ «حسّ الفكاهة» لدى يسوع بقي مجهولاً[1] - قدراً من حسّ الدعابة عندما يقول مثلاً: «إنّ الذين يعطونك حيّةً وأنت تسألهم سمكة لربّما ليس لديهم ما يعطونه سوى الحيّات. ولذلك يحسب عملهم أريحيّة وسخاء». أو عندما يقول: «إنّ علوّ الصوت ليس دلالة ذكاء. فالخطيب لا يختلف كثيراً عن البائع الجوّال». أو هذا الكلام المفاجئ: «من يودّ فهمَ امرأة أو تشريح عبقريّ أو الكشف عن سرّ الصمت، هو مثيل الرجل الذي يستيقظ من حلم سماويّ لكي يتناول طعام الفطور»! وتبدي ماري هاسكل إعجابها بظرفِه: «هل ستضحكني عندما نلتقي في الجنّة»؟ تسأله. وتدوّن في دفتر يومياتها ما يلي: «كلما كنت ألتقيه، حتّى في حالات حزنه، كان يضحكني

[1] في كتابه: *Jésus le Dieu qui riait* (Stock-Fayard, 1999), يجمل ديديه دوكوان Didier Decoin في صدر الكتاب هذه العبارة الجميلة لجبران، من مؤلّفه يسوع ابن الإنسان: «كان إنساناً فرحاً. وعلى درب الفرح لاقى أحزان كلّ البشر».

ويضحكني...».

كان جبران يفرط في الشراب والتدخين: «اليوم، يكتب إلى وليّة نعمته قائلاً، دخّنتُ أكثر من عشرين سيكارة. فالتدخين متعة بالنسبة لي وليس عادة مستحكمة...» وفي الليل، لكي يبقي نفسه متنبّهاً صاحياً منصرفاً إلى العمل، كان يستهلك كميات من القهوة المركّزة ويستحم بماء بارد. غير أن نمط الحياة الفوضوي هذا ما لبث أن أهلَك جسمه: «أكثر من أربعين عاماً محفورة على وجهه وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، تقول ماري. كتفه اليسرى، المصابة منذ طفولته، شبه مشلولة».

خلال عام 1943، التقى جبران عدداً من الشخصيّات النافِذة في الأوساط الفنيّة النيويوركيّة أمثال الشاعر ويتر باينر Witter Bynner ناشر مجلّة *McClure's Magazine* وآرثر باون دايفس Arthur Bowen Davies مؤسس «جمعية الرسّامين والنحاتين الأميركيين» ومنظّم «المعرض الدولي للفنّ الحديث» الذي قبلت ماري أن تتوضّع له عاريةً لكي تثير غيرة جبران اختباراً لردود فعله. وفي شهر شباط، ترك جبران لماري مجموعة من عشر لوحات ليسدّد دَيْنَه لها. كان راغباً في التحرّر قليلاً من اتكّاله عليها الذي يشعره بقدرٍ من الضيق. وإذ شقّ عليه قول ماري: «لا يسعني الإبقاء على صلةٍ بك إلاّ من خلال المال»، يجيبها بمرارة: «أخبريني الآن ما كان غرضك الفعلي من منحي المال، فأتصرّف على هذا الأساس. أجيبيني ببساطة لكي لا أخدع نفسي . هل كان منحةً، أو قرضاً، أو وسيلةً لتوثيق علاقاتنا؟...».

انصرف جبران مجدداً إلى عمله في «معبد الفنّ»، وأنجز رسْمَيْن شخصيين لكلّ من توماس أديسون وكارل غوستاف يونغ الذي قبل بأن يقف أمامه طوال فترة عمله على الرسمة. كما التقى هنري برغسون الذي وعده، نظراً لحال الإرهاق التي ألمت به جرّاء رحلته إلى نيويورك، بأن يسمح له برسم صورة له في باريس. بعيد ذلك، أنجز بورتريه للجنرال غاريبالدي، حفيد الثائر الإيطالي الذائع

الصيت، وآخر لـذات «الحسن الإلهي» ساره برنهارت Sarah Bernhardt. «بعبارة وحيدة أقول لك إنها كانت آيةً في الرقّة، يؤكّد جبران في إحدى رسائله إلى ماري. لقد حدّثتني بفرح غامر عن أسفارها إلى سوريا ومصر، وأخبرتني بأنّ أمّها كانت تتكلّم العربية وأنّ موسيقى هذه اللغة كانت ولا تزال حيّة في نفسِها». كانت ساره برنهارت قد جاوزت سنّ الصبا - إذ كانت تشارف آنذاك على التاسعة والستين -، غير أنّها لم تفقد شيئاً من تأنّقها. وافقت على الوقوف أمام جبران لإنجاز الصورة ولكن شريطة أن يرسمها من بعيد لكي لا تظهر «التفاصيل الدقيقة في ملامح وجهها». قبل جبران شرطها على الفور. وباشر عمله. في ختام الجلسة عاينت الممثّلة البورتريه الذي أنجزه فراقَ لها صنيعه على أن تُجرى تعديلات بسيطة عليها: إزالة تجاعيد، ورَوْتَشة الفمَ الأهدل... كان جبران يعلم أنّه «من الصعوبة بمكان إرضاء ساره برنهارت أو فهمها. ومن الصعوبة بمكان أن يكون المرء برفقتها. لها مزاجها الخاص. وينبغي أن تُعامَل كملكة مكرّسة، وإلاّ فسدت العلاقة معها». فبدا صبوراً، متفهّماً، طيّعاً. وعندما همّت بمغادرة المحترف مدّت له يدها اليسرى لكي يقبّلها: ففي ذلك شرفٌ لا يُمنَح عادةً إلاّ لمن يحظون بمودّتها!

في نيسان 1913، صدرت في نيويورك مجلّة جديدة هي مجلّة «الفنون» لصاحبها الشاب نسيب عريضة. فسارع جبران إلى الإسهام فيها، حيث نشر مقالات شديدة التنوّع وقصائد نثريّة أظهر فيها أسلوبه الفريد: ذلك أن سلاسة العبارة، واستخدام التوازي والتكرار وتضاد الكلمات ووفرة الصورة الموحيّة والمجاز تشحن نصوصه بالانفعالات والشعر... كما نشر في المجلّة نفسها دراسات أدبيّة مكرّسة لأعلام التصوّف كالغزالي وابن الفارض. ولكن ما سبب شغفه الكبير بالصوفية؟ إنّ جبران الذي تعرّف باكراً إلى أعمال المتصوّفة، لم يكن بمنأى عن التأثّر بأفكارهم. ولعلّ المصدر الأول لرمز «الذات المجنّحة» وصورة الأجنحة اللذين يتردّدان في كتاباته كما في رسومه، هو نصّ جلال الدين الرومي الذي يسأل فيه كيف للنفس

ألاّ تغدو طليقة عندما تتناهى إليها حضرة الجلال، بنبرة العطف العذبة كالشهد، قائلةً: «ارتقي يا نفس، وحلّقي، حلّقي كطير نحو موطنك فها أنتِ طليقة من قيدِك باسطةً جناحيك. ابتعدي عن المياه الرّاكدة، واهرعي إلى نبعِ الحياة...».

كما لا ريبَ في أنّ المصدر الذي استقى منه جبران رمز الشمس الماثل على الدوام في أعماله، هو التراث الرمزيّ للصوفية حيث يوصف نجم النهار بأنّه الروح التي تنير العالم، وبأنّه تجسيد لوحدانية الله. «تمثّل الشمس، يقول رينه غيمون مفسّراً، بوصفها الرمز الأمثل للمبدأ الأحد الذي هو الكائن الضروري، الكائن الوحيد الذي يكتفي بذاته في اكتماله المطلق والذي منه وجود وبقاء كلّ شيء ومن دونه لا يكون إلاّ العدم»[1]. كما أن تعبيرات أخرى وصوراً أخرى (العطش الروحاني، الحنين، الحجاب، الناي...) لدى جبران تجد مصدرها في التراث الصوفي، ما يحدو بنا إلى القول إنّه «إذا كانت أعماله لا تُعتبَر متوناً لتصوّرٍ أمين للمذهب الصوفي، فهي، على الأقلّ، تعبّر عن تأويل لمفاهيم الصوفية كما رآها بمنظور حساسيّته الشعرية الخاصّة»[2].

بتأثير من أعلام الصوفيّة، يبدو جبران مهجوساً بفكرة تطهّر لَدُنيّ يطاول كلّ مستويات التركيب النفسي للإنسان: تطهير النفس عبر القصاص والزهد، وتطهير القلب بالعزلة والانصراف عن العالم والتأمّل، وتطهير الروح بالإيمان والمحبّة التي غايتها الاتحاد مع الله[3]. سوف يصبو، طيلة حياته، إلى هذا التطهّر الذي تحول دون تحقّقه الحياةُ المضطربة في نيويورك أو في بوسطن - ففترات عزلته الروحيّة أقصر مما يشتهي، ولعلّ ترداده ذكر

(1) مذكور في Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans*, Albin Michel, 1995، ص 394.

(2) Souheil Bushrui, Joe Jenkins: *Khalil Gibran*, éd. Vega, Paris, 2001، ص 279؛ وأنطوان غطّاس كرم، المرجع المذكور، ص 242.

(3) Jean Chevalier, *Le Soufisme*, PUF، ص 97.

مسقط رأسه ليس إلاّ محاولة للهروب نحو أماكن مؤاتية للتأمّل -، ويحول دونه أيضاً ما يسمّيه ببعض الحياء «ميول الحياة». إنّه يشاطر المتصوّفة مفاهيم أحادية الوجود والاتحاد مع الله، حيث تظهر بوضوح تأثّره بمذاهب الأفلاطونية الجديدة والديانة البوذيّة[1].

يبدي جبران إعجابه الكبير بالإمام الغزالي، ويعبّر عن ذلك قائلاً: «وجدتُ في الغزالي ما يجعله حلقة ذهبيّة موصلة بين الذين تقدّموه من متصوّفي الهند والذين جاؤوا بعده من الإلهيين. ففي ما بلغت إليه أفكار البوذيين قديماً شيء من ميول الغزالي، وفي ما كتبه سبينوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه». ولاقتناعه، على غرار هذا العَلَم الصوفي، بأنّ العالم هو مرآة الله يتبنّى فكرته القائلة إنّ الرحمة الإلهية قد جعلت لعالم المرئيّات صلةً بعالم الملكوت السماوي، ولهذا لا يوجد شيء واحد في عالم الحسّ إلاّ ويكون رمزاً لشيء ما في العالم الآخر. إذ لا وجود إلاّ لحقيقة واحدة، هي الوحدانية الإلهية؛ وفي إدراك هذه الحقيقة بلوغ الاتحاد...

أمّا ابن الفارض، فقد كان، في نظر جبران، «شاعراً ربّانياً. وكانت روحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثمّ تهيم سابحةً، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوّفين. ثمّ يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيّات لتدوّن ما رأته وسمعته...» يشترك جبران مع هذا الشاعر بموضوعة الرغبة الصوفيّة في الذوبان في الروح، وبالفكرة القائلة إنّ كلّ الأشياء في الحقيقة هي واحد وإنها ليست سوى صفات الماهيّة الإلهيـة: «ومن لغة تبدو بغير لسانها، عليه براهين الأدلّة صحّتِ... فكلّي لكلّي طالبٌ، متوجّهٌ...» فالتباس الحبّ الإنساني الإلهي الذي يعبّر عنه ابن الفارض، كما معظم شعراء الصوفيّة، لا بدّ أن يجد له صـدىً في روع جبران إذ يغدو الله «هي»، العاشق الربّاني:

---

(1) Djamchid Mortazavi, *Le Secret de l'Unicité dans l'ésotérisme iranien*, Dervy-Livres, 1988، الفصل الأول.

أجَـل أجَلي أرضى انقِضاهُ صبابةً   ولا وصْلَ، إنْ صحّت، لحبِّكِ، نِسبَتي
وإنْ لم أفُـز حـقّـاً إلـيـك بـنسبـةٍ   لِـعِـزّتِها، حـسـبـي افـتـخـاراً بـتُـهمَـةِ

ويجد الحبّ الدنيوي الذي يبدو، في التصوّف، أنّه وسيلة لبلوغ الحبّ الإلهي والارتقاء إلى الاتحاد[1]، تعبيره الأوضح في أعمال جبران التصويريّة حيث ينصهر الأزواج الذين يتحدّون، مصلوبي الأذرع أو متعانقين، في حضن الطبيعة أو تحت أنظار المصلوب المُبارِكَة...

حرصاً منه على إيجادِ بيئة مواتية للتأمّل، انتقل جبران في الأوّل من شهر أيار للإقامة في الطبقة الرابعة والأخيرة من المبنى الذي كان يقيم فيه. الشقّة التي تبدو أرحب من شقّته السابقة من حيث المساحة، وأكثر تعرّضاً للضوء، تتسع بسهولة لعدّة محترفه. ومن الآن فصاعداً سيُطلق على هذا المكان الذي يصفه الريحاني بأنّه «صالة مكرّسة للفكر والفنّ والجمال» وحيث تجمّعت الحمّالات الخشب واللوحات والكتب والأوراق المبعثرة، والتحف والتماثيل، اسم «الصومعة». ولعلّ هذا الاسم هو خير ما يسمّى به مكان مثل هذا. ففي تلك الحقبة من حياته التي تطغى فيها ميوله الصوفية على مواقفه المتمرّدة، يزداد الفنّان ميلاً إلى الانعزال وراء حاجز الصمت. «إنّه حرّ عندما يكون وحيداً»، تلاحظ ماري التي تعرفه أكثر من أي شخص آخر. «كم أودّ أن أكون ناسكاً»، يكتب إليها قائلاً، وفي ذهنه من دون شكّ أولئك الذين كان يراهم، في طفولته، في دير القديس أنطونيوس. ويضيف قائلاً في رسالة أخرى: «أحبّ أن أبقى حيث تكون لوحاتي وكتبي...».

في 25 تشرين الأول، خضعت ماري للعلاج خلسةً في إحدى دور الرعاية الصحيّة. بعض المؤلفين زعمَ أنها كانت تعاني من التهاب حاد في العصب، فيما قال البعض الآخر إنها حبلت من الرسّام دايفيس (الذي كان قد طلب منها أن تكون موديلاً له)[1]، وخضعت لعملية إجهاض، ما يفسر، برأيهم، نفور جبران منها وشعوره بالمرارة. ولكنْ مهما كان من صحّة أو كذبِ ما أشيع، سواء لجهة الزعم

---

[1] Khaled Bentounès, *Le Soufisme, cœur de l'islam*, éd. Pocket، ص 181.

بأنها حامل أو أنها مصابة بالتهاب في العصب (إذ تشي رسائل جبران المؤرخة بين 26 و30 تشرين الأول بأنّ شيئاً غير معتاد قد حصل فعلاً)، يمكن القول إنّ الأزمة التي ألمّت بعلاقة جبران وماري كانت سابقة على هذه الحادثة.

في 16 تشرين الثاني، وجّهت ماري رسالة إلى جبران لخّصت فيها مسار الفنّان على أحسن وجه:

«إنني مدركة جداً لمقدار الألم الذي ينتابك، وإن كنتَ تكتمه عنّي. فعندما أفكّر في الأعباء التي تحملها على كاهلك والعمل المتواصل والمُنهِك كآلام الوضْع، وعندما أفكّر في الفنَّين الذين تزاولهما واللغتين اللتين تكتُب بهما، والعالمَين والعصرين، الحاضر والمستقبل، والعزلة والعقبات، عندما أفكّر في هذه الأمور التي من خلالها ينبغي لك أن تعيش حياتك التي تتجاوز حياة عبقريين اثنين؛ عندما أفكّر في قلّة مواردك، وفي صحتك الهشّة، وغياب المساعدة من قبل أسرتك، وغياب التعليم، وبيئة المولد [...] وفي طعنات الغدر التي تبرز بين الفينة والفينة من الظلام الغالب [...] بحيث أن حياتك هي تنقّل دائبٌ بين الحسرات... عندما أمعن التفكير في هذا كلّه أشعر بأنني مصابة بجرح هو أعمق من الجرح. وفي النهاية، أدعو الله [...]. هذه الآلام ضئيلة المقدار إذا ما قورنت بما سيولد منها. ثمرة ما تستطيع أن تنجزه في عملك يتخطّى بكثير حدود هذا الجيل، ولعلّه يبقى لأجيالٍ عدّة».

كانت ماري مؤمنةً بجبران، وإيمانها هذا الذي به كفّرت عن الآلام التي سبّبتها له، هو الذي أطلقَ جبرانَ الى عوالم اسمى.

[1] ورد تلميح بهذا المعنى في:

Chikhani, *Religion et société dans l'œuvre de Gibran*, Publications de l'Université libanaise, Beyrouth, 1997.

-9-
مَيْ

«مَيْ» هو الاسم الذي اختارته لنفسها امرأة مضطربة كانت تبدو، كالبحر، هادئة شفّافة أحياناً، وأحياناً هائجة. رأت مي زيادة[1] النور عام 1886 في الناصرة. والدها الذي كان يعمل مدرّساً، لبناني من بلدة إهدن، المجاورة لبشرّي في شمال لبنان. والدتها فلسطينية. قضت سنوات طفولتها الأولى في بلد الأرز وارتادت مدرسة عينطورة للراهبات اللّعازاريّات. عام 1908 غادر والدها لبنان ليستقرّ في مصر حيث تولّى إدارة تحرير جريدة «المحروسة». نظراً لمواهبها المميّزة انطلقت مي التي كانت تتقن عدداً من اللغات، من بينها العربية والفرنسيّة والإنكليزيّة، في عالم الصحافة والأدب. وعلى الرغم مما كانت تلاقيه، كامرأة، من عدم اعتراف وتجاهل في الوسط الذي كانت تتردّد عليه، تمكّنت من إثبات وجودها كناقدة أدبية، ونشرت، بتوقيع مستعار هو إيزيس كوبيا، مجموعةً من القصائد بالفرنسية تحت عنوان: *Fleurs de rêves* (أزاهير حلم) الصادرة عام 1911. كمناضلة في الحركة النسوية جعلت من منزلها القائم في مدينة القاهرة صالوناً أدبياً كانت تستقبل فيه، مساء كلّ ثلاثاء، كبار المفكّرين في زمانها: طه حسين، يعقوب صرّوف، لطفي السيّد، عبّاس محمود العقّاد، أدغار جلاّد، اسماعيل صبري، مصطفى صادق الرافعي، أنطون الجميّل، ولي الدين يكن... وسرعان ما أصبحت مُلْهِمَتهم.

لم تتعرّف مي إلى جبران إلاّ في سنة 1912، وذلك من خلال مقالته «يوم

[1] إسمها الحقيقي هو ماري. وكان جبران في رسائله يسمّيها أحياناً «مي» وأحياناً أخرى «ماري».

مولدي» التي نشرت في الصحافة وفتنها أسلوبها. في السنة نفسها صدر كتابُه «الأجنحة المتكسّرة». فقرأته مي وأعجبَت به فكتبت إلى جبران مهنّئةً رسالةً قالت فيها إنّها تشاطره، على نحو خاص، مبدأ المناداة بحريّة المرأة، لأنّ المرأة، برأيها، ينبغي أن تمتلك حريّتها التامّة في اختيار زوجها وفق ما تمليه عليها ميولها وأحاسيسها الخاصّة؛ فمن غير الجائز، برأيها، أن تُحشَر حياتها في قالبٍ يختاره لها جيرانها ومعارفها...

ردّ جبران على رسالتها[1] وكانت تلك بداية علاقة من طريق الرسائل، باللغة العربية، استمرّت حتّى وفاة الكاتب. فما هي الأمور التي تبادلها المنفيّان في رسائلهما؟ في البداية كانا يتبادلان المدائح ويتحدّثان في الأدب، ولكنْ شيئاً فشيئاً نشأ بينهما شكلٌ من التواطؤ الذي استحالَ حبّاً في النهاية. استهل جبران رسائله الأولى إليها، والتي كان يكتبها بحرصٍ وعناية لا يبذلهما في تدبيج رسائله إلى ماري، بالعبارة الآتية: «إلى الأديبة الموهوبة الفاضلة»، ولكن في رسائله الأخيرة راح يناديها بـ«عزيزتي». كان يسرد لها وقائع أيّامه مستذكراً طفولته وأحلامه وحنينه إلى الشرق، كما كان يبعث إليها ببطاقات دعوة إلى معارضه أو قراءاته، وقصاصات جرائد حول أعماله، وبطاقات بريديّة تحمل رسوماً للرسّامين الذين يحبّهم. وأحياناً، على الهامش، كان يخطّ رسوماً صغيرة تتسم أحياناً بالطرافة فيما تكون في أحيان أخرى مغرقةً برمزيّتها. في 24 آذار 1913، خلال حفل تكريم الشاعر اللبناني خليل مطران الذي أقيم في القاهرة، طلب اليها أن تتحدّث معرّفةً به وأن تقرأ أحد نصوصه نيابةً عنه.

مَيْ، امرأة حسّاسة وحالمة. وحين نشبت الحرب العظمى مُعوّقةً سُبُل التواصل عبر البريد، تشبّثت الفتاة بذكرى صديقها البعيد ورفضت كلّ من حاول التقرّب إليها. وقد عبّرت في مقالة نشرتها في جريدة والدها، عن أمنيتها بأن تلاقي الوجهَ الحبيب الذي تحول المسافة دون رؤيته، متخيّلةً نفسها محلّقة فوق مياه البحر لملاقاته.

[1] جبران خليل جبران: **الشعلة الزرقا، رسائل حب إلى مي زيادة**، تحقيق سلمى حفّارالكزبري وسهيل بشروئي، دار النهار، 2004.

إذ كان من الواضح أنّ جبران بات يحتلّ مكانة مميّزة في عالمها الرومانسي.

من دون أن يلتقيا كان الأديبان يشعران بأنهما متقاربان، لا بل كانا متقاربين فعلاً إلى درجةٍ شعر جبران معها بأنّ «خيوطاً غير مرئيّة» تربط فكره بفكر مي، ونفسه بنفسها، وتخيّل أن روح مي ترافقه، بفضل ما يسميه «العنصر الشفّاف»، حيثما يذهب، تماماً كما استخدم صيغة «نحن» في بعض رسائله التي يوجّهها إلى ماري هاسكل، للتدليل على أن نفسيهما متحدّتان برغم المسافة التي تفصل بينهما:

«أنتِ تتأسفين لأنك لم تستطيعي الحضور إلى «الوليمة الفنيّة». وأنا أستغرب أسفك هذا، أستغربه جداً، أفلا تذكرين ذهابنا سويّة إلى المعرض؟ هل نسيتِ انتقالنا من صورة إلى صورة؟ [...] الظاهر أنّ «العنصر الشفّاف» فينا يقوم بكثير من الأعمال والمآتي على غير معرفة منا، فهو يسبح مرفرفاً إلى الجهة الثانية من الأرض [...]. ما أغرب العنصر الشفّاف فينا يا مَيْ وما أكثر أعماله المجهولة لدينا. ولكن عرفناه أو لم نعرفه فهو أملنا ومحجّتنا. وهو مصيرنا وكمالنا. وهو نحن في الحالة الربّانية.

هذا وأنا أعتقد بأنك إذا أجهدتِ حافظتك قليلاً تتذكرين زيارتنا إلى المعرض فهلاّ فعلتِ؟»

وفي رسالة أخرى:

«منذ كتبت إليك حتّى الآن وأنتِ في خاطري. ولقد صرفتُ الساعات الطوال مفكّراً بكِ مخاطباً إيّاكِ مستجوباً خفاياك مستقصياً أسرارك. والعجيب أنني شعرت مرّات عديدة بوجود ذاتك الأثيريّة في هذا المكتب ترقب حركاتي وتكلّمني وتحاورني وتبدي رأيها في مآتيَّ وأعمالي».

وفي حزيران 1921، أرسلت له مي صورتها، وهي الصورة التي رسم انطلاقاً منها رسماً لها بالفحم. لقد اكتشف بسعادة غامرة أنها امرأة ذات وجه مستدير، ممتلئ، وشعر بنيّ على بعض القِصَر، مفروقٍ من وسطه، وعينين لوزيّتين مجروحتين

تحميهما رموش كثّة، وفم شهواني وشفتين مكتنزتين. في نظرتها بريقٌ ما، مُشرقٌ ومعبّر، يأسره. وفي قسماتها ملمحٍ ذَكَريّ، شبهة من القسوة الكامنة التي عِوَضَ أن تفسد جمالها، تضفي عليه فتنةً مُضافة: كانت مَيْ، في نظره، تجسّد مثال الأنوثة الشرقيّة. «ما أجمل هذه الصورة. ما أجمل وما أحلى هذه «البُنيّة» وما أوضح دلائل الذكاء في عينيها...» أمام الصورة التي جعلت لذاك الحبّ الأثيري قِواماً، وليد صلات التراسل البريئة، وقف جبران متفكّراً حالماً. كانت تلك المرأة تتمتّع بكلّ ما قد يثير فيه مشاعرَ الحبّ والإعجاب، غير أنّها كانت بعيدة المنال. وهو لم يكن شاعراً، آنذاك، بأنّه مستعدّ للرحيل عن أميركا أو للارتباط. ما العمل؟ الاستمرار في العلاقة؟ أم قطعها؟ كان جبران يجد في ذلك الحبّ الروحاني، الفكري، ملاذَ اطمئنانه. ولكن ماذا عنها هي؟ هل خطر بباله يوماً أن كلامه المعسول سيُشبِعُ آمالاً زائفةً في قلب صديقته؟

في شهر تشرين الأول 1923، افتقد جبران فجأةً ما كان يحيط به من مشاعر الحبّ: رحلت «بوزي» وميشلين وشارلوت وجرترود؛ وماري أيضاً اختارت أن تبتعد. فسارع لشعورِه بفراغٍ كبير من حوله، إلى تدبيج رسالة إلى مي صارحها فيها من دون مقدّمات قائلاً: «أنتِ تحيين فيّ وأنا أحيا فيك، أنتِ تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك». وفي شهر كانون الأول من العام نفسه، عاود الكرّة فكتب لها قائلاً:

«أنتِ معي في هذه الساعة. أنتِ معي يا مي [...] أعلم أننا أقرب من عرش الله في هذه الليلة منّا في أي وقتٍ من ماضينا [...] أنتِ أقرب الناس إلى روحي، وأنتِ أقرب الناس إلى قلبي، ونحن لم نتخاصم قط بروحينا أو قلبينا [...] أحبّ صغيرتي، غير أنني لا أدري بعقلي لماذا أحبّها، ولا أريد أن أدري بعقلي. يكفي أنني أحبّها. ويكفي أنني أحبّها بروحي وقلبي، يكفي أنني أسند رأسي إلى كتفها كئيباً غريباً مستوحداً فرحاً مدهوشاً مجذوباً، يكفي أن أسير إلى جانبها نحو قمّة الجبل وأن أقول لها بين الآونة والأخرى «أنتِ رفيقتي، أنتِ رفيقتي».

أبدت مي قدراً كبيراً من الحياء والتحفّظ، وإذ أربكها بعض ما ورد في رسائل

صديقها، سواء لما تضمّنته من اعترافات جريئة أو من استهزاء بالنبرة الرسميّة التي تعتمدها من دون أن تدري، «حردت» وكفّت عن مراسلته بضعة أشهر. أمّا مشاعرها الحقيقيّة فقد كانت تعبّر عنها في مقالاتها. إلى المدائح التي كالتها في مقالاتها النقدية لأعمال جبران، دبّجت عدداً من النصوص خاطبت فيها حبيبها من دون أن تسمّيه. وفي مقالة لها بعنـوان «أنت، أيّها الغريب» عبّرت عن شغفها بمن «لا يدري أنها تحبّه» ومن «تبحث عن صوته بين كلّ الأصوات التي تسمعها». غير أنّها كانت تراودها الشكوك أحياناً فتتساءل في قرارتها إذا لم يكن هذا كلّه مجرّد وهم، وإذا لم يكن حبّها حبّاً متوهّماً. في نصّها المعنوَن «عند مفترق الدروب»، تسأل الرجل الذي يسكن أفكارها: «مَن أنتَ؟ هل أنت وحي يفيض عن شعري، طيف من أطياف رغبتي وعذابي؟ أم أنك واقع ملموس عبر أفق حياتي كما تعبر سفينة عباب البحر قاصدةً الشطآن البعيدة؟».

وفي رسالة مؤرّخة بتاريخ 15 كانون الثاني 1924، تجرّأت مَي أخيراً، وقد عيل صبرها، على البـوح بحبّها لصديقها. بعد مقدّمة طويلة تلوم فيها جبران، على سبيل المزاح، لأنّه لم «يُعيّدها» لمناسبة الأعياد مشيرةً إلى الخصومة القديمة بين أهل بشرّي وأهل إهدن، بلدتها، تعترف مي أخيراً بحبّها الرجل الذي تلقّبه «المصطفى»، على غرار الشخصيّة الرئيسيّة في كتاب «النبي». تقول مي إنها كتبت صفحات الرسالة هذه ضاحكةً لكي «تتحايد» قولَ إنّه محبوبها ولكي «تتحايد كلمة حب». فهي تعلّق آمالاً كباراً على الحبّ وتخشى ألاّ يوفّر لها ما تتوقعه منه. وتضيف بأنها تقول هذا مع يقينها بأن قليلاً من الحبّ يمثّل، فـي عينيها، الكثير. غير أنّ القليل من الحب لا يكفيها. أمّا بوحها له بأسرارها، فماذا يعني؟ هي لا تدري تماماً ماذا تعني بقولها كلّ ذلك. غير أنّها تعلم يقيناً أنه حبيبها وأنها تؤلّه الحب. ثمّ تسأل: ما الذي حدا بها إلى الاعتراف له بأفكارها؟ وتحمد الله لأنها تكتب أفكارها لأنها لو كانت تخاطبه وجهاً لوجه لأحجمت عن ذلك وآثرت الابتعاد عنه لفترة طويلة ولن تسمح له برؤيتها مجدداً إلاّ بعد أن ينسى كلامها برمّته.

وتضيف مَي في رسالتها، واصفةً غروب الشمس عند الأفق البعيد، بين الغيوم، فيما يتلألأ نجمٌ، بديع الشكل والمظهر، هو نجم فينوس (الزهرة) إلهة الحب. وتخبره كيف راحت تسأل نفسها إذا كان هذا الكوكب مأهولاً بأناس مثلهما، متحابين مفعمين بالاشتياق. وتسأل مجدداً: هل يُعقَل أن تكون فينوس (الزهرة) ليست مثلها، هي، وليس لها جبرانها - ذلك الحضور النائي الجميل، والذي هو قريب جداً في الحقيقة؟

بماذا أجابها جبران؟ في رسالته المؤرّخة في 26 شباط 1924، بدأ بذكر شغفه بالعواصف، أتبعه بدعابة عن ذقنه مفادها أن تسليم ذقنه «هو حدث دولي»، ثمّ خاطب صديقته قائلاً:

«تقولين لي إنك تخافين الحبّ. لماذا تخافينه يا صغيرتي؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مدّ البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لماذا يا ترى تخافين الحب؟ أنا أعلم أن القليل في الحبّ لا يُرضيك، كما أعلم أن القليل في الحبّ لا يُرضيني. أنـت وأنا لا ولن نرضى بالقليل. نحن نريد الكثير. نحن نريد كلّ شيء. نحن نريد الكمال. [...]

لا تخافي الحب يا ماري، لا تخافي الحبّ يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة. [...]

والآن قرّبي جبهتك. قرّبي جبهتك الحلوة - كذا، كذا. والله يباركك والله يحرسك يا رفيقة قلبي الحبيبة».

سوى أنّ كلام جبران لم يبدّد حيرتها. كانت مي تعلم جيّداً أن جبران يحدّثها عن الحبّ، غير أنّ كلامه مُغرقٌ في المثاليّات بحيث يبدو مجرّد كلام لا شخصيّ، كلام هوائي لا أكثر. وإذ فوجئ بموقف صديقته غير المتوقّع، بدا أنه مال إلى التراجع ضنّاً منه بحريّته أو ضنّاً بما تبقّى من حياته - لعلمِه أنّ المتبقّي ليس الكثير - مؤثراً ألاّ يرتبط بعلاقةٍ قد تتطلّب منه، وممّن يحب، تضحيات جساماً. عندئذ أدركت مي، بكثير من المرارة، أنّ ثمّة التباساً عميقاً بين رغبتها هي وبين تصوّر

جبران لعلاقتهما. وندمت لأنها صارحته، ولأنها بادرت إلى البوحِ بحبّها. ولزمت الصمت ثمانية شهور، الصمت الذي وصفه جبران بأنّه السَكوت «الطويل كالأبديّة».

على الرغم من ذلك استمرمي وجبران في تبادل الرسائل، ولو بوتائر متباعدة، حتّى وفاة جبران. وقد أرفقت آخر رسالة تلقّتها مي من صديقها برسم لراحة يد مبسوطة وفي وسطها شعلة زرقاء... رمز مكتمل! عندما بلغها نبأ وفاةً جبران أطلقت مي صرخة ألمٍ مدويّة. ولن يمضي عشر سنوات على وفاته حتّى تفارق هي الحياة، ولم تحبّ رجلاً آخر سواه.

لقد أثارت العلاقة التي نشأت بين جبران ومي عبر الرسائل عدداً لا يُحصى من التأويلات والكتابات. إذ زعم بعض الكتّاب، في ميلٍ إلى المغالاة في تقدير الأهميّة التي اكتسبتها تلك العلاقة في حياة جبران، أنّ هذا الأخير طلب الزواجَ منها؛ أمّا البعض الآخر فأقام الصلة بين موت جبران المبكر وبين حالة الجنون التي أصابتها في آخر أيامها، مستندين إلى صورة لجبران كانت مي قد دوّنت عليها الكلمات الآتية: «هذه مصيبتي منذ أعوام». غير أنّ هذه المزاعم لا تستقيمُ أمام الوقائع: فالرسائل المتوفّرة لدينا اليوم (وكثير منها فُقِد أو تلف) لا تأتي على ذكر الزواج مطلقاً، والانهيار العصبي الذي عانت منه مي كانت أسبابه عديدة، منها حزنها وعزلتها إثرَ وفاة والديها وأعزّ أصدقائها، يعقوب صرّوف، وكذلك الضغوط التي مارسها عليها أقرباؤها للاستيلاء على ممتلكاتها... ومهما كان من أمر تلك العلاقة، يبقى أن الرسائل التي تبادلها الأديبان هي من بين الأغنى والأجمل في أدب المراسلات بالعربية، ولا ريب في أنّها البرهان الساطع على ميل جبران المذهل إلى «الحبّ» من دون شهوة الجماع وعلى الرغم من بعْد المسافة:

«يقولون لي يا مي إنني من محبّي الناس، ويلومني بعضهم لأنني أحب جميع الناس. نعم، أحب جميع الناس، أحبهم بدون انتخاب وبدون غربلة [...] ولكن لكلّ قلب قبلة خاصّة، لكل قلب وجهة ذاتية يتحوّل إليها ساعات

انفراده، لكل قلب صومعة يختلي فيها ليجد راحته وتعزيته، لكل قلب قلبٌ يشتاق إلى الاتصال به ليتمتّع بما في الحياة من البركة والسلامة أو لينسى ما في الحياة من ألم».

كلام رائع لرجلٍ لم ينسَ، سحابةَ عمره، أن يحبّ، ولم يهتدِ يوماً إلى حبّ حياته.

-10-

الحرب العظمى

اندلعت الحرب في أوروبا وانتشرت مآسيها وأهوالها كما ينتشر الوباء. وعلى الرغم من كونه بعيداً آلاف الكيلومترات من ساحة المعركة، كان لوقائع المأساة أبلغ التأثير على جبران. وزادت الأنباء الواردة من لبنان من حال القلق التي استبدّت به: فبذريعة الحصار الذي فرضه الحلفاء، عمدت السلطات العثمانية إلى مصادرة موارد البلاد كافّة وقطعت المؤن عن بيروت. كما صادرت الماشية، وحظرت الصيّد. وقد زاد من تردّي الوضاع انتشار الامراض وغزو الجراد الذي قضى على المحاصيل. ما أدّى إلى المجاعة التي عمّت البلاد: امتلأت الشوارع بأطفالٍ مشرّدين بالغي الهزال منتفخي البطون، حتّى بلغت حصيلة الوفيّات في بيروت نحو مائة شخص يومياً. إزاء القنوط الذي استبدّ بالناس لم يتردّد هؤلاء في التخلي عن أملاكهم مقابل رطل من الطحين. أمّا في عاليه، فقد أصدرت المحكمة العسكريّة بتوجيهات الحاكم العسكري العثماني، جمال باشا، أحكاماً متتالية كان الغرض منها إسكات صوت المعارضين للاحتلال العثماني، ونُصِبت المشانق في الساحات: بين عامي 1915 و1916 نفّذ الأتراك حكم الإعدام شنَقاً بعدد من الوطنيين اللبنانيين والعرب الذين اتّهموا بالخيانة العظمى جرّاء اتّصالهم بالحلفاء. رأى جبران أنّ ما كان يجري في جبل لبنان ليس سوى تكرار لما جرى، في وقتٍ سابق، في أرمينيا. فاستبدّ به الإحساس بالذنب لبُعْدِه عن الذين «يموتون بصمت». كان يعلم جيّداً أنّ «نواحنا لا يسدّ رمقهم، ودموعنا لا تروي غليلهم». لذا جنّد نفسه وقبل، دون تلكؤ، منصب سكرتير لجنة إغاثة منكوبي سوريا وجبل لبنان التي تولّى فيها

أمين الريحاني منصبَ نائب الرئيس. كتب لماري بهذا الشـأن قائلاً: «أنا أعرف، يا ماري، أن هذه مسؤولية عظيمة، مادية وعقلية على السواء، ولكن عليّ الاضطلاع بها حتّى نهايتها الأخيرة مهما بلغت عظمتها. إنّ الفواجع العظيمة توسع القلب وتخلق في المرء رغبةً في أن يخدم وأن يتجرّد عن الأنانية. لم تتح لي من قبل الفرصة لكي أخدم شعبي في أعمال من هذا النوع. أنا سعيد لأن بوسعي أن أخدم قليلاً وأشعر أن الله سيأخذ بيدي». بذل جبران كلّ الجهود الممكنة داعياً الجالية السورية اللبنانية في بوسطن ونيويورك إلى المساعدة، وبمعونة الصليب الأحمر الأميركي، تمكّن من تجهيز باخرة محمّلة بالمواد الغذائية لإمداد مواطنيه المنكوبين بالمؤن. وسنة 1917، غداة دخول الولايات المتحدة الحرب، ازداد نشاط جبران في هذا المجال: فانتسب إلـى «لجنة التطوع لسوريا وجبل لبنان» التي ترأسها أيوب تابت، زميل الدراسة، والمكلّفة تجنيد سوريي ولبنانيي أميركا الراغبين في القتال إلى جانب الحلفاء لتحرير المنطقة من النير العثماني. وبلغ عدد المتطوعين، في شهر أيلول، نحو خمسة عشر ألف رجل التحقوا بفرقة الشرق التابعة للجيش الفرنسي المتمركزة في قبرص[1]...

انطلاقاً من نشاطه في تلك الحقبة، وصفَ بعض الدارسين جبران بأنه كان صاحب عقيدة، ومنظّراً، وبطلاً للقضيّة السورية. لكنّ الوقائع تكذّب مثل تلك المزاعم: جبران لم يكن سياسياً. «البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع، وأنا أرى ذاتـي غريبـاً في بلد واحد، وخارجاً عن أمّة واحدة»، يقـول فـي «دمعـة وابتسامة»، «فالأرض كلّها وطني والعائلة البشريّة عشيرتي...» ولمن يحثّه على القيام بدور زعيم سياسي، كان يقول: «لست رجل سياسة ولن أكون». كذلك الأمر في قصّته «العوّاصف» التي تروي حكاية يوسف فخري الذي يقرّر، وهو في الثلاثين من عمره، أن «يترك العالم وما فيه ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً» في صومعة بعيداً عن المدينة، حيث ترد العبارة الآتية على لسان بطله: «طلبت الخلوة

---

[1] راجع بشأن هذه الفرقة: P. Fournier et J.-L. Riccioli, *La France et le Proche-Orient (1916-1946)*, Casterman, 1996, p. 51.

(هرباً) من الساسة الذين يتلاعبون بأماني الأمم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الألفاظ». لكنّ جبران كان يمتلك حسّاً بالمسؤولية يحثّه على المبادرة حيثما استدعاه الواجب. فالشغل الشاغل لداعية إصلاح مثله هو مصير البشريّة التي يودّ أن تُعتَق من أشكال العبودية كافّة، وهو الكمالّ والحريّة اللتان طالما بشّر بهما واللذان كانا يحثّانه على المطالبة بتحرير الأراضي العربية المحتلّة من قبل العثمانيين.

في خضمّ انهماكه بنشاطه الإنساني، وقلقه البالغ حيال الأنباء المأسوية الواردة من أوروبا ومن المشرق، أهمل جبران نتاجه الأدبي. فعلى الرغم من صدور كتابه «دمعة وابتسامة» سنة 1914، فإنّ الكتاب المذكور لم يضمّ سوى مقالات له كتبت بالعربية وسبق أن نشرت في جريدة «المهاجر»، وكان جبران متردّداً في إصدارها لأنّها تنتمي، برأيه، إلى حقبة سابقة من حياته غلب عليها النواح والغنائية. كانت تلك المقالات، وعددها ستّ وخمسون مقالة، مفعمة بَنَفَس إنساني وتشتمل على تأملات في الحياة والحبّ والأوضاع في لبنان وسوريا. أمّا الشكل الذي اعتمده فيها فهو الشعر المنثور، وهو شكلٌ غير مسبوق في الأدب العربي. وبهذا المعنى كان جبران رائده.

في تلك الحقبة، وبتأثير من ماري هاسكل من دون شك، شعر جبران بالحاجة، أو في الأقل، بالرغبة في التعبير عن نفسه باللغة الإنكليزيّة التي كان من شأنها أن تفتح أبواب التواصل مع جمهور القرّاء الأميركيين. «إنّ الغربيين قد ملّوا أشباح أرواحهم وضجروا من ذواتهم فأصبحوا يتسلّون بالغريب الغير مألوف خصوصاً إذا كان شرقياً»، كتب ذات يوم إلى مي زيادة. ويضيف في سنة 1918 قائلاً إنّ البشر تغيّروا كثيراً خلال السنوات الثلاث المنصرمة. لقد باتوا متعطّشين للجمال والحقيقة وما هو كائن فيما وراء الجمال والحقيقة. ولأنه لم يكن يجيد الإنكليزيّة انكبّ على أعمال شكسبير، كما قرأ وعاود قراءة «العهد القديم» في ترجمة كينغ جيمس King James... «أرتادُ مدرستك ويقيني أنني ما كنت لأكتب كلمة واحدة بالإنكليزيّة لو لم اكتب إليك... أسرّ إلى ماري هاسكل قائلاً. ما زالت معرفتي بالإنكليزيّة

محدودة جداً، ولكنني قادر على التعلّم». شيئاً فشيئاً، راح جبران يتآلف، بفضل إرادته ومثابرته وطول أناته، مع لغة شكسبير من دون التنكّر للغته الأم التي كانت لا تزال تسكن كيانه: «ما زلت أفكّر بالعربيّة» قال لماري. كما أكّدت برباره يونغ التي عملت كمساعدة له في آخر أيّامه، أنّه غالباً «ما كانت اللغة الإنكليزيّة لا توائم المعنى الدقيق للفكرة التي يودّ أن يعبّر عنها؛ وكان يقول بهذا الشأن: «هناك 40 مفردة بالعربية للتعبير عن أوجه الحبّ المختلفة». وكان الثراء اللغوي للعربيّة التي يجيدها، وشغفه بها، يحثّانه على المفردة الأكثر مواءمةً لها بالإنكليزيّة، من دون التخلّي عن بساطة الأسلوب». أحرز جبران تقدّماً سريعاً في هذا المجال. وانحاز إلى البناء (اللغوي) المُصفّى، ناهلاً من إنشاء الكتاب المقدّس: «إنّ لغة خليل الإنكليزيّة هي الأكثر رهافة: إنّها لغة مرهفة رائعة البساطة»، تلاحظ ماري في يوميّاتها. وتضيف، بشيء من المبالغة: «إنّه يجيد الإنكليزيّة أكثر من سواه، لأنّه مُدرِكٌ لبنية اللغة و'نظامها الشمسي'. إنّه يبتكر اللغة الإنكليزيّة». والحقّ أنّ جبران امتلك مخيّلة لا متناهية كما امتلك حسّ الإيقاع: «على الشعراء أن يصغوا لإيقاع البحر، يقول مؤكّداً. إذ نجد إيقاعاً مماثلاً في «سفر أيوب» وفي نصوص «العهد القديم» الرائعة جميعها... هذه الموسيقى هي التي ينبغي أن تلهمنا، وكذلك نغم الريح وحفيف أوراق الشجر». هكذا، وعلى الرغم من مناهلها الكلاسيكيّة - إذ اشتملت على مفردات غير مألوفة الاستعمال من قبيل: ...*aught, verily, yea* -، فإنّ لغته الإنكليزيّة لم تكن جامدة: فموسيقاها «البحرية» وصورها الإيحائية تسلِسُ قيادَها. فيها صفاء المجاز. وفيما بعد سيقول جبران عن اللغة التي تبنّاها (أو تبنّته) إنّه ليس سوى ضيفٍ في صرحها، وصنيعه بها إنّما هو تعبير عن احترامه لها. وإنّه لن يجازف يوماً بالتصرّف بمبناها على السجيّة على غرار ما يُجيزه أبناؤها لأنفسهم في تعاملهم معها.

من أين يبدأ إذاً؟ كان هناك، طبعاً، مشروع «النبيّ» الذي حمله عهداً على نفسِه منذ الطفولة. غير أنّه لم يحرز في تدوينه سوى بعض التقدّم البطيء. لذا كان ينبغي له أن يهتدي إلى موضوع أقلّ طموحاً قد يحتضن أفكارَه ولغتَه الجديدة بالتبنّي.

فكّر جبران ملياً: مَن يقدر على فضح حماقة البشر وجبنهم وكشف الستر والقناع عن حقيقة المجتمع، من دون مساءلة؟ طبعاً، المجنون وحده يقدر على ذلك. أغوته الفكرة. كانت لا تزال راسخة في ذهنه ذكرى قزحيا، في الوادي المقدّس، وتلك المغارة التي كان يقيّد فيها المجانين بالأغلال بغيةَ ردّهم، بحسب الاعتقاد الشائع، إلى رشدهم. ففي قصّته «يوحنّا المجنون» كان يجاهر بأنّ «المجنون، هو من يجرؤ على قول الحقيقة»، وهو الـذي ينقض التقاليد البالية والذي يُصلَب لأنّه يسعى وراء التغيير. وفي عمليه المسرحيين اللذين نُشرا بعد مماته، «الأعمى»، و «لعازر وخليلته»، يؤدي المجنون دور المراقب المستنير الذي يعلّق، فلسفيّاً، على القصّة التي تجري أحداثها أمام ناظريه. كان جبران يرى أنّ الجنون هو الخطوة الأولى على درب التحرّر من الأنانيّة، وبما أنّ غاية الحياة هي أن تقرّبنا الحياةُ من أسرارها، فإنّ الجنون هو الوسيلة الوحيدة لتحقّقها. فعقد العزم على أن يجعل عنوان كتابه المقبل: *The Madman* (المجنون). ولم يبق أمامه إلاّ أن ينصرف إلى تأليفه.

وفي هذه الأثناء كان يكتب لمجلّة أدبية جديدة هي *The Seven Arts* (الفنون السبعة) يديرها شاعر أميركي شاب يُدعى جيمس أوبنهايم James Oppenheim. وقد شكّلت هذه المجلّـة التـي كـان يُسهم فيها أيضاً كتّابٌ مرموقون أمثال جـون دوس باسـوس John Dos Passos ودافيد هربرت لورنس D. H. Lawrence وبرتراند راسل Bertrand Russel رافعةً لمسيرته الأدبيّة ولاختلاطه بالأوساط الفنيّة النيويوركيّة. نشر في المجلّة بعض رسومه ثمّ أتبعها بنصوصه الأولى بالإنكليزية بعد مَراجعتها وتنقيحها من قبل ماري هاسكل المتفانية، مثل «الليل والمجنون» أو «البحر الأعظم». لكنّ إسهامه في المجلّة لم يعمّر طويلاً: فإزاء الأفكار المسالمة التي كانت المجلّة تروّج لها والتي تنتقد صراحةً دخول الولايات المتحدة الحرب، لم يلبث جبران أن وجد نفسه مرغماً على الاستقالة من هيئة تحريرها لكي لا يَظهر في مظهر المنحرفِ عن المبادئ التي يدعو إليها أصدقاؤه اللبنانيون والسوريون: «أنا ضدّ الحرب، يقول شارحاً. غير أنّ هذا ما يدفعني إلى استغلال هذه الحرب...».

وماذا عن الرسم؟ «الأجواء مفعمة بالنواح، كتب إلى ماري ذات يوم. لا يستطيع أحدنا التنفّس من دون أن يشعر بطعم الدماء». كان جبران يعاني ضيقاً شديدَ الوطأة. غير أنه رفض الاستسلام إلى اليأس. لذا، مشتملاً بعباءته ذات الكمّين الفضفاضين التي اعتاد أن يرتديها في محترفه، انصرف، قلباً وقالباً، إلى مزاولة الرسم. أنجز لوحة من القياس الكبير تصوّر والدته حاملةً طفلاً (أهذا هو؟) ومحاطةً بابنتيها، كما أنجز عدداً من اللوحات الأخرى التي عرضها، بفضل الجهود التي بذلها ألكزندر مورتن Alexander Morten ابتداءً من 14 كانون الأول سنة 1914، في «مونتروس غاليري» القائمة عند رقم 550، في الجادة الخامسة. وعلى الرغم من أنّ معرضه ذاك، وكان الأول له منذ عودته من باريس، لقيَ استقبالاً فاتراً من قبل نقّاد الصحافة النيويوركيّة، فقد جنى منه خمسة آلاف دولار. وقد أتْبَعَه، سنة 1917، بمعرضين آخرين: أحدهما في صالة عرض Knoedler & Co في نيويورك، حيث عرض أربعين مائيّة إلى جانب لوحات لبونّار وكاريير وسيزان وبيسارو؛ والآخر في صالة Doll & Richards في بوسطن.

ليلة افتتاح معرضه في صالة مونتروس، اختلى جبران بماري في شقّته. نزعت عنها ملابسها أمام عينيه المذهولتين. ثمّ راح يلامس جسدها لكنّه عاد وتمالك نفسه، بدعوى أنّه من الخير لهما أن يتجنّبا «تعقيد الأمور جنسياً».

إنقضت الفترة بين عامي 1914 و1916 حافلة باللقاءات: كان جبران يتردّد على صالونات المجتمع الراقي النيويوركي التي تديرها نساءٌ من ذوات المكانة والنفوذ. وتعرّف إلى روز أونيل Rose O'Neill، الفنّانة الذائعة الصيت، التي رسم لها بورتريه؛ كما التقى عمدة نيوارك، توماس رايموند Thomas Raymond والشاعرة الأميركية آيمي لويل Amy Lowell ورسّام المدرسة الرمزيّة الشهير ألبرت رايدر Albert Ryder الذي كان يحيا في ظروفٍ بائسة في غرفةٍ سيئة التدفئة في عمارة متصدّعة في الجادة السادسة عشرة، وينام مفترشاً البلاط أو فوق كراسٍ يصفّها واحدة بجنب الأخرى،

مُفرطاً في الشراب لكي ينسى المرأة التي هجرته. نشأت بين الرجلين علاقة مودّة. فرسم له جبران بورتريه ضمّه إلى مجموعة «معبد الفن» التي كان قد انضم إليها مؤخراً كلّ من المؤلّف المسرحي برسي ماك كاي Percy Mac Kaye والراقصة روث سانت دنيس Ruth Saint-Denis التي أوحى إليه أداؤها بأكثر من رسم، كما لا ريب في أنه أوحى إليه العبارة الآتية: «روح الفيلسوف تقيم في رأسه، وروح الشاعر في قلبه... أمّا روح الراقصة فإنها تقطن في جسدها كلّه». وفي تلك الحقبة أيضاً تلقّى جبران أكثر من دعوة من رابطة شعراء أميركا التي كان في عداد أعضائها كورين روزفلت روبنسون Corinne Roosevelt Robinson، شقيقة الرجل الذي تولّى رئاسة الولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1901 و1909. وانتخب مختارات من «المجنون» كتابه الذي كان منصرفاً إلى تأليفه، لكي يقرأها أمام جمهور مهتمّ.

وفي خريف سنة 1916، كان جبران على موعد مع لقاء جديد، تعرّف خلاله إلى رجل سيخصّه، فيما بعد، بكتابٍ مثيرٍ للجدل (لإغراقِه في نزعته «الإنسانية» واتخاذه، في معظم الأحيان، منحىً روائياً) وسيعمّر حتّى مشارف المئة عام. هذا الرجل الذي يعرفه اللبنانيون جيّداً، هو الكاتب والفيلسوف ميخائيل نعيمه. كان نعيمه المولود، كجبران، في بلدةٍ في أعالي الجبل يكتنفها الضباب باستمرار، هي بلدة بسكنتا، تلقّى دروساً في الكهنوت في روسيا قبل انتقاله إلى الولايات المتحدة لكي يتابع دروساً في القانون والأدب. فما الذي جمع بينهما، ما خلا الجذور التي ينتميان إليها؟ كلاهما كان نشر نصوصاً في مجلّة «الفنون»، وكلاهما كان يؤمن بالتناسخ، وكلاهما كان يناضل في سبيل تحرير بلده: ففي إطار «لجنة المتطوعين» كان جبران يتولّى أمانةَ المراسلات الإنكليزيّة؛ فيما كان نعيمه يتولّى أمانة المراسلات العربية. ألم يكن ذلك كافياً لنشوء صداقة بينهما؟ ولكن سرعان ما فرّقت بينهما مجريات الحرب. فقد ألحق ميخائيل نعيمه، الملقّب «ميشا»، بقوات الإنزال الأميركية على الجبهة الفرنسية. ثمّ وجد نفسَه ملحقاً بالوحدات المقاتلة في بوردو، قبل انتقاله

إلى منطقة آرغون. ولن ينسى، إثر عودته إلى نيويورك سليماً معافى، تلك التجربة الأليمة التي عاشها هناك.

في كانون الأوّل سنة 1916، قِيضَ لجبران أن يلتقي رابندرانات طاغور، الشاعر الهندي الشهير، حائز جائزة نوبل للآداب سنة 1913. «إنّه بهيّ الطلعة ورفقته ممتعة جداً، كتب إلى ماري واصفاً إيّاه. لكنّ صوته مُحبِطٌ: تعوزه النبرة القوية فهو لا يُحسِن تلاوةَ قصائده ولهذا السبب يأتي وقعها غير محبّب على السامعين». بمضي ثلاث سنوات على هذا اللقاء، لم يتوانَ أحد الصحافيين النيويوركيين عن عقد المقارنة بين الرجلين: «كلاهما يستخدم الأسلوب المجازي في كتاباته ويجيد الإنكليزيّة بمقدار ما يجيد لغته الأمّ. وكلاهما فنّان في مجالاتٍ أخرى غير الشعر».

وفي أواخر عام 1916، تلقّى جبران من ماري قطعةً صغيرة من حجر نيزكيّ مصدرُه آريزونا. فكادَ، هو الشغوف بعلوم الفلك، أن يطير فرحاً: «إنّها أروع هدية تلقيتها في حياتي كلّها. هديّةٌ تثري مخيّلتي، وتحلّق بأفكاري في الفضاء جاعلةً اللامنتهى أقرب إلى نفسي وأقلّ غربة...».

مع اقتراب الحرب من نهايتها، ازداد انكباب جبران على التأليف. ففي شهر آب، كتب بالعربيّة قصّة تحت عنوان: «الشيطان» يتخيّل فيها لقاءً بين راهب من شمال لبنان يُدعى سمعان وبين الشيطان نفسِه في هيئة رجلٍ محتضر. «أنا باني الأديرة والصوامع على أسس الخوف، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذّة. فإن زال كياني زال الخوف واللذّة من العالم، وبزوالهما تضمحلّ الميول والأماني في القلب البشري فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطّعة الأوتار مكسّرة الجوانب. أنا الشيطان الأزلي الأبدي». خشية أن يفقد امتيازاته، يوافق الخوري سمعان على إسعاف الشيطان: «يجب أن تحيا لأنك إن قضيتَ وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثمّ يتمرّغون بالإثم... سوف أضحّي كرهي لك على مذبح محبّتي للجنس البشري»، يقول في سرّه دفعاً لتأنيب الضمير. في هذا النصّ الذي يجاور فيه التهكّمُ السخريّةَ، ينتقد

بشدّة رجال الدين الذين يُقوم سلطانهم على الخوف الذي يُلقي به الشرّ في روع المؤمنين، ويعتبر الشيطان اختراعاً بشرياً لتسمية «تلك القوّة التي تحوّل العاصفة نحو أكواخنا وتحرق بالقيظ مزارعنا وتقرض بالأوبئة مواشينا وتلامس بالأمراض أجسادنا»[1]. هذه الأجواء ليست بعيدة عن قصّة هرمان ملفيل Herman Melville «بائع واقيات الصواعق» حيث يتحاور الراوي مع بائع جوّال مريب «يتاجر بخوف الناس»...

وسيعود جبران نفسه لتناول هذه الفكرة في بيان أسماه «العهد الجديد[2]» حيث يسأل إخوانَه قائلاً:

«أرئيس دِن يحوك من سذاجة القوم برفيراً لجسده، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه، ويدّعي كره إبليس ويعيش بخيراته؟ أم تقي ورع يرى في فضيلة الفرد أساساً لرقيّ الأمّة، وفي استقصاء أسرار روحه سلماً إلى الروح الكلّي؟ إذا كنت الأوّل فأنتَ كافرٌ ملحد صُمْتَ النهار أو صلّيتَ الليل، وإن كنت الثاني فأنتَ زنبقة في جنّة الحق...».

وتحت أنظار ماري هاسكل الحانية، كتب أيضاً مقاطع جديدة من النصّ الذي سيغدو، فيما بعد، كتاب «النبي»، والذي كان قد اختار له عنواناً موقتاً هو «النصائح»، وبعدَ أن اتضحَ له الشكلَ الذي سيتخذه؛ كما فرغ من كتابة «المجنون» المؤلّف من أربعة وثلاثين مَثَلاً وقصيدة، على غرار قصص الشاعر الصوفي فريد الدين العطّار. ولكن أين ينشر عمله الأول بالإنكليزيّة؟ أرسل المخطوطة إلى ثلاثة ناشرين رُفِضَت منهم جميعاً بذريعة أنّ هذا النوع الأدبي «غير رائج». ولكن مع تدخّل العناية الإلهية تميل الأمور إلى الإنصاف أحياناً: فخلال مأدبة أقيمت لمناسبة صدور كتاب أوبنهايم، *The Book of Self* (كتاب الذات) لدى دار

[1] هذا النص مثبت في «العواصف».

[2] نشر في جريدة «الهلال» عدد الأوّل من نيسان عام 1921، وقدْ ضُمّ هذا النصّ المهمّ إلى نصوص «البدائع والطرائف».

للنشرِ أنشأها حديثاً ألفرد كنوبف Alfred Knopf، حصل جبران على موعدٍ مع صاحب الدار الناشئة بتوصية مشتركة من الشاعر ويتر باينر وسفير فرنسا في واشنطن، بيار دو لانو Pierre de Lanux الذي كان جبران قد رسم صورة شخصيّة له في وقت سابق. ولم يلبث جبران أن أعجِب بشخصيّة كنوبف الذي وافق على نشر كتابه: «كلّما التقيته زاد حبّي له... ليس رجلاً محسناً للبشر. إنّه رجل مستقيم. ولا يدع شيئاً للصُدفة».

وفي منتصف شهر تشرين الأول سنة 1918، صدر «المجنون» أخيراً، مرفقاً بثلاثة رسوم للمؤلّف، ومُهدىً، بالطبع، إلى «م. أ. هـ.» ولكي يحثّ القرّاء على شراء الكتاب، وزّع الناشر منشوراً أكد فيه «أنه ليس مستهجناً أن يرى رودان في هذا الشاعر العربي موهبةً واعدة. ففي قصصه الرمزيّة وقصائده المكتوبة بالإنكليزيّة، يبدو أن جبران قد عبّر عمّا حقّقه رودان في كتل الرخام والطين... كان رودان يشبّه جبران بوليم بلايك». فأن يُنسب إلى رودان كلامٌ لم ينطق به يوماً، ليس بالأمر اليسير لو أنّ النحّات الشهير كان لا يزال على قيد الحياة. غير أنّه كان فارق العالم منذ بعض الوقت، فلن يُتاح له إذاً أن يكذّبه: لقد توفي رودان في شهر تشرين الثاني سنة 1917، وحرص جبران على إحياء ذكراه بقصيدة أسماها «معلّم الطين».

يتضمّن «المجنون» عدداً من النصوص المكتوبة أصلاً بالعربية، ثمّ تُرجمت إلى الإنكليزيّة من قبل المؤلِّف نفسه وبمساعدة ولية نعمته. ويروي هذا الكتاب قصّة شخصيّة حسّاسة، ولكنّها «مختلفة»، تستهلّ حكايتها بإطلاعنا على الظروف التي أودت بها إلى الجنون. يقول المجنون: «لقد وجدت بجنوني هذا الحرية والنجاة معاً». يشعر بأنّه من جوهرٍ إلهي: يقيم صلةً بالله ويخاطبه. ومن خلال توحّده مع الله، يُرسّخ تماسكه الداخلي. لكنّه، مع ذلك، لا يغفل عن البشر؛ فهو لا يريد أن يقطع الصلات التي تجمع بين المرئي وغير المرئي. يراقب العالم بنظرة جديدة، ساخرة، ويهزأ من تعامي العدالة، ومن الحماقة البشرية، ومن مزاعم النقاش الفلسفي... الأسلوب الذي يطغى على النصوص بمجملها متقشّف – فاللغة

الإنكليزيّة لغة مثالية للإيجاز - واللهجة تهكّمية مفعمةٌ بالمرارة.

لقد شكّل «المجنون» منعطفاً حاسماً في نتاج جبران، ليس ذلك فقط لكونه كتابه الأول بالإنكليزيّة، بل لكون العنف والضغينة اللذين وسَما كتاباته الأولى استُبْدِلا بالتأمّل والسموّ الروحاني. وعلى الرغم من أن الكتاب يولّد لدى القارئ انطباعاً بعدم التجانس، بدليل تضمّنه نصّاً تحت عنوان «هزيمة» كان كتبه لمناسبة هزيمة صربيا سنة 1918، إلى جانب نصوص كتبت خصّيصاً ليضمّها الكتاب، فقد امتدحته ناقدة أدبية في تلك الحقبة، تدعى مارغريت ولكنسون، بالعبارات الآتية: «يكتب خليل جبران قصائد وأمثالاً لها موسيقاها الخاصّة، ولها تمايزها، وسحرها الساذج، ولها بناؤها المتوازي القائم على الرمز والتضاد والتكرار والتوازي...».

أرسل جبران نسخةً من الكتاب إلى مي زيادة التي رأت أنّه كتابٌ كئيبٌ وقاسٍ. ولأنّه اعتاد مدائح صديقته، كتب لها رسالة جوابيّة ضمّنها تحريفاً متعمداً لإحدى عبارات «الكتاب المقدّس»: «وماذا ينفع الإنسان إذا ربح استحسان العالم وخسر استحسان مي؟» كما أرسل نسخة من الكتاب إلى جرترود بارّي، عشيقته السرّية. لِمَ حَرِص جبران على إبقاء هذه العلاقة طيّ الكتمان؟ المؤكّد أنه كان يحرص أولاً عَلى مراعاة مشاعر ماري التي ما كانت لتقبل بأن يمنح امرأة أخرى ما لم تستطع هي أن تناله منه، والمؤكّد ثانياً أن تلك العلاقة التي لا شبهة «أفلاطونية» فيها ما كانت لتتلاءم مع صورته كـ «نبيّ». الحقيقة أن جبران أقام عدداً من العلاقات السريّة، منها ما هو مثالي أفلاطوني ومنها ما هو جسديّ بحت: جرترود ستاين التي التقاها عام 1930 والتي طالما اعتبرت نفسَها حبّه الأخير، وماري قهوجي، وماري الخوري - التي غالباً ما كانت تستقبله في بيتها، ابتداء من سنة 1922، بمفرده أو برفقة أصدقائه في «الرابطة» -، وسواهنّ. تؤكّد هيلانة غسطين، على غرار ما تؤكّده ميشلين وشارلوت، بأن جبران كان رجل «يحبّ النساء»، وتروي حادثة طريفة تدلّل على سلوك الكاتب. تقول هيلانة غسطين إن جبران طلب منها ذات يوم أن تشتري له مظلّة. «أريد أن أقدّمها هدية لمريانا»، قال لها بثقة. قامت هيلانة بجولة على محال المدينة واختارت له مظلّة فريدة من نوعها، مميّزة

عن مثيلاتها. وبمضيّ أسابيع قليلة، لمحت هذه المظلّة ذاتها في يد امرأة لا تعرفها. فتظاهرت بأنها أعجبت بالمظلّة المميزة وسألتها من أين اشترتها. فأجابت المرأة وقد تورّد خدّاها خجلاً أنّها هدية من صديقها اللبناني!

عاش جبران هذه العلاقات الغرامية سرّاً، إمّا لحرصه على سمعة النساء اللواتي عاشرهنّ، وإمّا خوفاً من تشويه صورته التي كان حريصاً على الظهور من خلالها: صورة الزاهد المنصرف عن شؤون الدنيا، وصـورة الكائن السامي الذي «يفهم الحبّ روحاً لا جسداً». بيد ان جبران عاد و أقر في «رمل وزبد» بأنّ «الروح المجنّحة نفسها لا تستطيع أن تتخلّص من الحاجات الطبيعية»!.

وفي شهر تشرين الثاني سنة 1918، جرى التوقيع على الهدنة التي أنهت الحرب. بحماسة بالغة كتب جبران إلى ماري التي كانت في هذه الأثناء قد أقفلت مدرستها لكي تشرف على «كامبردج سكول»، واصفاً ذلك اليوم بأنّه «أقدس الأيّام بعد ولادة المسيح!».

-11-

«من الطبيعة إلى اللامنتهى...»

في شهر أيار سنة 1919، أصدر جبران في منشورات «مرآة الغرب» كتابه السادس بالعربيّة: «المواكب»، مع مقدّمة للناشر نسيب عريضة، وثمانية رسوم. الكتاب عبارة عن قصيدة طويلة مؤلّفة من مائتين وثلاثة أبيات، منظومة في شكل حوار فلسفي بصوتين: الأول يعبّر عـن نفوره من العالم، ويسخر من قيم الحضارة المصطنعة؛ والثاني، اكثر تفاؤلاً، ينشد، بصفاء سريرةٍ، نشيداً للطبيعة ولوحدة الوجود، مجسّدةً بـ«الناي»، الأداة المصاحبة لطقوس الصوفيّة التي «تبوح بأسرار الخالق» وترمز إلى النفس المشتاقة لأن تعود إلى النبع الإلهي الذي فُصِمَت عنه. «المواكب»، يكتب جبران إلى ماري مفسّراً، تمثّل أوجه الحياة كما يراها شخص مزدوج، مكوّن من «أنا» مدينية ومن «هو» عفوي ساذج، كرعاة الشرق الأدنى الفتيان، أي الرجل الذي ينشد للحياة بتناغم مع ذاتها من دون تحليل أو شكّ أو نقاش أو تعريف». وعلى غرار «المجنون»، يتخلّى المؤلّف عن أفكاره الملتزمة التي ضمّنها كتبه العربيّة السابقة: ذلك أن كتاب «المواكب» هو دعوة إلى التأمّل. وتعبيره البسيط، الصادق، العفوي، الخالي من أي تقليد قديم من دون أن يدّعي حداثة صريحة (فالقصيدة نظمت، عروضياً، على أساس بحرين من بحور الشعر العربي التقليدي)، أثار إنتقادات «دعاة الصفاء» أمثال العقّاد وعمر فرّوخ[1]. ولكن لا

[1] يقول مارون عبود عن جبران الشاعر: «وهنا يخطر ببالنا جبران الشاعر «نظماً» فهل وفّق يا ترى إلى الشعر الذي يريد؟ لا. إن جبران شاعر في منشوره لا في منظومه. أراد أن يفلسف نظماً فقال أشياء هي أفكار أكثر منها موسيقى». (مجدّدون ومجترّون، ص 246).

شيء يُحبط تصميم جبران على كسر القوالب الجامدة: وسواء على مستوى الأفكار أو على صعيد الأسلوب، إنّه يؤثِر الفوضى على احترام التقاليد والأعراف. كلمة «تقليد» تثير سخطه. لذا يطلق العنان لمخيّلته المتحرّرة من كلّ القيود، من دون التفاتٍ إلى موازين العروض أو قواعد الإملاء التي يتجاهلها أحياناً في رسائله المكتوبة بالعربية...

وفي أواخر سنة 1919، أصدر جبران في منشورات كنوبف مجموعة من عشرين رسماً أسماها: «عشرون رسماً». وبمثابة مقدّمة، أرفق الناشر نُسَخَه بنصّ للناقدة التشكيليّة آليس رفاييل أكستاين Alice Rafael Eckstein، كانت قد نشرته في شهر آذار عام 1917 في مجلّة «الفنون السبعة»، وفيه تعتبر أن نتاج جبران يقع «على العتبة بين الشرق والغرب، وبين الرمزيّة والمثالية». لقد لاقى أسلوب الفنّان نجاحاً. فهو يرسم كما يكتب، ويكتب بصرياً كأنّه يرسم. فكيف له أن يتنكّر للرسم الذي يستبدّ بميوله منذ الطفولة؟ وكيف يهجر الكتابة التي تتيح له التعبير عن أفكاره بالعربية، وبالإنكليزيّة منذ بعض الوقت؟ زاول جبران حرفتي الكتابة والرسم هاتين لا يميّز إحداهما عن الأخرى: «أكرّس حياتي للكتابة والرسم، وما يوفّره لي هذان من متعة يتجاوز كلّ متعة أخرى، يقول ذات يوم. هذه النار التي تغذّي مشاعري إنما تودّ أن تكتسي حبراً وورقاً». ذلك أن عالم الرسم وعالم الأدب يتعانقان لديه ويختلطان. قيلَ إنّ «جبران يرسم بالكلمات»: والحقّ أن رسمه يبدو كأنّه التعبير الدقيق لأفكاره؛ إذ يعكس ببراعة قلقه الماورائي ويتضمّن، على الدوام، رسالة. وهو لشدّة اهتمامه بمصير البشر لا يصوّر إلاّ شخصيات - واقعية أو متخيّلة - ويُبدي ميلاً ظاهراً للعري الذي يشكّل، كما أسلفنا، «أكثر رموز الحياة حقيقة وجمالاً».

بجوار فريد هولاند داي، اكتشف جبران النزعة الرمزيّة وخضع لتأثير معلّمه البادي بوضوح في أوجه التطابق المدهشة بين صور المعلّم وأعمال تلميذه: ذلك أن صورتَيْ داي المعَنْوَنَتَيْن Archer in the Woods وYouth in rocky landscape ترشحان بِسِماتِ عالم جبران الفنّي؛ كذلك الأمر بالنسبة للصورتين

المُعَنْوَنَتَيْن Nude youth with lyre وOrpheus الشبيهتين بلوحة «أورفيه» لجبران. هذا فضلاً عن أنّ الشخصيّة التي تمثُّل في صورة داي المُعَنْوَنَة: The Storm God وتلك التي يضعها جبران في قلب Storm (العاصفة) تظهران، وليس هذا من قبيل المصادفة، في الوضْعةِ ذاتها. الحقيقة ان جبران تعلّم الرسم على نفسِه، وإن كان قد تردّد في باريس لفترة وجيزة على «أكاديمية جوليان» وعلى محترف «مارسيل بيرونو». أحد المؤلفين وصف عصامية جبران في مجال الفنّ بالعبارات الشاعرية الآتية: «لم يتابع جبران برنامجاً تعليمياً منهجياً أو أكاديمياً كما أنه لم يحصل قط على أي شهادة في هذا المجال... مثل عصفور، كان ينقد متى شاء وحيثما شاء لكي يرتقي فيما بعد إلى ذُرى عالمه الروحي المُرتجى[1]».

مع ذلك، مال جبران بالفطرة، وفي وقت مبكر جداً، حتّى قبل فترة تعليمه في فرنسا، إلى أسلوبٍ بعينِه: فبين رسومه الأولى المُنجزة في لبنان وبين لوحاته الأخيرة، ثمّة أوجه قُربى واتصال، كأنّ جبران، خلافاً للعديد من الرسامين المعروفين، اختطّ له، منذ البداية، مساراً واضحاً حاول أن يتبعه بأمانة وأن يستمرّ في تحسينه. منذ سنة 1908، ولمناسبة حفل عشاء في منزل ماري هاسكل، حدّد جبران رؤيته للفنّ:

«البعض يعتقد أن الفن هو محاكاة الطبيعة؛ ولكن الحال أنّ الطبيعة من الروعة بحيث تستحيل محاكاتها. ومهما بلغ الفنّ من النُبلِ، فإنّه يعجز عن الإتيان ولو بمعجزة واحدة من معجزات الطبيعة. ثمّ ما الداعي إلى محاكاة الطبيعة ما دام جميع الذين يمتلكون الإحساس قادرين على الإحساس بها؟

الفن يقتصر على فهم الطبيعة ونقل فهمنا لها إلى من يجهلونها. مهمّة الفنّ تكمن في إظهار روح الشجرة لا في رسم جذع وأغصان وأشجار تشبه الشجرة. إنّ هدف الفنّ هو أن يُظهر وجدان البحر لا أن يرسم الأمواج المزبدة أو المياه

(1) راجع: Boulos Taouk, *La Personnalité de Gibran dans ses dimensions constitutives et existentielles*, II، ص 329.

الزرقاء. الفنّ هو خطوة نخطوها من المعلوم المرئي نحو المجهول الخفيّ، من الطبيعة نحو اللامنتهى».

منصرفاً عن التيّارات الفنّية السائدة في زمانه - كالتكعيبية والسريالية -، آثر جبران أن ينمّي موهبته على هامش التيّارات المجدّدة. عاد إلى رمزيّة وليم بلايك الذي لا يرتاب أحدٌ في حجم تأثيره البالغ في أعماله: فمكتبة جبران المحفوظة في بشرّي تحتوي على كتاب «قران السماء والأرض» لبلايك وما لا يقلّ عن أربعة مؤلفات تتناول أعماله، من بينها نسخة من كتاب لورنس باينيون: *The Drawings and Engravings of Blake* و*The Art of William Blake* لأليزابث لوثر (مهدىً من جبران إلى ماري هاسكل!)؛ وغالباً ما كان يأتي في رسائله على ذكر الفنّان الإنكليزي الكبير. في 6 تشرين الأول سنة 1915، كتب جبران إلى ماري هاسكل قائلاً: «أمّا بلايك فهو الإنسان - الإله. ورسومه أعمق ما أخرجه الرسم الإنكليزي حتّى الآن - ورؤياه، بصرف النظر عن أشعاره ورسومه، هي أكثر ألوهة». خلال معرض جبران الأول، في هارتكورت غاليري، عام 1904، لاحظ ناقد الـ*Evening Transcript* أنّ إحدى اللوحات المعروضة «تذكّر بإحدى روائع وليم بلايك الصوفيّة». ويُروى، كما أسلفنا، أن رودان قال عن جبران إنّه «بلايك القرن العشرين»، وماري هاسكل، نفسها، كتبت إلى صديقِها قائلةً: «بلايك ذو سطوة. صوت الله ويد الله ماثلان في ما يصنعه... وهو يبدو، حقاً، أقرب إليك من أي شخص آخر...» والحقيقة ان بلايك لم يكن في نظر جبران مجرّد مُلهِم كسواه (أمثال جان دلفيل وأوديلون رودون وبيار بوفي دو شافان - الذينَ تزيّن لوحاتهم جدران مكتبة بوسطن العامّة التي كان مُعجَباً ببساطتها وبنقائها -، أو أمثال فرنان كنوبف وأوبري بيردسلي وإدوارد برن-جونز ورسّامي المرحلة ما قبل الرافائيليّة...): بل كان أباً روحياً بحقّ. فإذا ما تأمّلنا، كيفما إتّفق، في «*Pity*» وفي

«*Whirlwind of lovers*» أو في «*The House of Death*»، نجد فيها النساء المجنّحات، والكائنات المتحجّرة، والأجساد المتلوّية، والشخوص العاريّة، والجثث المكدّسة... هي نفسها التي يزخر بها عالم جبران التصويري. تذكّر لوحة بلايك «*Queen Katherine's dream*» (1825) برسوم جبران بنسائها المتلاشيات، الهوائيات، ذوات الراحات المبسوطة، المرتديات الأثواب الرومانية الفضفاضة... إنّ رمزية بلايك الانطباعية، ورفضه المحاكاة الحرفيّة للطبيعة، وسطوة فتنته الحلميّة، والمضمون الأسطوري - لا بل الصوفي! - لفنّه، ورؤياه المبنية على وحدة مفقودة مرجوّة تدعو الإنسان إلى الانفتاح على الامتلاء الإلهي الذي يحمله في أعماق ذاته، وروح التمرّد لديه... هذه كلّها ماثلة في فنّ جبران الذي كان، كملهمِه، نادراً ما يرسم الأجساد البشريّة انطلاقاً من موديل، بل كان يجيد التعبير عن أشكالها بدقّة متناهية وذلك بفضل نظرته الثاقبة الملاحِظة وبفضل قوّة مخيّلته البصريّة - ما يفسّر، من ناحية أخرى، حقيقة أن جبران، وحتّى في رسمه البورتريه (بوزي، سلطانة...)، كان يحفظ غيباً ملامح الوجه ويرى في ذهنِه، بوضوح، ما يودّ أن يرسمه. ولكن خلافاً لعالم بلايك، يمتاز عالم جبران بقدر أكبر من صفاء السريرة، وبقدرٍ أقل من العنف، كما أنه أقلّ تقبّلاً لأفكار الجحيم، وقوى الشرّ المدمّرة والقيامة التي كانت تشكل هاجساً لدى مؤلّف «قران السماء والجحيم». كذلك الأمر فإنّ حلول الله يتجسّد ويكتمل في الطبيعة وليس، كما لدى بلايك، في المخيّلة الخلاّقة التي يسمّيها «العبقرية الشعرية»، والتي لا يتوانى جبران، على الرغم من ذلك، عن الاحتفاء بها. إذا كان بلايك يرى أنّه «حيث لا يوجد إنسان، تكون الطبيعة عقيمة» Where man is not, nature is barren، فالطبيعة، في نظر مؤلّف «النبي»، هي باب اللامنتهى.

أوجين كاريير Eugène Carrière كان له، هو أيضاً، تأثير بالغ في أعمال جبران الذي كان يعتبره «الأقرب إلى قلبه». إذ أغوته الأجواء الضبابيّة الغالبة

على لوحات الفنّان الفرنسي، لم يتوانَ جبران عن استلهامها سواء في رسوم البورتريه (وتشاء المصادفة الغريبة أن كليهما قد أنجز رسماً للكاتب والمعلّق الساخر هنري روشفور!)، أو في لوحاته الأخرى. بين لوحة «همس السكون» لجبران ولوحة «موت غوغان» لكاريير، ثمة قرابة مؤكّدة؛ وكذلك الأمر بالنسبة للوحات الفرنسي ذات الطابع التركيبي الذائعة الصيت والمكرّسة لموضوعة الأمومة (خاصّة: «شكلان متعانقان»، و«أم وطفل») فهي تذكّر، في أكثر من وجه، بلوحات ورسوم جبران التي أنجزها بين عامي 1908 و1918، ومن بينها لوحة تحمل عنواناً مماثلاً: «أمّ وطفل». «مادّة واحدة، نور واحد، هذا ما يتعلّمه الفنّان من النهر المتدفق باتجاه البحر، لامنتهى الأفق، الكون الذي لا يُحَدّ، إنسانية واحدة، وعقل واحد. كل العناصر تتضافر من أجل الحفاظ على توازن العالم. كل عناصر البشريّة مقدَّر لها أن تتلاقى بحكم قانون التناغم»: خاطرة كاريير هذه، يتبنّاها جبران من دون تردّد.

لقد مرّت مسيرة جبران الفنية بمراحل عديدة، لا يسهل تحديدها نظراً لافتقار لوحاته إلى التواريخ:

فالمرحلة الأولى (1904–1896) من مسيرة جبران الرسّام هي المتزامنة مع بدايات الفنّان وتشمل رسومه بالقلم الرصاص أو بالحبر، والممهّدة لأعماله المستقبلية، والتي استخدم بعضها لتزيين دواوين أصدقائه الشعرية أو تلك المنشورة لدى داي. من تلك الحقبة لدينا، على سبيل المثال، رسم تمهيديّ يمثّل «حبّاً مجنّحاً مستلقياً على ظهره سوية الأرض وسط حقل خشخاش» (ويذكّر الرسم بالمرأة المستلقية في لوحة «*Pity*» لبلايك)؛ بالإضافة إلى رسوم أخرى تغلب عليها، منذ ذلك الحين، النزعة الرمزية الصوفية.

بين عامي 1908 و1910، خلال إقامته في باريس، تآلف جبران مع الرسم بالزيت ووقّع أعمالاً لافتة مثل «الخريف» التي انتخبت لكي تعرض في «صالون الربيع» لعام 1910، في قاعة «لوغران باليه» (القصر الكبير). كما أنه برع في فنّ البورتريه وأنجز سلسلة من الرسوم بالفحم لعددٍ من فنّاني عصره.

هذه الرسوم التمهيديّة ذات التظليلات المستدقّة المنحنية، والوجوه الرقيقة ذات الشعر الغائم الخلو من التفاصيل، والعيون شبه المغمضة، منحنية أو في وضْعة استدارة، ثلاثة أرباع استدارة، إلى الجهة اليُمنى، تذكّر بمخطّطات ليوناردو دافنشي (ومن بينها مثلاً: «رأس امرأة»). كما أنّ تجاور وجوه عديدة في اللوحة ذاتها، كما في «الأعمى»، و«أربعة وجوه» أو أيضاً «أربعة وجوه تعلوها أشكال طائرة وملاك»، أمرٌ يتكرّر في رسوم الفنّان الإيطالي الكبير الذي لا شكّ في عمقِ تأثيره على أعمال جبران.

بين عامي 1910 و1914، بدأت مرحلة جديدة ازدادت فيها أعمال جبران وضوحاً وبراعة. رسم جبران بالزيّت أو خطّط بالفحم أعمالاً موسومة بالصور الرمزيّة المتكرّرة، زاخرة بأشكال السنتور (هي بمجملها سبع عشرة لوحة)، والشخصيّات التي لا جنس لها، مخنّثة أو خنثوية أحياناً، جامدةً في وضْعاتٍ تأملية، أو متقوقعة على ذاتها، متعانقة، مصلوبة، وسط ديكور يذكّر ببداية الفردوس الأرضي... وفي بعض اللوحات الأخرى يبدو تأثير رمبرانت Rembrandt ملحوظاً: خلفية معتمة، وجوه وأيدٍ منوّرةٍ بسطوعٍ لافت... في شهر كانون الأوّل عام 1914، عقب معرضه في «مونتروس غاليريّ»، يقول جبران: «يتّجه كياني بكامله الآن إلى بداية جديدة. هذا المعرض هو خاتمة لفصلٍ من فصولِ حياتي».

بين 1914 و1920، جرّب جبران تقنية الرسم المائي، من دون تغييرات جوهريّة في أعماله. فغدت الشخوص أكثر هوائية، أكثر شفافية، لكنّ الأشكال صارت أقلّ وضوحاً، ومعالم الهيئاتِ غائمة غير محدّدة، والأشكال مخطّطة ومظلّلة بالقلم الرصاص. غير أن هذه التقنية بدت أقلّ مناسبةً لأعمال جبران من الرسم الزيتي. وإلى هذه الحقبة تنتمي مجموعة من اللوحات الخاصّة بموضوعة الأمومة – وهي الموضوعة التي تطرّق إليها خلال المرحلتين السابقتين ولكن بأسلوب مختلف – التي تذكّر بتآليف الأمّ والطفل لدى أوجين كاريير.

عام 1920، وباعتراف جبران نفسِه، «تنتهي مرحلة وتبدأ أخرى، جديدة». بين عامي 1920 و1923، تبدو مائيّاته مشغولةً بأناة ودقّة. تتصفّى الألوان وتتّضح.

وتتميّز رسومه المشغولة بقلم الرصاص على ورق («المستعبَد»؛ «العالم الربّاني») بهندسة متناغمة. إنّها الحقبة التي عرض فيها أعماله في قاعة Women's City Club في بوسطن والتي أنجز خلالها الرسومَ التي ستصاحب نصّ «النبيّ».

المرحلة الأخيرة تشمل الفترة الممتدة بين 1923 و1931، سنة وفاته. وتشمل لوحاتٍ أشدّ قتامة، حيث تختفي الشخصيّات لتحل محلّها أشكالٌ طيفيّة. نشعر بالقلق الذي يستبدّ بالفنان. أهو أمر مستجدّ؟ ذلك أن الكآبة تسود أعمال جبران التصويرية جميعها، حتّى تلك التـي لا يغيـب عنها الرجاء تماماً: هاماتٌ مُطرِقة، شخصيّات مسحوقة، أمّهات محزونات... هل ينبغي لنا أن نردّ هذه الكآبةَ إلى جذورها الغنائية الرومانسيّة التي ورثها عن فريـد هولاند داي؟ منذ أن التقت جبران للمرّة الأولى، أخذت «بوزي» عليه طغيان «الكآبة» على طباعه. تلك الطبـاعِ، التي ازدادت حدّة بفعل المنفى ونوائب الدهر التي رافقته، نجد لها تفسيراً محتملاً في مقطعٍ من «الأجنحة المتكسّرة» : «والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمخّض به اليأس... تظلّ حياته كصفحةٍ خالية بيضاء في كتاب الكيان».

انطلاقاً مما سبق، نواجه سؤالاً لا بدّ أن يستوقفنا: هل يُعتبَر جبران رسّاماً كبيراً؟ يزعم البعض أن جبران لم يجدّد، ولم يتمكّن من اللحاق بركب الحداثة، وأنّه غالباً ما كان يكرّر نفسَه، وأنّ مواكب الأجساد العارية ذات الإيماء المسرحي تغدو، في آخر المطاف، مضجرة. أمّا البعض الآخر فينتقد تقنيته، وبناء لوحاته. الحقيقة أنّ أعمال جبران التصويرية، على غرار أعمال بلايك، هي وثيقة الصلة بكتاباته؛ ولعلّ مصاحبة رسومه لنصوص كتبه هو خير ما يؤكّد هذا التطابق لديه بين الكلمة والرسم. يستحيل علينا أن نطلق أحكاماً على أعمال جبران التصويرية بمعزلٍ عن فكره وعن أعماله المكتوبة: إنها جزء من كلّ. أيكون انتقاصاً من مكانة مَن كان يدعو إلى وحدة الخلق كلِّه، القولُ بوحدة أعماله الأدبية والتصويرية؟

-12-

«الرابطة القلمية»

ليل العشرين من نيسان سنة 1920، أثناء اجتماع عُقِدَ في منزل عبد المسيح حدّاد، صاحب ومؤسّس «السائح»، أجمع الكتّاب اللبنانيون والسوريون المقيمون في نيويورك على ضرورة السعي «لبثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد»، بحسب ميخائيل نعيمة، إذ ينبغي مَدُّ هذا الأدب بدماء جديدة. وقرّر المشاركون تأليف جمعيّة تكون الحداثة محور نشاطها وغايتها الجمع بين الكتّاب وتوحيد مسعاهم لخدمة اللغة العربية وآدابه. أبدى جبران حماساً استثنائياً للفكرة ودعا جميع الأعضاء المؤسّسين للاجتماع مجدّداً في منزله بعد أسبوع واحد.

وفي الثامن والعشرين من نيسان، تلاقى ثمانية كتّاب في منزل جبران القائم في 51 وست تنث ستريت، لصوغ قوانين وأهداف الجمعيّة التي أطلقوا عليها اسم «الرابطة القلميّة». ومن بين المهام التي كانت ستضطلع بها الجمعيّة العتيدة والتي ضمّت إلى عضويتها عدداً من الأدباء المرموقين أمثال جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة ووديع باحوط ورشيد أيوب وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وندره حداد والياس عطالله ووليم كاتسفليس... مهمّة نشر مؤلفات «العاملين فيها» ومؤلفات سواهم من كتّاب العربيّة «المستحقّين»، وترجمة المؤلفات المهمّة من الآداب الأجنبيّة إلى العربية. وقد انتخب المجتمعون جبران «عميداً» لها (رئيساً) و«ميشا» مستشاراً (أميناً للسرّ) وكاتسفليس «خازناً» (أميناً للصندوق)؛ كما اختاروا لها آيةً من الحديث الشريف شعاراً: «لله كنوزٌ تحت العرشِ مفاتيحُها ألسنةُ الشعراء».

ما كان مصير هذه الجمعيّة؟ ثابر أعضاؤها على اجتماعاتهم، على نحوٍ غير منتظم، من سنة 1920 وحتّى وفاة جبران الذي كان محرّكها الفعلي وباعث النشاط فيها. ونشروا عدداً من كتاباتهم في جريدة «السائح» التي دأبت كلّ عام على إصدار عدد ممتاز يشترك فيه كلّ أعضاء الرابطة، في ما يشبه المختارات. وبسببٍ من الأفكار الثوريّة غير التقليديّة التي كانت تنشرها، لم تلبث الرابطة أن غدتْ منبراً ورمزاً لنهضة الآداب العربية... «إنشاء لون مرن ناعم، يقول مارون عبود، تعابير مملؤة ألواناً وموسيقى، تنعشها نفس صوفية كانت المثال الأعلى لإخوان الرابطة القلمية. فعوّلوا جميعاً على هذا الأسلوب الناعم الطري الممزوج بالروح الصوفية وتفلسفوا كلّهم في شعرهم ونثرهم[1]».

رأى جبران أنّ لا مستقبلَ للغة العربية إذا لم تتحرّر من القوالب القديمة ومن «عبوديّة العبارات الأدبية السطحيّة»، وإذا لم تتوصّل إلى إقامة حوار جدّي مع الغرب ولم تتمثّل تأثير الحضارة الأوروبية من دون أن تخضع لها: «إنّ روح الغرب صديق وعدوّ لنا». يقول جبران؛ «صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه». فهو يرى أنّ الفكر المبدع، «إرادة الاندفاع إلى الأمام»، هي التي تضمن بقاء لغة من اللغات. أمّا إذا فُقِدَ هذا الفكر، فإنّ مستقبل اللغة العربية - وهذا عنوان إحدى مقالاته - يبدو قاتِماً جداً: «فإذا هجعت قوّة الابتكار توقّفت اللغة عن مسيرها. وفي الوقوف والتقهقر الموتُ والإندثار».

وفي شهر آب سنة 1920، أصدرت دار «الهلال» في القاهرة كتاباً يتضمّن 31 مقالة لجبران كان قد نشرها في عدد الصحف والمجلاّت الصادرة باللغة العربية. نُشر الكتاب، وعنوانه «العواصف»، بمبادرة من صاحب الهلال إميل زيدان الذي تعرّف إلى جبران من طريق ميٍ زيادة. وفي رسالة موجّهة إلى من يخاطبه بـ«إميل أفندي»، يُبدي جبران اهتماماً بـ«جسد» الكتاب كما بـ«روحه»: إذ يزوّد ناشره بالتعليمات الضروريّة (قياس القَطع، وحجم الخط ونوعه، الإخراج المطبعي

[1] مارون عبود، مجدّدون ومجترّون، ص 242.

والتنضيد...) لكي يصدر المؤلَّف على أحسن شكل - دلالة على احترامه الكتاب والقارئ - أمّا ثمن الكتاب ونشره وريعه فيتركها «لحكمته ودرايته» - ما يسوق البرهان، على الضدّ مما ذهب إليه خصومه، على أنّ جبران لم يكن مبالياً بالأمور الماديّة[1]. يندّد كتاب «العواصف» بكل ما يختزنه من روح التمرّد، بمساوئ الشرقيين - تشبّثهم بالماضي وبتقاليده البالية - ويدعو إلى تحرير الزواج كما يرفض أشكال العبوديّة التي تقيّد البشريّة. وفي غمرةِ انحيازه إلى صفّ المضطهدين، يرفض جبران حال الرضوخ والضعف التي تكبّلهم، وبنَفَس نيتشوي، يدعوهم إلى السعي وراء القوّة والعظمة؛ ومن دون التخلّي عن إيمانه في الحبّ، يرفض أن يغدو الإنسان عبداً له.

في غمرة ذلك، لم تنقضِ أسابيع قليلة حتّى أصدر جبران كتابه الثاني بالإنكليزيّة عن دار نشر كنوبف: هو كتاب «السابق» الذي زيّنته خمسة رسوم للمؤلّف. على غرار كتابه «المجنون»، يتألّف الكتاب من بعض الأمثال والحكايات المعبّرة المفعمة بالحكمة والنزعة الصوفية. والسابق كما يصفه المؤلّف يرمز إلى النفس التي ينبغي أن تتفوّق على نفسِها، وأن تتحرّر من شهواتها الدنيوية، في سعيها وراء المطلق:

«منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا. (...) وليس ما حشدنا ونحشدُ في حياتنا سوى بذور نُعدّها لحقولٍ لم تُفلَح بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون. نحن الأثمار ونحن المستثمرون».

وفي «اليقظة الأخيرة»، يعلن السابق «وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذنٌ بعد»، عن إنبعاث محبّة أقوى:

«ها قد ولّى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموت عندما يأتي الفجر متوكّئاً على التلال، وستُبعَث من رمادنا محبّة أقوى من محبّتنا، وستضحك في نور الشمس، وستكون خالدة».

[1] تؤكّد برباره يونغ عدم اكتراث جبران لحقوقه كمؤلّف كما تؤكّد سخاءه المفرط (في *This Man from Lebanon*، ص 32)

هذا الكتـاب، وهو أقلّ تهكّماً وأقلّ عنفاً مما سبقه، يمهّد لصدور رائعة المؤلّف: «النبي».

وفـي مطلع شهر أيلول سنة 1920، شهد لبنان حدثاً حاسماً في تاريخه. ذلك أنّ فرنسا، التي كُلِّفَت بأن تكون سلطة الانتداب على سوريا ولبنان، والتي كان جبران الذي يحمّل إنكلترا مسؤولية ما يعانيه الشرق الأوسط من عثرات، يرى أنّها أفضل من يتولّى حكم هذه المنطقة من بين الدول الأوروبية كافّة، فرنسا هذه إذاً أعلنت قيام «لبنان الكبير» الذي يضمّ، إلى أرض المتصرّفية اللبنانية سابقاً، مدينة بيروت ومناطق البقاع وطرابلس وصيدا وصور. من قصر الصنوبر أعلن الجنرال غورو محاطاً بالبطريرك الماروني ومفتي الديار قيام هذه الدولة التي إتّخذت لنفسها، بمثابة شعار ورمز، علماً ثلاثي الألوان وشجرة أرز تتوسّط الجزء الأبيض منه. قسمٌ كبير من الشعب اللبناني عبّر عن ترحيبه بذلك الإعلان. ولكنّ جبران تلقّى النبأ بشيء من الحذر. لقد سبق له أن عبّر عن تحفّظه حيال هيمنة القوى العظمى، في شهر تشرين الثاني سنة 1919، عندما قال، في إحدى مقالاته، إنّ العدالة الدولية غير موجودة، وإنّه، وإن كان لا يودّ أن يفقد الأملَ في الحكومات، يعلم يقيناً أنّ مصير الأمم الصغيرة الضعيفة سيبقى على الدوام بين أيدي الأمم الكبيرة القوية؛ ويضيف قائلاً إنّ الحرب قد ولّدت، بالتأكيد، قدراً أكبر من الوعي والإدراك لدى البشر، غير أنّها لم تولّد حسّاً أعمق بالحقّ والعدل. ذلك أنّ القوة تبقى هي المسيطرة. وفي 8 تشرين الثاني (من السنة نفسها) نشر جبران في مجلّة «الهلال» مقالته الذائعة: «لكم لبنانكم ولي لبناني»، وفيه يعرب عن حبّه للبنان وأبنائه، ويندّد بالساسةِ الذين شوّهوه:

«لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجمالُه.

لكم لبنانكم بكلّ ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني...

لبنانكم مشكلة دوليّة تتقاذفها الليالي، أمّا لبناني فأودية هادئة سحرية تتموّج في

جنباتها رنّات الأجراس وأغاني السواقي. (...)
لبنانكم مربّعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش، أمّا لبناني فمعبد أدخله بالروح عندما أملّ النظر إلى وجه هذه المدنية السائرة على دواليب. (...)
لبنانكم طوائف وأحزاب. أمّا لبناني فصبيةٌ يتسلّقون الصخور ويركضون مع الجداول (...)
لكم لبنانكم ولي لبناني».

بيد أن السلطات في سورية ولبنان أبدت انزعاجها من هذا النص فعمدت إلى حذفه من كلّ النسخ المتداولة. غير أنها أغفلت ثَبتِ مقالات العدد واسم كاتبه، بحيث تنبّه القرّاء إلى صنيع الرقابة هذا فإزداد فضولهم لقراءته. لـم أعلم، وحتّى لم أحلم، أن الرقابة في سورية قد صارت حسّاسة، يقول جبران في رسالته إلى صاحب دار «الهلال». (...) إنّها والحق لحالة تبكي وتضحك في وقت واحد (...)».
وبمضيّ بضعة أشهر أخرى، كتب مجدّداً حول هذه المسألة، وبلهجة لا تقلّ عن سابقتها حدّة:

«ويلٌ لأمّة تلبس مما لا تنسج، وتأكل وتشرب مما لا تعصر.
ويل لأمّة تكره الشهوة في أحلامها، وتعنو لها في يقظتها.
ويل لأمّةٍ مقسّمةٍ إلى أجزاء، وكلّ جزء يحسب نفسَه فيها أمّة».

في هذه الأثناء، إنصرف جبران إلى العمل من دون توقّف: كتب لمجلّة *The Dial* وانكبّ على مخطوطة «النبي» لكي ينجزها ويسلّمها للناشر كنوبف الذي كان يلحّ في طلبها. تردّت حاله الصحّية جراء الجهد الذي كان يبذله. وأقلقته حال قلبِه: «كلّ ذلك لأنّ هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته وأنت تعلم يا ميخائيل إنّ وزن هذا «القلب» لم يكن قط مطابقاً للأوازن، وقافيته لم تكن البتّة مماثلةً للقوافي»، كتب في إحدى رسائله إلى ميخائيل نعيمة. شخّص أحد الأطباء في حالة جبران «إنهياراً عصبياً» مردّه إلى الإجهاد في العمل وسوء التغذية كما شخّص اضطراباً

شاملاً في وظائف الجسم العضوية وتسارعاً في ضربات القلب التي كانت تصل إلى 115 ضربة في الدقيقة الواحدة. كانت سلواه الوحيدة في تلك الفترة هي التأمّل في السماء: تدبّر لنفسه تلسكوباً لكي «يراقب اللامتهى»، أشبه بغاليليو الذي، برغم الأوجاع المبرحة، لم يسأم يوماً من الحملقة تدقيقاً في السماء.

وإذ تنبّه أصدقاؤه إلى حاله المتردية، أخرجوه من «الصومعة»، واصطحبوه معهم، إنّما لفترة وجيزة، إلى «كاهونزي»، وهي مزرعة على سفح جبال «كاتسكيل» بولاية نيويورك. شعر جبران بسعادة حقيقية خلال تلك العطلة القصيرة التي قضاها برفقة «ميشا» وعريضة وحدّاد: ذلك أنّ الأصدقاء الأربعة قضوا عشرة أيام من النزهات في الطبيعة، وشرب العرق، وإنشاد المواويل والتباري في ارتجال «القرّادي». وهناك التقطوا صوراً فوتوغرافية، لم يلبث جبران أن طالب بها ممازحاً نعيمة في إحدى رسائله: «ماذا حلّ بالصور الشمسيّة التي أخذناها في كاهونسي؟ ألا فاعلموا أنني أريد الحصول على نسخةٍ من كلّ صورة. فإن لم أحصل على حقوقي رفعت عليكم دعوتين، واحدة في محكمة الصداقة، والأخرى في ديوان أحمد باشا الجزّار!»؟

غير أنّ هذه العطلة العابرة لم تكن كافية لمدّ جسد الفنّان الواهن بما يحتاج إليه من العافية، لذلك اضطرّ إلى ملازمة الفراش فور عودته إلى المدينة. آثر البقاء في بوسطن، بقرب شقيقته مريانا، مريانا الوفية، التي لم تتزوّج لكي تتمكّن من توفير العناية اللازمة له...

في تلك الفترة بالذات تلقّت ماري عرض زواج من قبل زوج ابنة عمّها المتوفيّة منذ بعض الوقت. كان الرجل يُدعى فلورنس جاكوبماينس Florance Jacob Minis وهو في التاسعة والستين من عمره، ويشغلَ منصبَ رئيس إحدى شركات السكّة الحديد البارزة. ماري نفسها كانت قد تقدّمت في السنّ وما عادت في عزّ شبابها، ولأنّها كانت تعلم جيّداً أنّ لا أملَ يُرجى من علاقتها بصديقها الفنّان، خشيت على نفسِها من وحشة سنوات العمر الأخيرة إذا قضتها وحيدة. لذلك لم تمانع في الانتقال إلى «سفانا» بولاية جورجيا، لتقيم في دارة فخمة مع رجلٍ لطيفٍ

لَبِق التصرّف وإن كان مسنّاً. في آخر الأمر أبلغت جبران بأنها قرّرت الزواج من جاكوب. «العلاقة بيني وبينكِ هي أروع ما عِشتُه. إنّها علاقة سرمديّة»، يجيبُها الفنّان عندئذ. ويردف قائلاً: «إنني سعيد لسعادتك». ولكن سرعان ما يتضح أن فلورنس جاكوبماينس هذا رجلٌ غيورٌ على نحو مَرضيّ، ولا يلبث أن يرى في جبران غريماً، ما يجعل اللقاءات المحتملة بين الشريكين بالغة الصعوبة، ومتباعدة في مواعيدها.

شاءت الأقدار أن تبلّغه جرترود بارّي، في الفترة نفسها، عزمها هي أيضاً، وهي في الثانية والأربعين، على الزواج من عازف كمان إيطالي عاشق للطيران يُدعى هكتور بازينيلّو. شعر جبران بالحزن لفراق صديقته، غير أنه راح يردّد لها عبارات شبيهة بتلك التي ردّدها من قَبل على مسامع ماري: «أصدقاؤك يسعَدون لسعادتك». ثمّ طرأ ما ضاعف من وطأة الخسارتين: لقد بلغه أنّ جوزفين بيبودي، «بوزي»، وهي إحدى حبيباته في أول عهده في الحبّ، فارقت الحياة عن ثمانية وأربعين عاماً إثر معاناة طويلة مع المرض. لم يبقَ لجبران ما يبلسم فؤاده الجريح سوى صداقته مع مصوّرة شابة تُدعى ماريتا جياكوبه كان التقاها بمحض الصدفة سنة 1917. كانت فتاة مغرية، ذات عينين مليئتين بالحياة، وأنفٍ بارز، وذقن مستطيل ناتئ بعض الشيء، وابتسامة ساحرة. طلب منها جبران أن تكون له موديلاً، فوافقت. كان يناديها بـ«الأميرة الحلوة»، ويتصرّف معها كأنّه «عمّ» لها ويكتب إليها رسائل مفعمة بالحنان يحثّها فيها على «أن تحلم أحلامها وتبارك الحياة». أمّا هي فتقول في أواخر أيّامها[1]: «نسيت كلّ الفنّانين الذين عملتُ موديلاً لهم، ما عدا جبران»!.

لم يبقَ لجبران ما يصبو إليه حقّاً سوى الفراغ من تأليف «النبي» والعودة إلى مسقط رأسه. غير أنّ عقبةً كانت تحول دون عودته: فعلى الرغم من وفاة والده، كان الدائنون لا يزالون يلاحقون أفراد أسرته، لا يستثنون شيئاً أو أحداً. وإعزازاً

[1] من مواليد عام 1903، ماريتا جياكوبه، التي أصبحت ماريتا لوسون Mariita Lawson عقِبَ زواجها، زارت ضريح جبران، في لبنان، في سبعينات القرن المنصرم.

منهم للمثل الشعبي المأثور: «خُذ من المفلس ولو حفنة تراب»، قرّر هؤلاء مقاضاة ورثة خليل، أي جبران وشقيقته مريانا، «المجهولَي الإقامة»، وبيع كلّ ممتلكات العائلة بالمزاد العلني! ثمة وثائق صادرة عن دائرة الاجراء في قضاء البترون نُشرَت في الجريدة الرسميّة وعثر عليها ضمن وثائق المحفوظات الوطنية في لبنان، تَؤكّد هذه الحقيقة المؤلمة[2]. لكنّ جبران لم يفقد الأمل: «ميشا. ميشا! نجّاني الله وإيّاكَ من المدنية والمتمدنين»، يقول في إحدى رسائله إلى ميخائيل نعيمة. «ونحن سننجو بإذن الله. وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة، وأوديته الهادئة. وسنأكل من عنبه وبقوله، ونشرب من خمره وزيته. وسننام على بيادره، ونسرح مع قطعانه، ونسهر على شبابات رعاته وخرير غدرانه...».

[1] لقد تمكّنا، بفضل جهود مشكورة بذلها المحامي هيام ملاّط، من الاطلاع على هذه الإعلانات المنشورة في الجريدة الرسمية (عدد 429 الصادر في 16 نيسان 1912؛ والعدد 488 الصادر في الأول من تشرين الأول؛ والعدد 529 الصادر في 23 كانون الثاني 1913 والعدد 601 الصادر في 12 آب 1913).

-13-

«النبـي»

بقيَ كتابُ «النبيّ» مكنوناً يختمرُ في نفسِ جبران ووجدانه طيلة عشرين عاماً. منذ صباه الأوّل شرع بتدوين مسوّدته الأولى. غير أنّ أمّه نصحته آنذاك بأن يضعه جانباً ريثما يختمر موضوعه قبل الشروع بعملٍ طموحٍ كهذا. في الأثناء استبدل عنوان العمل بعنوان آخر أربع مرّات، وحتّى عام 1918، لم يُحرز تقدّماً في صوغه. كَتَبَ جبران في رسالة إلى مي زيادة مؤرخة في 9 تشرين الثاني، قائلاً: «أمّا «النبيّ» فكتاب فكرت به منذ ألف سنة ولكنني لم أكتب فصلاً من فصوله حتّى أواخر السنة الغابرة». لكنّ الفنّان أولى هذا العمل غير المنجز اهتماماً لافتاً. إذ رأى أنّ هذا الكتاب هو «ولادته الثانية» و«معموديته الأولى». كما كتب ذات يوم إلى ماري هاسكل قائلاً: «إنّ «النبيّ» هو التحدّي الأكبر في حياتي. لقد عشت هذه السنوات الستّ والثلاثين الغابرة لكي يرى النور...» وقال في رسالة أخرى: «في الوقت الحاضر، كلّ كياني موجود في «النبي». ويجب أن يكون هو حياتي حتّى الفراغ من نشره. كلّ ما فعلته في السابق بات الآن ورائي؛ إذ لم يكن في الحقيقة سوى مرحلة تعلّم...» بين عامي 1919 و1923، كرّس جبران معظم أوقاته لإنجاز هذا العمل الذي كان يصفه بالجوهري. والتقى ماري هاسكل مراراً في بوسطن ونيويورك وكامبردج، لكي يدقّقا سوياً في صياغة النص وإجراء التصويبات التي تقترحها عليه: بدت ماري واثقة من حكمها الإيجابي على النص، الأمر الذي أشعر جبران بارتياح كبير. سنة 1923، ارتأى جبران أن النصّ بات جاهزاً للنشر فسلّم المخطوطة لناشره، ألفريد كنوبف، الذي كان ينتظره بفارغ الصبر. ثمّ صدر

الكتاب أخيراً في أيلول سنة 1923.

«النبيّ» أشبه بكتاب مقدّس. ذلك أن أسلوبه وبناءه ونبرته أقرب إلى أسلوب وبناء ونبرة «الكتاب المقدّس» (العهد القديم) على نحوٍ خاص، والأناجيل: إنّه عملٌ غنيّ بالصور الموحية، وبالأمثال، ونصّه بناءٌ من الجُمل أشبه بالآيات التي تتردّد في مطالعها عبارات بعينها: «الحق أقول لكم...» أو «أمّا أنا فأقول لكم...»، بالإضافة إلى استهلال الجمل بحرفي العطف والوصل «و» و «لأن» أو «ذلك أنّ» (فالأداة المستخدمة بالإنكليزية هي «For» التي تستخدم عادةً استهلالاً للعبارة وتضفي على النصّ قدراً أكبر من الرصانة)، وتوسّل المعجم الوارد في الكتاب المقدّس (الزوجة الخائنة، الآثم...)، واللجوء إلى صياغات استفهاميّة يُستفاد منها الإيجاب والتوكيد («أليس توبيخ الضمير هو نفسُه العدالة التي تتـوخّاها الشريعة التي تتظاهرون بخدمتها؟»)... مثل هذا ليس طارئاً على الإنشاء الجبراني، فكتاباته بين العامين 1905 و1908 كانت زاخرة بالتلميحات التوراتية والعبارات المقتبسة عن المزامير ونشيد الأناشيد وسِفْري الجامعة وأيوب، كما تظهر في «الأرواح المتمرّدة» إحالات صريحة إلى «العهد الجديد». كذلك الأمر يمكن للقارئ أن يتبيّـن في «السابق» إحالات إلى التوراة، كصورة الخبز والنبيذ على سبيل المثال، أو بعض التعبيرات مِثل: «على الأرض كما في السماء» و«الحقّ الحقّ أقول لكم...».

هذا وقد أشار كثيرون أيضاً إلى صلةٍ ما من القرابة بين «النبيّ» و«هكذا تكلّم زرادشت» لنيتشه. بدايةً نقول إنّ جبران قد قرأ بالتأكيد، قبل تأليفه «النبيّ»، عملَ الفيلسوف الألماني الكبير الذي طالما أبدى إعجابه به. ففي 11 أيار 1911، كتب في إحدى رسائله إلى ماري: «أنا مسرور لأنك تقرئين «زرادشت». وكم أحتاج أن أقرأه معك بالإنكليزية». وفـي 30 آب 1913، قال في رسالة أخرى: «لقد نهل نيتشه عباراته من روحي. قطف ثمار الشجرة التي كنت أقصدها...» وعلى غرار نيتشه، اختار جبران أن يكون الناطق بلسانه حكيماً يتطرّق في مخاطبته الناس إلى مسائل مختلفة يوليها المؤلِّف اهتماماً خاصاً. في كتاب نيتشه، تستبدّ بزرادشت، بعد عشر سنوات من الاستعداد في عزلة الجبل، الرغبةُ في أن يجود بعسَلِ حكمته على

البشر، ويهبط قاصداً مدينته. وفي كتاب جبران يظلّ المصطفى اثنتي عشرة سنة مترقّباً عودة السفينة التي ستعود به إلى مسقط رأسه، ثمّ يهبط عن التلّة ليخاطب، قبل رحيله، رجال ونساء بلاده. قد تبدو الموضوعات التي يتطرّق إليها «النبيّان» متشابهةً أحياناً: الزواج، الأبناء، الصداقة، العطاء، الحريّة، الجريمة، الموت... كما قد تتردّد في العملين بعض الصور كالقوس والسهم، والتائه، والراقص، والأيل. غير أن أوجه التقارب لا تتعدّى هذا الحدّ: ففيما تبدو الكتابة النيتشوية، بحسب بعض النقّاد، مثقلةً بنزوع رمزيّ طاغ وميلٍ إلى فخامة الفصاحة، يبدو «نبيّ» جبران هوائياً، صافياً، مفرطاً في بساطته، مفعماً بنَفَس شرقيّ لا ينضب. جبران نفسه كان يقول إنّ نيتشه يمتلك حسّاً تحليلياً. والحسّ التحليلي يُفرط عادةً في الكلام. أمّا على مستوى الأفكار، فيبدو الاختلاف هو الغالب لا الشبَه: فبينما يعلن نيتشه موتَ الله («مات جميع الآلهة، وما نصبو إليه في الوقت الحاضر هو أن يحيا الإنسان الخارق»)، يُرجع جبران كلّ شيء إلى الله؛ وفيما يدعو نيتشه إلى تحوّلٍ في القيم قاطبةً كيما ينوب الإنسان الخارق عن البشرية المنحطّة، يختار جبران دعوَتَنا لأن نصبو إلى «ذاتٍ عملاقة» مشرّعين قلوبنا لاستقبال الحبّ، كما يدعونا إلى انطلاقةٍ زاهدةٍ باتجاه العالم الكامل. لا أثرَ لدى جبران لنزوع عدميّ nihilisme، فـ«النبيّ» كتاب تفاؤل ورجاء؛ مثل هذا الأمر قد يدعونا إلى العجَب خاصّة أنّ كاتبه هو صاحب الرسائل الزاخرة بتلميحات متكرّرة إلى ضيقِه بالحياة، وإلى مشاكله الصحيّة والمالية. «أمّا نحن، فإننا نبحث عن طيف الرجاء»، يقول في «البدائع والطرائف». كما أن نيتشه أقرب إلى الفلسفة - وإن وصفت هذه الفلسفة بـ«الغنائية» - من جبران الذي لم يدّعِ يوماً صوغَ أفكاره في منظومة فكريّة بحسب ما يؤكده، هو نفسه، في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل مؤرخة في شهر أيلول 1914: «أنا لا أفسّر ولا أجادل. الأشياء تقال ببساطة وبقوّة. فالتحليل يجرّد النصّ من الحياة والمذاق». وأخيراً نقول إنّ السياسة تحتلّ مكانةً بارزة لدى نيتشه الذي يدعو، في «هكذا تكلّم زرادشت»، إلى نظام اجتماعي ذي طابع أرستقراطيّ جائر وصريح العداء للدولة، فيما السياسة غائبة تماماً عن كتاب جبران.

وجه قرابة آخر يستحق التوقّف عنده أخيراً: ذلك أن أوّل ما يتبادر إلى ذهن قارئ «النبيّ» هو «سيدهارتا» لهرمان هِسِّه Hermann Hesse الصادر سنة 1922. ينذّد هِسّه في كتابه الذي تدور أحداثه في الهند التي أعاد خلق أجوائها بروعة، بعالم القوّة والمال، عبر صياغةٍ مقتضبة تتخلّلها حواراتٌ يمتدح فيها حياة التأمّل: «رويداً كان ينمو وينضج في روعِ سيدهارتا المفهوم الدقيق لما تكون عليه الحكمة بالفعل. لم يكن ذلك، في آخر الأَمر، سوى استعداد فطري راسخٌ في النفس، وقدرة، وفنّ خفيّ كان قوامه التماهي، في كلّ لحظة من لحظات الحياة، مع فكرة الوحدانية، والإحساس بهذه الوحدانية في كلّ مكان، والتشبّع منها كما تتشبّعُ الرئتان من الهواء عند التنفّس». عبارات هِسّه هذه ليست غريبة عن أجواء الصياغة الجبرانية. «لا يعنيني شيء سوى أن أمتلك القدرة على محبّة العالم، وألاّ أزدريه، وألاّ أمقته البتّة وألاّ أمقت نفسي، وأن أكون قادراً على الجمع في كنف محبّتي، في كنف إعجابي واحترامي، جميع كائنات الأرض ولا أستبعد نفسي»: هذه العبارات التي ينطق بها سيدهارتا مماثلة لما ينطق به المصطفى!

كان مأخذ البعض على «النبيّ» أنّه كتابٌ سطحيّ، تبسيطيّ، مفعمٌ بالمشاعر المتكلّفة، وزاخرٌ بالمعاني المبتذلة الشائعة. غير أنّ هذا المأخذ لا يستقيمُ، مما يفسّر ما حقّقه الكتاب من نجاحٍ منقطع النظير. أسلوب «النبيّ» سلسٌ، عذب. من خلاله يبلغنا جبران، وبمنتهى الشاعريّة، رسالةً روحانية تدعو إلى تفتّح أكبر وإلى «تعطّش أعمق للحياة». في الطبعة الأصلية – الإنكليزية –، يُفْتَنُ القارئ بالإيقاع الذي ينتظمُ الآيات الجبرانية، والذي تعجز الترجمات عن الوفاء به مهما توخّت الدقّة والبراعة:

"Say not, "I have found the truth, but rather, "I found a truth."
Say not, "I have found the path of the soul". Say rather, "I have met the soul walking upon my path."

For the soul walks upon all paths.

The soul walks not upon a line, neither does it grow like a reed.

The soul unfolds itself, like a lotus of countless petals"(1).

في «النبيّ» قد يرى القارئ أنّ معنى المجاز والأمثال والرموز خفيٌّ لكنّه ليس مبهماً بأية حال: ينقّبُ القارئ عن «اللبّ الجوهري» ويتمثّله كما يحلو له. لا يتعمّد جبران، على الرغم من النبرة الواعظة التي وُضِعت على لسان المصطفى، أن يُثبِّتَ حقائقَ مجرّدة: إذ ينبغي أن يُترَك للقارئ «احتمال أن تكون كلمته هو هي الكلمة الفصل فيما يقرأ»، كتب جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل. «أنا أفضّل الحقيقة الخفية على الحقيقة الظاهرة»، قال أيضاً في إحدى رسائله إلى مي زيادة. وبهذا المعنى تنبّه الشخصيّة الرئيسية في كتاب «النبيّ» جمهرةَ المريدين إلى الحقيقة الآتية:

«وإن جاءت كلماتي هذه غامضةً على أفهامكم فلا تسعوا وراء إيضاحها. فإنّ الغموض والسديم هما بداءة كلّ شيء لا نهايته.
وإنني بملء الرغبة أودّ أن تتذكروني كبداءة».

الحقيقة أنّه ينبغي للراغب في قراءة جبران قراءةً صحيحة، أن يمتلكَ ما يسمّيه، هو، بـ«العين الثالثة» أو الأحرى «عين العين»؛ عين القلب التي تتيحُ سَبرَ الغموض، والتي هي «رؤيةٌ، ورؤيا، وفهمٌ متميّز للأشياء الأعمق من الأعماق،

(1) في ترجمة الأرشمندريت أنطونيوس بشير الذائعة نقرأ هذا المقطع على النحو الآتي:
«ولا تقل في ذاتك: «قد وجدتُ الحقّ» بل قُل بالأحرى: «قد وجدتُ حقّاً».
«ولا تقل: «قد وجدت طريق النفس»، بل قل بالأولى: «قد رأيت النفس تمشي على طريقي».
لأن النفس تمشي على جميع المسالك والطرق.
النفس لا تمشي على حبلٍ أو خيط، كلاّ ولا هي تنمو كالقصبة.
النفس تطوي ذاتها، كالبَشنين ذي البتلات التي لا يُحصى عديدُها».

الأسمى من أي علوّ شاهق».

لكن بماذا ينبئنا «النبيّ» مما لا نعرفه مسبَقاً؟ قبل مغادرته قاصداً «أرض تذكاراته»، يجيب النبيّ المصطفى عن الأسئلة التي يطرحها عليه أهل المدينة البسطاء (المحبّون، الآباء والأمّهات، الكُهّان القضاة، التجار...)، وخاصةً العرّافة، المِطْرَة، التي استلهمت شخصيّتها على الأرجح من الإلهة الفارسيّة «ميثرا»، رمز النور، صلة الوصل بين البشر والإله الأعظم. وبمثابة وصيّة، يلقي عليهم دروساً في الحياة، ووصايا زاخرةً بالحكمة. عن المحبّة، يخاطبهم النبيّ قائلاً:

«المحبّة لا تملك شيئاً، ولا تريد أن يملكها أحد:
لأنّ المحبّة مكتفية بالمحبّة.
أمّا أنتَ إذا أحببتَ فلا تقل: «إنّ الله في قلبي»، بل قل الأحرى: «أنا في قلبِ الله».
ولا يخطر لك البتّة أنّك تستطيع أن تتسلّط على مسالك المحبّة، لأن المحبّة إن رأت فيكَ استحقاقاً لنعمتها، تتسلّط هي على مسالكك».

وإذ يؤتى على ذكر الزواج، ينطق بهذه العبارات التي تنمّ عن قدرٍ هائلٍ من الانفتاح وسعة الأفق والتي يردّدها كلّ عام آلافٌ من الأزواج لمناسبة عقد قرانهم:

«أجل، وستكونون معاً حتّى في سكون تذكارات الله.
ولكن فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض، حتّى ترقص أرياح السموات فيما بينكم.
أحبّوا بعضكم بعضاً؛ ولكن لا تقيّدوا المحبّة بالقيود، بل لتكن المحبّة بحراً متموّجاً بين شواطئ نفوسكم (...)
قفوا معاً ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً: لأن عمودَي الهيكل يقفان منفصلين،

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظلّ رفيقتها».

وعن الأبناء، يقول المصطفى:

«إنّ أولادكم ليسوا أولاداً لكم.
إنّهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.
ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.
أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبّتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصّة بهم.
وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم.
ولكنّ نفوسهم لا تقطن مساكنكم.
فهي تقطن في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا في أحلامكم.
وأن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم.
ولكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم.
لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس.
أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم.
فإنّ رامي السهام ينظر العلامةَ المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعةً بعيدةَ المدى.
لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرّة والغبطة.
لأنه كما يحبّ السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحبّ القوس التي تثبت بين يديه».

هذا النصّ اللافت بجرأة أفكاره وبساطة أسلوبه ذاع صيته وطارت شهرته في العالم أجمع... وعن العمَل، لا يسلك جبران الدروبَ المطروقة. فيقول عن لسان نبيّه:

«وقد ورثتم عن جدودكم القول إنّ الحياة ظلمة، فرحتم في عهد مشقّتكم تردّدون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون.
فالحق أقول لكم إنّ الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكةً إذا لم ترافقها الحركة.
والحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة.
والمعرفة تكون عقيمة إن لم يرافقها العمل.
والعمل يكون باطلاً وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبّة، لأنكم إذا اشتغلتم بمحبّة فإنما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض، ويرتبط كلّ واحد منكم بربّه».

على نحوٍ مماثل يؤكّد أنّ «الحياة والموت واحد، كما أنّ النهر والبحر واحد أيضاً»، ويرى جبران، بشأن الفرح والترح، أنّهما مفهومان متكاملان متمازجان – وهي فكرة تتكرّر في مَثَل الصيّادين في كتابه «التائه»:

«إنّ فرحكم هو ترحكم ساخراً.
والبئر الواحدة التي تسقون منها ماء ضحككم قد طالما مُلئت بسخين دموعكم.
وهل في الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال؟
فكلّما أعملَ وحشُ الحزن أنيابه في أجسادكم، تضاعف الفرح في أعماق قلوبكم».

وعلى النحو ذاته يرى أن «الشرّ هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطّشِه ومجاعته». وبشأن الجريمة والعقاب، يصرّح جبران بأنّ «الرجل المنتصب والرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهية». ذلك أنّ كلّ شيء في كلّ شيء، ودأب الإنسان أن يوازنَ ما بين الأشياء (صورة الميزان تتردّد مراراً في نصوصه، لا بل كان موضوع رسمٍ نفّذه وأسماه: «ميزان المطلق») وإيجاد التناغم فيما بينها، والتوفيق ومعاودة

التوفيق بين المتضادات، والسعي وراء الوحدة. أليس هو من يدعو، على لسان النبيّ، إلى تحويل تنافر العناصر المتنوّعة وتناحرها إلى وحدةٍ وتناغم؟

أمّا في تطرّقه إلى الحريّة فقد كان متوقّعاً من النبيّ أن يمتدحها. غير أنّه يؤثر تمييز خطابه عنها ويحذّر من قيود الحرية، معتبراً إياها وسيلةً لا غايةً في حدّ ذاتها:

«قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة وإلى جوانب المواقد تعبدون حرّيتكم.
وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذلّلون أمام سيّدهم العَسوف الجبار يمدحونه وينشدون له وهو يعمل السيف في رقابهم.
نعم، وفي غابة الهيكل، وظلّ القلعة، كثيراً ما رأيت أشدّكم حريةً يحمل حرّيته كنيرٍ ثقيلٍ لعنقه وغلّ متين ليديه ورجليه.
رأيتُ كلّ ذلك فذاب قلبي في أعماق صدري، ونزفت دماؤه، لأنكم لا تستطيعون أن تصيروا أحراراً حتّى تتحول رغبتكم في السعي وراء الحرية إلى سلاح تتسلحون به، وتنقطعوا عن التحدّث بالحرية كغايتكم ومحجّتكم».

وعن الألم، يذكّر جبران بعبارة بودلير الذائعة: «مبارك أنت يا إلهي يا مَن يمُنَّ علينا بالألمِ بلسماً ربّانياً لنجاساتنا» :

«وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة.
لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم، وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي. وتناولوا جرعته المرّة بسكينة وطمأنينة.
لأن يمينه وإن بدت ثقيلة قاسية، فهي مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة.
والكأس التي يقدّمها إليكم، وإن أحرقت شفاهكم، فهي مصنوعةٌ من الطين الذي جبلته يدا الفخّاريّ الأزلي بدموعه المقدّسة».

أمّا بشأن المعرفة فيبدي جبران انفتاحاً ملحوظاً، وذلك باعتباره «الذات» «بحراً لا وزنَ ولا قياسَ له». وإذ يؤتى على ذكر الموت، ينطق المصطفى بعباراتٍ آسِرةٍ:

«وهل موت الإنسان هو أكثر من وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس؟
أم هل انقطاع التنفّس غير تحرير النّفس من دورانه المتواصل، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلّق في الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد ولا عائق؟
إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتّى تشربوا من نهر الصمت.
ولن تقدروا أن ترقصوا حتّى تتسلم الأرض جميع أعضائكم».

وفي الختام، إذ يوشك المصطفى على ركوب السفينة، يخاطب أتباعه بلغةٍ مفعمة بالرجاء، ويدعوهم إلى الإيمان بأنفسهم:

«إنكم لستم محصورين في سجون أجسادكم، كلاّ، ولستم مقيّدين بجدران بيوتكم وحدود حقولكم.
فإنّ الذات الخفية التي تمثّل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح...
هي روح حرّة طليقة تغلف الأرضَ وتركب دقائق الأثير».

***

سنة 1931، وصف جبران «النبيّ» بقوله إنّ إنجاز هذا الكتاب الصغير استغرقَ حياته بأكملها؛ وإنه حَرصَ على أن تكون كلّ كلمة فيه هي حقاً أفضلَ ما يستطيع أن يقدّمه إلى القارئ. ولم تذهب جهود جبران عبثاً: فبمضي خمسة وسبعين عاماً على وفاته، ما زال ملايين القرّاء يقبلون، سنوياً، على قراءة «النبي». فما سرّ هذا الكتاب؟ لا شك في أنّه يوفّر أجوبةً مقنعة لأناس يبحثون عن تجربة روحيّة ما ولا يهتدون إليها – أو لا يعرفون كيف يهتدون إليها – سواء في المجتمع العصريّ

الذي أفسدته النزعات الماديّة والسطحيّة والقلق، أو في الأديـان التي استحالت هياكل مؤسّسية. استطاع جبران أن يضع حكمةَ الأديان جميعها، مكثّفةً، في كتيّبٍ ذي رسالة كونية جامعة. لم يكن منتمياً إلى مدرسةٍ بعينها، فقد كان يمقت «العقائد الجامدة». كانت العقيدة الوحيدة التي تستحقّ الدفاع عنها، في نظره، هي عقيدة الحياة. ذات يوم، قال جبران لبرباره يونغ: «*I am a life-ist...*» ؛ كان داعية حياة - ما دامت الحياة «هي الرجاء نفسه»!

-14-

«الذات المجنّحة»

في جميع أعماله، وفي كتابه «النبيّ» على نحوٍ خاص، لا يكفّ جبران عن ذكر الله: فهو «القادر»، «حارس الليل»، «الشجرة السماوية»، «رامي السهم»، «الفخّاري»، «الروح السيّد على الأرض»... كلّ شيء يتجه إليه: الصلاة، المحبّة، الشغف، الموت، العطاء، العمل... ومع ذلك هل يجوز لنا أن نحذو حذوَ برباره يونغ فنؤكّد بأنّ جبران كان «صوفيّاً مسيحياً»؟[1] لا ريبَ في أنّ جبران المسيحي الماروني الذي ترعرع في كنفِ أمّ مؤمنة ومحافظة، وتربّى على يد الأب سمعان، ثمّ على يد رهبان معهد الحكمة، كان يمتلك معرفةً عميقة بالديانة المسيحية والكتاب المقدّس الذي ما زالت نسخة منه محفوظة في مكتبته في متحف بشرّي. غير أنّ هذه المعرفة لم تكن مصحوبة يوماً باحترام الكنيسة. لماذا؟ لأنّ سلوك بعض رجال الدين - تسلّطهم الجائر؛ ثراؤهم في زمن المجاعة - كان يثير حنقه، هذا بالإضافة إلى تأثّره البالغ بكلٍّ من وليم بلايك الذي كان يرى أن «الرهبان يقيّدون المباهجَ والرغبات بحبالِ الشوكِ»، وأمين الريحاني الذي كان يدعو إلى التسامح الديني وإلى «جعل الإيمان مسألة شخصيّة» بين المؤمن وربّه، والذي أصدر عام 1911 في نيويورك، روايته المعادية لرجال الدين «كتاب خالد»؛ لذلك عمد جبران، في معظم أعماله الأولى، إلى استهداف رجال الدين بسهامه، كما فعل في «يوحنا المجنون» (ضمن مجموعة «عرائس المروج») أو «خليل الكافر» (ضمن «الأرواح المتمرّدة»)؛ فهؤلاء «باعة صلواتٍ» ومن يرفض الشراء يُرمى بالإلحاد والكُفر، ويُحجَبُ عنه الفردوس.

[1] برباره يونغ، المرجع المذكور، ص 94.

يقيم جبران مقارنةً بين عطف المسيح وتفانيه وبين ضغينة الكهنة وصغارتهم، ولا يتوانى في «الأجنحة المتكسّرة» عن تشبيه الأساقفة بـ«أفاعي البحر».

أي إله ذاك الذي يؤمن به جبران؟ إله جبران هو إله خاصّ به. إذ تنهل نزعته الصوفية من مناهل وتأثيرات تتقاطع فيما بينها: المسيحيّة، الإسلام، التصوّف الإسلامي، ديانات الهند الكبرى، النزعة الباطنية، التيوصوفيا، وعلم النفس اليونغي (نسبةً إلى يونغ Jung)... وتجد أصداءً لها في أعمال نيتشه وبلايك وجيد وماترلنك ورينان وأمرسون ووالت ويتمان الذي كان يعرفه جيّداً، وكذلك هِسّه الذي قرأ أعماله على الأرجح. جبران المولود في لبنان الذي يمثّل، برغم الرياح المعاكسة، أرض توافق الأديان، ورسالةً للتعايش، و«وعداً بسلام مسكوني»، بحسب عبارة الشاعر صلاح ستيتيه، جبران الرافض للتعصّب والطائفيّة، استقى قناعته هذه من خلاصة الرسالات الدينية مجتمعةً، مجرّدةً من أي جمود عقائدي. إذ من البديهي ألاّ يكون قادراً، وهو القائل إنّ الدين إيمان فطريّ لدى الإنسان، على التقوقع داخل حدود إحدى الديانات التوحيديّة الكبرى الثلاث. أليس هو القائل: «وتقـول فكرتكـم: «الموسوية، البرهمانية، البوذية، المسيحيّة، الإسلام». أما فكرتي فتقول: «ليس هناك سوى دين واحد مجرّد مطلق تعدّدت مظاهره وظلّ مجرّداً، وتشعّبت سُبُلُه ولكن مثلما تتفرّع الأصابع من الكفّ الواحدة». وفي موضع آخر هذه العبارات الآسرة: «أنت أخي وأنا أحبّك، أحبّك ساجداً في جامعك، وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك، فأنتَ وأنا ابنا دين واحد هو الروح، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس». وبالفعل، كما يذهب أستاذ الفلسفة جاد حاتم في تحليله لـ«إرم ذات العماد»، «إنّ صوفية جبران هي صوفية ميتا-دينيّة، بمعنى أنّ الأشخاص يحاولون تخطّي وجهات النظر الاختزالية لهذا الدين أو ذاك لبلوغ ما هو مشترك فيها». فكيف نعجب عندئذ أن تحمل لوحة لجبران تعود إلى سنة 1918 العنوان الآتي: «مصلوب على برج الإنسانية والديانات»، وفيها يجمع بين المسيح وبوذا وكبار حكماء الإنسانية؟

لا يُعقَل في نظر جبران أن يُختزَل الإنسان بما هو عليه. إذ ينبغي له أن يتفوّق

على نفسِه، وأن يسير بشوق نحو ذاته الربّانية، وأن يصبو إلى بلوغ الوحدة الجامعة (الكونية) حيث يتوحّد كلّ شيء مجدداً في نشيد فريد وكلّي: هذه الوحدة ليست سوى الله. وهكذا بعد أن تسلك الذات الدربَ المفضي إلى الله، تمتزج به. «الإنسان هو إله ينهض في تمهّل». يقول جبران في كتابه «آلهة الأرض». وفي 30 كانون الثاني 1916، يحاول في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل أن يوضح فكرته: «الله يشتاق لأن يغدو الإنسان والأرض على مثالِه وحفنةً منه. الله ينمو من خلال شوقه، ويصبو الإنسان والأرض وكلّ ما عليها إلى الله بقوة الشوق».

إله جبران ماثلٌ في البشريّة. وهو ماثلٌ أيضاً في الطبيعة. وعلى هذا النحو يمكن القول إنّ أعمال جبران كلّها مُكتنفة بمناخِ الحلوليّة. لوحاته ونصوصه تردّنا باستمرار إلى الأمّ/ الطبيعة: «امرأة تكتشفُ الطبيعة»، «المرأة في تناغم الطبيعة»، «روح الأم متجسّدةً في الطبيعة»... كلُّها لوحات تعكس على أكمل وجه أفكار الفنّان الذي يختار «السنتور» Centaure رمزاً لأمومة الطبيعة («طبيعة أنثوية وامرأة»؛ «طبيعة حانية على الإنسان، وابنه»...) وكصورة لطبيعة الإنسان المزدوجة: إحداهما حيوانية، والأخرى إلهية... «الطبيعة ليست سوى هيئة الله، يقول جبران. والله هو ما أنشده، وما أصبو لفهمه». ويتخذ الجمال لديه بعداً ميتافيزيقياً: إنه كيان سام يوفّر للإنسان معنى الحقّ؛ إنّه التعبير المحسوس عن غير المنظور[1]: «يا أيّها الّذين حاروا في سبيل الأديان المتشعّبة وهاموا في أودية الاعتقادات المتباينة... اتخذوا الجمال ديناً... فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتاج المعقولات».

يرى جبران أنّ الله بداهة؛ والطبيعة هي التعبير المحسوس لله الماثل وراء كلّ المتجليات الظاهرة. الكائنات لا توجد إلاّ به. وكلّ اتصال به يتمّ عبر الطبيعة التي تغدو وسيلة تجربة صوفية حيث تفيض الذات، من خلال الأشجار والأنهار والنور، متخطيةً الحدود التي تفصلها عن «الكلّ» لكي تنصهر بكليّة الوجود في

(1) Najib Zakka, «La métaphysique de Gibran» in *Littérature libanaise contemporaine*, USEK, 2000، ص 428–430.

شعورٍ بالوحدة[1]:

«كلّ ما في الوجود كائن في باطنك، وكلّ ما في باطنك موجود في الوجود. وليس هناك من حدّ فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أعظمها. ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار، وفي ذرّة واحدة جميع عناصر الأرض. وفـي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في العالم من الحركات والأنظمة».

تبدو هذه النظرة للأمور مغرية. وهي تتطابق تماماً مع تعريف الحلولية بحسب ألان Alain كما ورد في كتابه «الفنون والآلهة» : «إنها ديانة الطبيعة التي تقدّس كلّ قواها [...] والتي تعتبر عندئذ تجلياتٍ لإله وحيد هو العالم. الحلولية تعني، في وقتٍ معاً، أن كلّ شيء (على حدةٍ) هو الله وأن الكلّ هو الله...» ويذكّر بهذه الأبيات للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي:

«لِمَ لا تشاء أن
ينضَمّ الجزء إلى الكلّ
الشعاع إلى النور؟
في قلبي، أحتوي الكون،
ومن حولي، العالم يحتويني»[2].

وثمة مقطع في «المجنون» يؤكّد هذا الفهم القائل إنّ الله قد يكون ماثلاً في تجليات الحياة كلّها: إذ يمْثُلُ الراوي أمام الله ويناديه قائلاً إنّه «عبده». فلا يجيبه الله. يناديه مجدداً قائلاً إنّه «جبلّة يديه»: وإذا بالله «يجتازه عابراً». بمضيّ ألف عام يعاود العبدُ الكرّة ويمثُلُ أمامه ثمّ يناديه قائلاً إنّه «ابنه». فيتوارى الله عن عينيه.

(1) Souad Kharrat, *Gibran le prophète, Nietzsche le visionnaire*, Triptyque, 1993, ص 90.

(2) ورد في شفاليه، المرجع المذكور، ص 64.

يعاود الراوي الكرّة بعد ألف عام، يصعد الجبل المقدّس ويخاطب الله بالعبارات الآتية:

«يا إلهي العظيم الحكيم العليم، يا كمالي ومحجّتي، أنا أمسك وأنت غدي. أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس».

إذ ذاك يعطف الله عليه:

«فعطف الله إذ ذاك عليّ وانحنى فوقي وهمس في أذني كلماتٍ تذوب رقّة وحلاوة، وكما يطوي البحر جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه.
وعندما انحدرتُ إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً».

على العتبة بين النزعة الحلولية الطبيعيّة والنزعة الإنسانية التأليهية، يلخّص هذا النص فكرة مؤلفه على أحسن وجه. هنا الله والإنسان يتحدان؛ ويظهر الله كمكمّلٍ للإنسان، و«غده» و«his winged self» أي «ذاته المجنّحة».
وفي سياق هذه الأفكار ذاتها، يثبتُ جبران في «النبيّ» على لسان المصطفى هذه الأقوال المعبّرة:

«وإن شئتم أن تعرفوا ربّكم فلا تعنوا بحلّ الأحاجي والألغاز.
بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم.
وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب، ويبسط ذراعيه في البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار.
تأملوا جيداً تورا ربّكم يبتسم بثغور الأزهار، ثمّ ينهض ويحرّك يديه بالأشجار».

وفي «حديقة النبيّ» يقول عن لسان المصطفى:

«وكان بودّي أن تعرفوا، مع ذلك، أننا عبق الله وأريج طيبه، نحن الله في الورقة، في الزهرة، وأغلب الأحيان في الثمرة».

فكرة الحلول تفضي بجبران إلى التناسخ. وعلى الرغم من أنه لا يستخدم هذه العبارة، فهو يؤمن «بديمومة الحياة». ومستلهماً النظرية الهندوسية حول تجسّد النفس في مراحل تطهرية حتّى الحلول النهائي في المطلق، يتبنّى جبران، بوصفها مفتاح بقاء النفس، فكرةَ العود الأبدي[1]: «ولا تنسوا أنني سآتي إليكم مرّة أخرى. يقول في «النبيّ». فلن يمرّ زمن قليل حتّى يشرع حنيني في جمع الطين والزبد لجسد آخر. قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني. لأنّ امرأة أخرى ستلدني».

وفي رسالة إلى ماري هاسكل مؤرخة في 8 حزيران 1924، يقول:

«في أعماق نفسي ثمة تجارب شخصيّة عديدة تؤكّد بأنني عشتُ في الماضي أكثر من مرّة. وأنا واثق كلّ الثقة من أنني عرفتك قبل الآن، قبل آلاف السنين».

ما مصدر هذه الفكرة؟ لعلّ مصدرها هو الألم الناجم عن فَقـدِه حبّه الأول، سلطانة ثابت، ثمّ فقده على التوالي كلاًّ من شقيقته، وأخيه غير الشقيق، وأمه وأبيه، إذ يحدوه الأمل في أنهم سيحيون مجدداً. ذلك أنّ التناسخ (التقمّص) الراسخ في معتقدات طائفتين دينيتين في لبنان وسوريا، هما طائفة الدروز وطائفة العلويين، يشكّل وسيلةً متوهّمة لاجتناب قلق الموت ويمنح العزاء بحياةٍ جديدة، ببقاء، بـ«عود أبديّ»... بالإضافة إلى تأثير نيتشه وبعض أصدقائه أمثال ميخائيل نعيمة وشارلوت تيلر، وهي من اتباع التيوصوفيا، الذين كانوا يشاطرونه هذه الفكرة، فضلاً عمّا تنطوي عليه هذه النظرية المساواتية من وعدٍ للمحرومين بـ«ثأر» اجتماعي ما دام أغنياء اليوم بحسبها سيكونون هم الفقراء، وفقراء اليوم هم الأغنياء. هذه الموضوعة الحاضرة بقوة في أعمال جبران، يعبّر عنها بشـاعرية فائقة في «البدائع

---

(1) في J. Head & S.L. Cranston: *Le Livre de la réincarnation*، يرد ذكر جبران في عداد المؤلفين الذين مالوا إلى الإقرار أو أقرّوا فعلاً بأنهم يؤمنون – أو يأملون – بالتناسخ.

والطرائف» :

«يا نفسُ ما العيشُ سوى ليلٍ إذا جنّ انتهى
بالفجر، والفجر يـدوم...
يا نفس إن قالَ الجهول الروح كالجسم تزول
وما يــزول لا يــعود
قولي له إنّ الزهور تمضي ولكنّ البذور
تبقى وذا كـــنه الخلود»

أين يسوع من كلّ هذا؟ جبران يؤمن بأنّ يسوع الناصري ليس هو يسوع النصارى:

«مرّة في كلّ مائة سنة يلتقي يسوع الناصري بيسوع النصارى في حديقة بين جبال لبنان، فيتحادثان طويلاً، وفي كلّ مرّة ينصرف يسوع الناصريّ وهو يقول ليسوع النصارى: أخشى يا صاحبي أننا لن نتفق أبداً».

قد يكون المصطفى في كتاب «النبيّ» هو ظلّ المسيح: ألا تصوّر اللوحة التي زيّنت غلاف الطبعة الإنكليزيّة الأولى للكتاب، والتي كانت لها مكانة خاصّة في نفسِ جبران، وجه المسيح؟ وفي كتاب «حديقة النبيّ»، وهو تتمّة «النبيّ»، يقيم المصطفى أربعين يوماً في عزلةٍ تامّة كما أقام يسوع في الصحراء عَقِب العَماد؛ فيما مريدوه التسعة يذكّرون بالرسل الاثني عشر؛ وأمّا أيّام الوحدة السبعة الأخيرة فتذكّر بليلة جبل الزيتون... في كتاب «يسوع ابن الإنسان» يتطرّق جبران مباشرةً إلى موضوعة المسيح الذي كان صديقه فريد هولاند داي يستلهمه في صورِه والذي غالباً ما كان يراه، هو، في أحلامه. مستلهماً، بهذا القدر أو ذاك، «حياة يسوع» لإرنست رينان حيث يوصف المسيح بأنه «الإنسان الذي خطا بالجنسِ البشري الخطوة الأعظم نحو الإلهي»، يصرّ جبران على الطبيعة البشريّة ليسوع:

«فهو لم يكن إلهاً، بل كان إنساناً مثلنا، ولكن فيه نهض مرّ الأرض ليلاقي لبان السماء، وفي كلماته تعانقت تمتمتنا مع همس غير المنظور، وفي صوته سمعنا أنشودة لا يسبر غورها.
نعم، كان يسوع إنساناً ولم يكن إلهاً. وفي هذا منتهى عجبنا ودهشتنا».

وفي موضع آخر يقول:

«إنكم تودّون بلا شكّ أن تعلموا لماذا يدعوه فريق منا ابن الإنسان.
فهو نفسه قد رغب في أن نسمّيه بهذا الاسم، لأنه عرف مجاعة الإنسان وعطشه؛ ورأى الإنسان يفتّش عن ذاته العظمى [...] إنّ يسوع الجليلي مقيم في قلبي، وهو الإنسان المتسامي على الناس، والشاعر الذي يصنع الشعراء من جميعنا، بل هو الروح التي تقرع على أبواب أرواحنا لنستيقظ وننهض ونخرج لملاقاة الحقيقة العارية الواثقة بنفسها».

كان جبران مفتوناً بمبادئ الحبّ والحريّة التي بشّر بها يسوع وبسلّم القيم الجديدة التي جلبها معه:

«لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفةً هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة المعوجة...
لم يجئ يسوع ليعلّم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الأكواخ الحقيرة، والمنازل الباردة المظلمة، بل جاء ليجعل قلبَ الإنسان هيكلاً ونفسه مذبحاً وعقله كاهناً».

يقرّ جبران بأنّ يسوع سرمديّ. غير أنه ليس سرمدياً لأنه إله، بل لأنه أجادَ سلوك الدرب الذي يؤدي إلى الإلهي. لقد بلغت الإنسانية، بفضل يسوع ومعه، تجلّيها الإلهي الأكمل. وباعتقاده هذا يكون جبران ممهّداً لما سيتضمّنه كتاب نيكوس كازنتزاكي «التجربة الأخيرة للمسيح»، حيث يصف لنا مسيحاً بشرياً

«يسير بلا غاية نحو الأعالي» لكي يفوز بخلاص البشرية، ويقبل، في ختام التجارب الطويلة، أن يتوحّد بالله. تتميّز أطروحة جبران عمّا تطرحه عقيدة الكنائس الكاثوليكية بأنها أطروحة تشكّك في وحدة الجوهر للابن مع الآب كما تغفل الفداء [خلاص البشر] وسرّ القربان المقدّس. ومع ذلك ليست أطروحة مُدانة: فجبران، الخبير بالكتاب المقدّس، يقدّر شخصيّة المسيح تقديراً عالياً وكتب بشأنه نصوصاً فاتنة بحيث يعزّ على منتقديه أن يروا فيه هرطوقياً أو «مشعوذاً» مُبتَذَلاً من مشعوذي العصر الجديد[1]. وبهذا المعنى لم تكن برباره يونغ مخطئة في ما ذهبت إليه حين قالت إنّ جبران «متصوفٌ مسيحيّ»، لقد كان كذلك بالفعل - ولكن على طريقته الخاصّة.

---

[1] من اللافت أن بعض رجال الدين تطرّقوا إلى أعمال جبران وأبدوا إهتماماً كبيراً بأفكاره، نذكر منهم الآباء يوحنّا قمير وخليل شلفون، بالإضافة إلى الأخت سعاد خرّاط.

-15-

«دعوني أنَـمْ...»

كان استقبال الصحافة لكتّاب «النبيّ» حارّاً بمجمله. ما أشعر جبران بارتياحٍ كبير، لاسيّما أن كتابه السابق، «البدائع والطرائف»، الصادر في القاهرة سنة 1923، والذي ضمّ عدداً من مقالاته العربية - مقالات افتتاحية ذات طابع سياسي واجتماعي (من بينها مقالته الشهيرة «لكم لبنانكم...»)، وعدداً آخر من السير الأدبية المقتضبة والأمثال والحِكَم -، كان قد قوبل بانتقادات لاذعة وجّهها إليه الراهب اليسوعي لويس شيخو الذي لم يتوانَ عن وصفه بـ«الماسوني». فهل كان جبران ماسونياً، حقاً؟ ماذا عن توقيعه المكوّن من ثلاث نقاط داخل ثلاث دوائر متشابكة أو من دائرة مشتملة على الحرف «ك» (النقاط الثلاث تمثّل، في الماسونية، علامة الـ«دلتا»)؛ وماذا عن «العين الإلهية» (ترمز لدى الماسونيين إلى «المهندس الأعظم للكون») التي نصادفها في إحدى لوحاته المعنونة «العالم الربّاني»؟ وماذا عن الوسط المحيط بفريد هولاند داي، وخاصّة جماعة الـ«كاميرا كلوب» (نادي الكاميرا)، الذي يضمّ عدداً من الماسونيين وأتباع التيوصوفيا؟ و«الحلقة الذهبية» التي شكّلها على غرار محافل الماسونية؟ وصداقته لأمين الريحاني الذي كان ماسونياً...؟ ألا تشير هذه الدلائل إلى كونه منتمياً إلى الحركة الماسونية[1]؟ تبقى

---

[1] يزعم G. Figuié في كتابه الصادر حديثاً تحت عنوان *Le point sur la franc-maçonnerie au Liban* (الحقيقة حول الماسونية في لبنان)، أنّ جبران قد تعرّف إلى الحركة الماسونية في باريس في محفل باريسي، وأنه كان ينتمي إلى الحركة الماسونية الأميركية، وأنه كان عضواً في «محفل نيويورك» (ص 220). أنظر أيضاً، كتاب خليل خوري: جبران ونعيمة ماسونيان، بيروت، 2002.

هذه الدلائل غير مقنعة: كان جبران حريصاً على حرّيته الفكرية بحيث أنه نهل من المناهل كافّة. فمما لا شكّ فيه أن الأب شيخو كان يستهدف، باتهامِه ذاك، طابع «العداء للدين» الذي عبّرت عنه بعض أفكار جبران المغالية... علماً بأن أحد نصوص «البدائع والطرائف»، وهو تمثيلية من فصل واحد تحت عنوان «إرم ذات العماد»، يزخر بأجواء التأمّل الروحاني، وفيه يسرد قصّة كاتب شاب يُدعى نجيب رحمة، يسافر بحثاً عن آمنة العلوية، «جنيّة الأودية»، لكي يسألها عن المدينة الأسطورية «إرم» التي زارتها. فتعلّم آمنة الشابَ بأنه يحمل في ذاته الخلقَ بأسره وأن لا شيء يفنى على الإطلاق، وتشدّد على أهمية الإيمان والمخيّلة كمكمّلَين للمَلَكات العقلية:

«كلّ مكان وزمان حالة روحية. وكلّ المرئيات والمعقولات حالات روحية. فإن أغمضت عينيك ونظرت في أعماق أعماقك رأيت العالم بكليّاته وجزئياته...
كلّ ما في الوجود كائنٌ في باطنك وكلّ ما في باطنك موجود في الوجود...
ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار، وفي ذرة واحدة جميع عناصر الأرض...
إنّما الإيمان بالشيء المعرفة بالشيء. والمؤمن يرى ببصيرته الروحيّة ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون إدراكه بفكرتهم المقتبسة. المؤمن يختبر الحقائق القدسيّة بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافّة...».

إستقبلت صحيفة *Chicago Evening Post* «النبيّ» بآيات المديح: «كلمات جبران تستبقي في آذاننا إيقاع سفر الجامعة الجليل. خليل جبران لا يخشى النزوع المثالي في عصر تسوده روحية التهكّم... نوصي بهذه الفصول الثمانية والعشرين التي تؤلّف هذا «الكتاب المقدّس» الصغير، جميعَ الساعين، الآن أكثر من أي وقت مضى، وراء الحقيقة». وفي صحيفة *London Times*، رأى أحد الصحافيين أنّ العملَ المذكور «جَمعٌ لأفضل ما ينطوي عليه الفكر المسيحي والفكر البوذي».

وهكذا سرت الدعاية للكتاب بين الأفراد والجماعات: وراح الناس يقبلون على شراء نسخ منه. تلقّى جبران عدداً لا يُحصى من الدعوات، من بينها دعوة إلى دارة آل روزفلِت في «هركايمر» حيث تعرّف إلى فرانكلين، الرئيس العتيد للولايات المتحدة الأميركية. كما أتيح له أن يلتقي فنّانين مرموقين أمثال الكاتبين الإنكليزيين تشسترتون Chesterton وغلاسوورثي Glasworthy (الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام 1932)، والرسّام المكسيكي جوزِه كليمانتي أوروثكي Jose Clemente Orozco. ولم يلبث أن عرضت عليه عضوية الهيئة المشرفة على مجلّة New Orient Society الذائعة الصيت، والطامحة إلى التقريب بين الشرق والغرب «بحسّ الزمالة الفكرية والروحية»، والتي كان يشارك في تحريرها كلّ من (المهاتما) غاندي وبرتراند راسل Russell.

وأخيراً تحقّقت الشهرة لجبران. لكنّ الشهرة لم تبدّد ما كان يعانيه من مصاعب مالية: كان جبران قد وظّف أمواله في مشروع عقاري خاسر، فاضطرّ مجدداً إلى الاستعانة بماري لسدادِ ديونه. وفي رسالة وجّهها من بوسطن إلى صديقة[1]، أبدى انزعاجه الشديد لما جرى: «لو رأيتني يا هلّون في هذه الأيام الحارة أنتقل من مكتب محامي إلى مكتب تجاري إلى مجلس محكّمين متكلماً لغة ما تكلّمتها في ماضي حياتي - لو رأيتني في هذه الحالة لكنت عطوفة شفوقة».

كان جبران، وقد بلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، يستبدّ به الشعور بالوحدة ويؤرقه حنينه إلى الوطن؛ فكتب أنّه ذات يوم سيهرب عائداً إلى المشرق. حنينه إلى الوطن يكاد أن يقتله. ولولا القفص الذي بنى قضبانه بيديه، لغادَر على متن أوّل باخرة متجهةٍ إلى الشرق. ثم تساءل بحسرة عمّن يستطيع أن يغادر صرحاً قضى حياته وهو يصقل أحجاره ويبنيها ولو على هيئة سجن؟ فمن هذا شأنه لن يستطع ولن يرغب يوماً في التحرّر منه!

في رسالةٍ إلى فليكس فارس يُسرّ إليه قائلاً:

[1] رسالة غير منشورة إلى هيلانة غسطين (غير مؤرّخة).

«فلا بدّ من الرجوع إلى لبنان، لا بدّ من التملّص من هذه المدنية المتسلسلة بنور الشمس. على أنني أرى من الحكمة ألاّ أترك هذه البلاد حتّى أقطع الخيوط والسلاسل التي تربطني بها وما أكثر تلك السلاسل والخيوط.
إنني أريد أن أذهب إلى لبنان وأبقى ذاهباً».

في تلك الفترة الحرجة بالذات، برز وجهان نسائيان جديدان في حياة جبران: الأولى، هنرييتا باوتون، الشهيرة ببرباره يونغ، الناقدة الأدبية في الـ «نيويورك تايمز»، كانت تكبره أربعَة أعوام (أهو أمرٌ مفاجئ حقاً؟) وليس في مظهرها ما يجذب الرجال إطلاقاً. كان لها عدد من الكتابات المنشورة تحت أسماء مستعارة. غداة صدور «النبيّ» حضرت برباره يونغ أمسيةَ تليت خلالها بعض المقاطع منه بصوت الممثّل بتلر دافنبورت **Butler Davenport**، في حرم كنيسة «سانت ماركس إن ذا باوري «الأنغليكانية. وإذ فتنها العملُ كتبت رسالة إلى جبران تطلب فيها موعداً لمقابلته. فدعاها إلى منزله. وعلى الفور نشأت مودّة بينهما، بحيث أنّ برباره هذه بقيت طوال سبع سنوات سكرتيرة جبران المتفانية، مدوّنةً ثم طابعة على الآلة الكاتبة كلّ ما يمليه عليها، حافظةً أوراقه ومدبّرةً شؤون أعماله. بعد ماري أصبحت برباره هي ملاكه الحارس. ولكن من دون حبّ.

أما المرأة الثانية التي برزت في حياة جبران فهي هيلانة غسطين. كانت من أصل لبناني (من مواليد بزبدين، وهاجرت في عام 1917)، تجيد العربية على أحسن وجه، كما الإنكليزية والفرنسية، التي درستها في جامعة السوربون. إلى جانب مزاولتها التدريس[1]، كانت تكتبُ في جريدة «الهدى» الصادرة في نيويورك، لمؤسّسها الصحافي المرموق نعوم مكرزل، الذي كان أيضاً خالها. هيلانة المقرّبة من أوساط الإدارة الأميركية أنجزت مهمّة غامضة أثناء الحرب العالمية الثانية لصالح تلك الإدارة التي كافأتها بمنحها وسام تنويه. يبدو أن جبران التقاها للمرّة الأولى في

[1] إحدى الرسائل التي يوجّهها إليها جبران بتاريخ 12 كانون الثاني 1926، تحمل العنوان التالي: «Benjamin School, 145, Riverside Drive, New York City».

مكاتب جريدة «الهدى» التي كان يتردّد عليها خلال فترة الحرب العظمى[1]. من رسائله إليها لم يبقَ إلاّ القليل، وما بقِيَ منها لبِثَ إلى اليوم شبه مجهول، غير أنّها تكشف لنا الكثير عن طبيعة علاقتهما. أبدى جبران إعجاباً كبيراً بهيلانة التي كان يخاطبها تحبّباً بـ «هلّون»، وغالباً ما كان يطلب إليها الحضور إلى منزله:

«لقد استحسنتُ الصورتين جداً خصوصاً الصغرى... حبّذا لو كان بإمكاني مصادقة امرأة من لحم ودم وعظم تشابه هذه الصورة البديعة. لا بأس، سوف أجد تلك الصديقة، أو خيالها، في عالم الأرواح بين ثنايا الأبدية!
سوف أكون في منزلي في نيويورك مساء الأربعاء الواقع في 5 أيلول عند الثامنة. ولمّا كان لديّ بعض الأمور المهمّة التي أريد مخابرتك بشأنها رأيت أن أطلب إليك راجياً زيارتك إياي في ذلك المساء».

بمضيّ ثلاث سنوات، كتب إليها، مساء يوم أربعاء، من نيويورك التي كان وصلها للتوّ قادماً من بوسطن:

«ها قد رجعتُ إلى نيويورك ولم أزل ضعيفاً خائر القوى. ولكنني أرغب في مشاهدتك فحبّذا لو كتبت إليّ أو ناديتني بواسطة التلفون. أنا أعرف بقلبي أنك لا ترفضين زيارة رجل مريض مكسور الخاطر، حزين الروح. وأدعى شيء إلى رغبتي في مشاهدتك هو ميلي إلى إظهار شكري وامتناني لك بصورة شفاهية على كلّ ما أظهرته نحوي من العطف والمودّة والمعروف أثناء ثلاثة أعوام».

جبران الذي أنهكه المرض، وأرهقه «الحجّاج إلى صومعتِه» - بحسبِ برباره يونغ - الذين يعكّرون صفوَ حياته، وجد بقربِ هيلانة، ابنة بلده، الراحة

[1] جريدة الحياة اللندنية، الصادرة بتاريخ 12 نيسان 2001، التي تثبت شهادة ابرهيم ناصر سويدان في هيلانة.

والطمأنينة. وأدرك أنها موضع ثقة وقادرة على تحمّل المسؤولية: في رسالة إليها بتاريخ 6 كانون الثاني 1925، كتبَ يشكرها على هدية أرسلتها له لمناسبة عيد مولده: «أشكرك، أشكرك من صميم قلبي على هديتك... وأشكرك لأنّك ما برحت تذكرين يوم مولدي فتظهرين لي عطفك ومودّتك... في مثل اليوم من كلّ سنة أشعر بخضوعٍ في روحي أمام القوة العظمى التي شاءت فأوجدتني وأوقفتني أمام وجه الشمسِ ثمّ حبتني بالأصدقاء الوفيين المخلصين فأنسى جميع متاعبي وأنسى كآبة نفسي».

وفي رسالة بتاريخ 12 كانون الثاني 1926، كتبَ طالباً منها المساعدة في تنظيم احتفال تكريمي للأديب سليمان البستاني[1]، «تلك الروح الجميلة الكبيرة الطاهرة»، الذي توفي في نيويورك. وعندما كانت تبدي بدورها شيئاً من القنوط أو الإحباط، كان يؤنّبها بنبرةٍ أبوية: «أنت يا هيلانة ميّالة إلى الشكوى حينما لا يكون هناك من سبب إلى الشكوى فتتأففين من الظلام مع أنك جالسة في نور الشمس وتعاتبين الدهرَ والدهر من حلفائك».

ومن القصائد التي أرسلها إليها قصيدة مؤرّخة في 20 أيار 1923، عبّرت بوضوح عن حالته النفسية آنذاك: «دقّوا المسامير في كفّي فإنّ يدي/ مشلولة ليس يبريها سوى ألمي / وفي فؤادي أغان لا ألحنها / إلاّ إذا امتزجت لأنغامها بدمي».

وفي مطلع سنة 1926، نشر جبران لدى دار كنوبف كتاباً جديداً بالإنكليزية: «رمل وزبد»، الذي احتوى على 322 توقيعة كانت موزّعة على قصاصات ورق متفرّقة، عمدت بربارة إلى جمعها وتصنيفها، كما اشتمل على سبعٍ من لوحاته وعدد من الرسوم المصاحبة التي جُعِلَت فواصلَ بين مَثَلٍ ومَثَل. على غرار «قران السماء والجحيم» لبلايك، أو «منهل البسطاء» لماترلنك، يقترح الكتاب تأمّلاتٍ حول موضوعات شديدة التنوّع - الحب، الصداقة، الرغبة، الموت، الحرية... ويتكشّف أحياناً عن رؤية مانوية للعالم:

[1] كان الأديب والشاعر سليمان البستاني (1856-1925) وزيراً في الأستانة، وقد نال شهرة واسعة بتعريبه «إلياذة» هوميروس وبالمقدمة التي وضعها لها، فكانت نموذجاً للدراسة الأدبية ومقارنة الآداب.

«كيف أخسر إيماني بعدل الحياة، وأنا أعرف أن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذين ينامون على الأرض؟»

أو:

«الولادة والموت مظهران من أنبل مظاهر الشجاعة».

انكبّ جبران على العملِ من دون توقّف. حتّى في أوقات الراحة، كان ينصرف إلى نحتِ أشكالٍ صغيرة في الخشب، ويكتب لمجلّة *The Syrian World* التي كان يديرها سلّوم مكرزل حيث واظب على نشر قصصه القصيرة وتوقيعاته الفلسفية بالإنكليزية. في تلك المجلّة نشر مقالته الشهيرة «إلى الشباب الأميركي المتحدر من أصل سوري»؛ مقالة هي أشبه بالخطاب الذي دعا فيه أبناء موطنه إلى الافتخار بانتمائهم المزدوج إلى الشرق وإلى الغرب، كما دعاهم إلى تمثّل الأفكار الجديدة من دون التنكّر لجذورهم. بعد ذلك بوقت قصير، «راوده إلهامٌ ساطع»، فقرّر التوقّف مؤقتاً عن تأليف تتمة لكتابه «النبيّ»، للتفرّغ تماماً لوضع كتاب جديد: «يسوع ابن الإنسان» الذي باشر بإملائه على برباره يونغ. هكذا إنصرف ثمانية عشر شهراً إلى العمل بلا توقّف على الكتاب الذي يروي سيرة المسيح عبر سبعين شخصيّة مستعارة من الكتاب المقدّس ومن الميتولوجيا[1]. بعض هذه الشخصيّات أحبّ يسوع، وبعضها الآخر نظر إليه بلامبالاة أو فضول أو عدوانية. أمّا الصورة التي تبلورت من شهاداتهم فهي صورة مخلوق فاتن، متفوّقٌ وجدير بالعبادة في وقتٍ معاً، قريبٌ من البشر، اخوته. في 11 كانون الأول 1927، في ذكرى مولد ماري، أرسل إليها جبران المخطوطة التي كان قد أنجزها للتو. ولكي لا تثير غضب زوجها، عمدت ماري إلى قراءتها في الخفاء، ساعةَ يخلد الجميع إلى النوم.

[1] مثل هذا الأسلوب في التأليف يذكّر بـالحلقة والكتاب لمؤلّفه روبرت براوننغ، وهو عبارة عن سلسلةٍ من المونولوغات الدرامية يعرض فيها عددٌ من الشخصيّات، ومداورةً، الواقع كما يتراءى لأعينهم.

وفي 12 تشرين الأول من السنة التالية، صدر العملُ، مصحوباً بأربعة عشر رسماً للمؤلّف. فاستقبلته الصحافة الأميركية بترحاب: «إنّ لغة جبران الإنكليزية تتسم بقدرٍ من الجمال والشفافية من شأنهما أن يكونا مصدر إلهام لكتّاب آخرين ممّن لغتهم الأم هي الإنكليزية»، كتبت صحيفة *Springfield Union* في تعليقها على الكتاب. أمّا معلّق صحيفة *Manchester Guardian* فأكّد، من جهته، بأنّ القارئ «يشعر بفرحٍ بالغ لدى اكتشافه هذا العمل المتميّز بفرادته وجماله الحسّي...».

في تلك الحقبة بالذات، تولّى أيوب تابت، زميل جبران على مقاعد الدراسة، وشقيق سلطانة، العائد إلى لبنان، منصب وزير الداخلية والصحّة العامّة. وقد زعم جبران أن تابت عرض عليه منصباً وزارياً لكنّه رفض تولّيه. لكن لا شيء لدينا يؤكّد هذا الزعم أو ينفيه[1].

لم يجد جبران سبيلاً إلى التخفيف من آلامه المتمادية، فلاذ بالخمرةِ سبيلاً للهروب. وعلى الرغم من «قانون الحظر»، كان يستهلك كميات كبيرة من «العَرَق»، ويتوسّل شقيقته أن تكلّف أحد الأقرباء، ويدعى عساف جورج، توفير كميّات من الشراب من معامل التقطير السرّية القائمة في «الحي الصيني» بمدينة بوسطن. «إنّ عطشي للشراب، كتب ذات يوم قائلاً، يفوق ظمأ نوح، وأبي النواس وديبوزي، كما يفوق ظمأ مارلو». غير أنّ الشراب الذي يعالج الألم كان، في الوقت نفسه، سمّاً قاتلاً: ألم يتسبّب الإفراط فيه بوفاة صديقه ألبرت رايدر، كما تسبّب، من قبل، بوفاة والده؟ ولكن لا بأس! فنعمة الظمأ لا تقدّر بثمن:

«إشرب كأسك وحدك، وإن كان لها طعم دمك ودموعك، واحمد الحياة على نعمة الظمأ فإنّ قلبك من غير ظمأ ليس إلاّ شطّاً لبحر قاحل، لا نشيد فيه، ولا جزر ولا مدّ.

إشرب كأسك وحدك واشربها بفرح.

[1] وليد عوض: **الرؤساء اللبنانيون (1926–1943)**، دار الأفكار، بيروت، 2002، ص 288.

ارفعها فوق رأسك، وعبّ منها نخب أولئك الذين يشربون وحدهم».

شاخ جبران قبل أوانه. ثمة صورة أُخِذَت له في تلك الفترة، وفيلم لا تتعدّى مدّته الثواني يُظهره جالساً إلى طاولته منكباً على العمل، مدخّناً سيكارته بنهم، يؤكدان حال التردّي التي ألّمت بصحته. إذ يظهرانه وقد غزا الشيب شعره وطوّقت عينيه دوائر التهجّد السود، وشحب لونه وبدا الانتفاخ واضحاً في وجهه. غير أنّه لبث صامداً. حتّى أنه أضفى بعض الشاعرية على مرضه، حين كتب إلى مي زيادة قائلاً:

«... لقد وجدت في المرض لذّة نفسية تختلف بتأثيرها عن كلّ لذّة أخرى، بل وجدتُ نوعاً من الطمأنينة يكاد يحبّب إليّ الاعتلال... وقد اكتشفتُ شيئاً آخر أهمّ، بما لا يُقاس، من اللذّة والطمأنينة، هو هذا: إني في اعتلالي أدنى إلى الكليات المجرّدة مني إليها في صحتي. فإذا ما أسندتُ رأسي إلى هذه المساند وأغمضتُ عيني عن هذا المحيط وجدتني سابحاً كالطير فوق أودية وغابات هادئة متشحة بنقاب لطيف، ووجدتني قريباً ممن أحبهم أناجيهم وأحدثهم، ولكن بدون غضب، وأشعر شعورهم وأفتكر أفكارهم. يلومونني ولا يسخطون عليّ، بل يلقون أصابعهم على جبهتي بين الآونة والأخرى ويباركونني».

بمضيّ أيام قليلة على حفل العشاء الذي أقامه على شرفه أصدقاؤه في «الرابطة القلمية»، في 5 كانون الثاني 1929، في فندق «ماك ألبين» بنيويورك، احتفاء بخمسة وعشرين عاماً صرفها في خدمة الأدب العربي، أجرى جبران فحوصاً طبية أظهرت إصابته بتضخّم خطير في الكبد. تلقّى علاجاً بالأشعة والراديوم لم يكن ناجعاً. عندئذٍ نصحه الأطباء بالخضوع لجراحة؛ فرفض اقتراح الأطباء مفضّلاً التسليم بمشيئة القَدَر. «هي حالة يا ميشا، وصحّة كانت أم علّة؛ يكتب إلى ميخائيل نعيمة في رسالة مؤرخة في شهر آذار 1929. (...) الأطباء حظروا عليّ العمل، ولكنني

لا أستطيع سوى العمل... ما قولك في كتاب مؤلف من أربع حكايات، ميكل أنجلو، شكسبير، سبينوزا، بيتهوفن، وما قولك في ما لو كانت كلّ حكاية نتيجة مقررة لما في القلب البشري من الألم والطموح والغربة ثمّ الأمل؟».

أيقن جبران أن أيامه أصبحت معدودة. «أتعلمين، كتب إلى ماري قائلاً، إنني لم أفكّر يوماً في هذا الرحيل الذي يسمّيه البشر الفانون موتاً، إلاّ وانتابتني لذّة غريبة وراودني شعورٌ بحنين هائل؟» حاول أن يرتّب أموره، وبتاريخ 13 آذار 1930، كتب وصيته. أوصى بكلّ «ما له من دراهم» وسنداته المالية و«أربعين حصّة من حصص شركة بناية المحترف رقم 51 من الشارع العاشر غرباً»، لشقيقته مريانا. كما أوصى بريع كتبه لبلدته بشرّي، ولماري هاسكل بكل ما في محترفه من رسوم وسلع فنيّة وكتب وسواها، راغباً إليها، «إذا هي استنسبت ذلك»، أن تبعث بكلّ هذه الأشياء أو بعضها، إلى بلدته. وفي شهر تموز، استأجر منزلاً على شاطئ البحر وأقام فيه شهرين برفقة شقيقته. وهناك انكبّ على تأليف كتاب جديد: «الدرويش»، الذي يصدر فيما بعد تحت عنوان «التائه». ولدى عودته كتب في رسالة إلى مي زيادة:

«صحّتي الآن أردأ نوعاً مما كنت عليه في بدء الصيف، فالشهور الطويلة التي صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحي وجسدي. أمّا هذا الطائر الغريب [يعني قلبه] الذي كان يختلج أكثر من مئة مرّة في الدقيقة فقد أبطأ قليلاً... لا لستُ بحاجة إلى الأطباء والأدوية، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون... أنا بحاجة إلى فصادة معنوية، إلى يد تتناول مما ازدحم في نفسي، إلى ريح شديدة تسقط أثماري وأوراقي... أنا يا مي بركانٌ صغير سُدَّت فوهته».

وفي 14 آذار نشرت دار كنوبف آخر كتبه الصادرة في حياته: «آلهة الأرض»، وقوامه حوار «سقراطي» يدور بين آلهة ثلاثة يمثّلون النزعات الثلاث الغالبة للقلب البشري. الأول سئمَ العيش كإله ويصبو إلى العدم؛ والثاني يعبّر عن رضاه

على ما هو فيه ويستغلّ سلطانه الذي يمارسه على بني الإنسان الذين هم «خبز الآلهة»؛ أمّا الثالث الذي يستنكر لامبالاة الأول وجبروت الثاني، فيغتبط لرؤيته زوجين من البشر ينشدان ويرقصان عند سفح الجبل، مقتنعاً بأن سرّ الوجود كامنٌ في الجمال والمحبّة. وهو، أي الإله الثالث، الذي ينطق بالآتي:

«(...) إنّ الذين غلبتهم المحبّة
(...)
يقفون الآن، وفي كلّ أوان، متعانقين بحياءٍ ووقار.
باجتماع أوراق زهور محبّتهم يتنشقون عبير الحياة المقدّس.
وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة.
وعلى أجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا».

في هذا الكتيّب الذي لا تتعدّى صفحاته الأربعين، وينطوي على أثرٍ واضح من بلايك و«هيبيريون» كيتس Keats، تطالع القارئ مجدداً الفكرةُ القائلةَ إنّ الإنسان - الجسد ينبغي له أن يسمو على ذاته، وأن ينمو باتجاه الإنسان - الإله لكي يتّحد به. فآلهة الأرض هم الكائنات التي ارتفعت «من التراب إلى الضباب»، هم الذين عرفوا كيف يتخطون حدود ذاتهم الضيّقة لكي يصبوا إلى المطلقِ والذوبان فيه: «ومجد الإنسان يبتدئ عندما تمتصّ شفاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى».

أرسل جبران نسخة من كتابه إلى ماري، مرفقةً بمخطوطة «التائه»: «لا أدري إذا كنتِ مهتمّة بقراءة هذه المخطوطة بعينيك الثاقبتين ويديك العالِمَتين قبل أن ادفع به إلى الناشر. أحبّكِ الله». كانت تلك آخر كلماته إليها، هي «الساهرة أبداً على سعادته».

وفي 3 نيسان 1931 أنجز جبران الرسوم الثلاثة التي ستزيّن صفحات «التائه»، وبعدها بثلاثة أيام، جاء صديقه عبد المسيح حدّاد لزيارته وفوجئ هذا الأخير بحالة جبران الصحيّة؛ فقال إنّه، وللمرّة الأولى، سمع الموتَ في صوته وتراءى له

في ملامح وجهه. وقال إنهما تبادلا أطراف الحديث في أمور شتّى، غير أنّ أكثر ما تطرّقا إليه كان موضوع الرابطة القلمية والرفاق من أعضائها. فقد حرص جبران على ذكرهم واحداً واحداً بالاسم، معبّراً، بمثابة وداع، عن المشاعر التي يكنّها لهم. وأضاف حدّاد قائلاً إنّه عندما سأله عن أخبار عائلته، حرص على تسمية الأولاد كلاً باسمه، وأنه أعطاه نقوداً وأوصاه بأن يشتري باقة زهور باسمه لأمّهم.

فكان واضحاً أنّ النهاية اقتربت.

يوم الخميس 9 نيسان، وفيما كانت تحضّر له، كعادتها كلّ يوم، طعام الفطور، اكتشفت، آنا يوهانسُن، حارسة العمارة حيث يقيم جبران، أنّه طريح الفراش يُحتَضر. فأخطرت جارته لينوبل جاكوبس التي سارعت إلى استدعاء طبيب. لكن جبران رفض أن يُنقل إلى المستشفى. وفي صباح اليوم التالي، عند العاشرة والنصف، فَقَدَ وعيَه. فسارعت برباره إلى نقله إلى مستشفى «سانت فنسنت». وهُرع إلى هناك كلٌّ من شقيقته وأبناء عمومته وميشا والكاهن الماروني فرنسيس واكيم، ومعهم بعض الأصدقاء، ولكنْ بعد فوات الأوان: كان جبران المصاب بتشمّع في الكبد، وبداية سلّ في إحدى رئتيه، قد دخلَ في غيبوبة عميقة.

ويوم الجمعة 10 نيسان 1931، عند العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، لفظ صاحب «النبيّ» أنفاسه الأخيرة، عن ثمانيةٍ وأربعين عاماً.

«أيتها الغمامة، يا أختي الغمامة
أنا وأنتِ الآن شيء واحد
لم اكن ذاتاً منذ زمن طويل
الجدران انهارت
والسلاسل انكسرت
وأنا ارتفعت إليك
وسنبحر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية،
عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة،

ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة...»

وفي 12 نيسان، تلقّت ماري هاسكل برقيةً من مريانا:

Khalil passed away Friday night. We take him to Boston on Monday. Write 28, Forest Hills, St Jamaica Plains, Mass.[1]

أفقدتها الصدمة القدرة على الكلام، وحطّم فؤادها ذاك الرحيل المبكر للإنسان الذي أحبّت. وكما بكاه الجميع، مريانا، وبرباره، ومي وميشا وآخرون كثر، بكت غياب الصديق والمبدعَ الذي رعَت. مع أنّ جبران كان أنبأ الجميع، في قصيدته النثرية «جمال الموت»، بالمُقبلِ المحتوم:

«دعوني أنم، فقد سكرت نفسي بالمحبّة.
دعوني أرقد، فقد شبعت روحي من الأيام والليالي.
(...)
لا تغمروا صدري بالتأوّه والتنهّد، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبّة ووسم الفرح.
(...)
ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصّات، بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده!»

(1) «توفي خليل مساء الجمعة. سننقل جثمانه إلى بوسطن يوم الاثنين. عنوان المراسلة: 28 فرست هيلز، سانت جامايكا بلينز ماس».

-16-

بعد الموت

«مات نبيّ»، عنونت صحيفة *New York Sun*. نُقل جثمان جبران إلى الـUniversal Funeral Parlor في جادّة «لكسنغتون»، حيث سجّيَ أمام المودّعين ليومين. يوم الاثنين 13 نيسان، نُقل إلى بوسطن، يواكبه أعضاء في الرابطة القلمية، قبل أن تلتحق بهم ماري - التي كانت لا تعرف أحداً منهم، لأنّ جبران لم يشأ يوماً أن يتعارفوا لرغبته في أن تبقى علاقتهما غير رسميّة. وفي اليوم التالي أقيم قدّاس لراحة نفسِه في كنيسة «سيدة الأرز» ترأسه أحد رجال الدين القلائل الذين كان الراحل يكن لهم الاحترام والمودّة، هو المونسينيور اسطفان الدويهي، جاره ومرشده. عقبَ القدّاس أودع مدفناً مؤقتاً في مقبرة «مونت بينيديكت»، في ضاحية بوسطن، حيث ترقد أمّه وشقيقته وأخوه غير الشقيق. وبمثابة وداعٍ للفقيد، أقيم عدد من الاحتفالات التذكارية في نيويورك وبوينس آيرس وساوَ باولو حيث تقيم جاليات لبنانية. بُعيد ذلك، واستجابةً لطلب ماري هاسكل التي لم تنسَ العهد الذي قطعته على نفسها أمام صديقها في آب 1923، وافقت مريانا على نقل رفات الراحل إلى بشرّي.

وفي 23 تموز 1931، وبحضور حشد المودعين من أهل وأصدقاء، غادر جبران، وقد ضمّ رفاته نعشٌ مغطّى بالعلمين اللبناني والأميركي[1]، العالمَ الجديد على متن الباخرة «سينايا». ويوم الخميس 20 آب 1931، وصل الجثمان إلى بيروت حيث لقيَ استقبالاً لم يسبق له مثيل من قبل حشد كبير من المواطنين، بالإضافة

[1] مع أن جبران لم يحصل قط على الجنسيّة الأميركية.

إلى حضور وفد رسمي مؤلّف من مندوب المفوّض السامي الفرنسي، الكومندان دو مورابا، وموفد من سلاح البحرية الفرنسية، كان ينتظر وصول الباخرة عند رصيف الميناء. استقبل الأسقف أغناطيوس مبارك جثمان الفقيد وسجّيَ ليوم واحد في كاتدرائية القديس جاورجيوس. وعقب احتفال أقيم في «المسرح الكبير» تكريماً للراحل، بحضور رئيس الدولة شارل دبّاس، ثم غطّي النعش بسعف النخيل ونُقِلَ، عبر المدن والقرى، إلى بشرّي، بمواكبة حشد كبير من المشيّعين. أحد رجال الصحافة الحاضرين آنذاك، وصف لحظة وصول النعش إلى البلدة بأنه كان أشبه بدخول فاتح منه بجنازة. وما كان يزيد من حدّة ذلك الانطباع هو قرع الأجراس المصاحب وأجواء الفخر السائدة[1]... وقد جاء في لسان الحال: «كانت الطريق من بيروت إلى بشري وقفات ومراحل، فما مرّ النعش في بلدة صغيرة كانت أو كبيرة إلاّ استوقفت النعش للبكاء. فيخرج أهالي تلك البلدة على بكرة أبيهم صغاراً وكباراً لاستقبال جبران بالأعلام السوداء. فالشباب يهزجون والنساء يندبن والعذارى ينضحن الطيب على النعش وساكنه»...

وفي 10 كانون الثاني 1932، أودع النعش المصنوع من خشب الأرز مغارةً محفورة في الصخر، داخل دير مار سركيس الذي كانت مريانا قد تملّكته إنفاذاً لوصيّة أخيها، والذي بات يضمّ اليوم متحف جبران. بجوار مثواه الأخير، حيث غرفته التي أعيد تشكيلها كما كانت تماماً، حيث سرير صغير جداً، وسجّادة حائط عليها رسم المسيح، ومناصب الرسّام وقطع أثاث أخرى جُلِبَت من «الصومعة»، ثمّة عبارة محفورة على لوح خشب:

«عبارة أودّ أن أراها محفورة على قبري: أنا حيّ مثلكم وأنا الآن بجواركم. أغمضوا عيونكم، وانظروا من حولكم، فتروني...».

حتّى النهاية، ثابر جبران على إنكاره الموت، لكي يكذّب القدر ويثأر للذين

[1] نجد وصفاً كاملاً لمجريات الاحتفالات التي أقيمت في كتاب حبيب مسعود: جبران حيّاً وميتاً، منشورات الريحاني، ط 2، 1966، ص 537 وما يليها.

رحلوا قبله...

في تلك الأثناء، بدأت المنازعات في الولايات المتحدة، إذ قامت برباره يونغ بإحصاء دقيق لأعمال جبران وفكّرت جدّياً بإتلاف الرسائل التي كان قد تبادلها مع ماري هاسكل (التي كانت تجهل وجودها!) بذريعة أنّها تشكّل إساءة لذكرى الكاتب الراحل. وتمكّنت ماري، في اللحظة الأخيرة، من إنقاذ رسائلها، لكنّها عجزت عن التصدّي لتدخّل برباره في أعمال صديقها: كانت ماري تقيم خارج نيويورك وكانت منهمكة بالسهر على زوجها المريض. وفي 9 تشرين الأول عام 1964، وافتها المنية، بعد أن أمضت سنواتها الخمس الأخيرة نزيلة أحد المستشفيات، وبعد أن وزّعت جميع ممتلكاتها، تاركةً للأجيال المقبلة مراسلاتها مع جبران ودفاتر يوميّاتها التي، لولاها، لبقيَ جانب مهمّ من حياة المبدع الراحل مجهولاً إلى اليوم!

تولّت برباره الإشراف على ميراث جبران كما شاءت. وتعرّض كتاباه المخطوطان، «التائه» و«حديقة النبيّ»، إلى تحويرات جوهرية أجرتها عليهما. ناصبت ميشا العداء ومنعت أصدقاء جبران اللبنانيين، وخاصّة أعضاء «الرابطة القلميّة»، من الاطلاع على محفوظاته الخاصّة، وطالبت بمبالغ طائلة مقابلَ لوحاته[1]. كما احتفظت لنفسها ببعضها. وإثر قيامها، سنة 1939، برحلة إلى بشرّي على خطى جبران، كرّست له كتاب سيرة جمع ما بين التأليه والرواية الخيالية، اختارت له عنواناً: «هذا الرجل من لبنان» *This Man from Lebanon*.

لم يمض وقت طويل حتّى اعترضت مريانا على صحّة الوصيّة التي تركها شقيقها، لكنّها خسرت دعواها. وفي سنة 1968، اشتدّ مرضها وذهبت مرغمة للعيش في منزلٍ للراحة حيث توفيت في 28 آذار 1972.

كأنّه بذلك يؤكّد لنا أنه لم يرحل عن عالمنا، يُطالعنا جبران، بين الفينة والفينة، بنصّ له غير منشور سابقاً: فكتابه «التائه» الذي صدر بعد وفاته، سنة 1932،

[1] في رسالة غير منشورة موجّهة إلى دار كنوبف بتاريخ 22 تموز 1945، تصدّت بربارة يونغ لنشر ترجمة «الأجنحة المتكسّرة» باللغة الإنكليزية معتبرةً أن هذه الرواية ركيكة وشديدة الرومنسية!

يروي، عبر أمثالٍ قصيرة، تَيَهان المفكّر في دروب الندم، وبذلك يكون استكمالاً لكتابيه «المجنون» و«السابق». وبلهجة ساخرة، وأحياناً كاشفة، يتطرّق المؤلّف إلى الموضوعات التي تحتلّ مكانةً خاصّة في قلبه: المحبّة، الحقيقة، الطبيعة، الله... في أحـد هذه الأمثال التي عنونها «النبيّ الناسك» يروي جبران حكاية نبيّ يدعو إلى بذلِ العون والمشاركة في حمل الأعباء. وذات يوم يقصده ثلاثة رجال في «صومعته» (والتلميح هنا ليس بريئاً) ويطلبون منه أن يوزّع ممتلكاته. لكنّ النبي لا يملك شيئاً. عندئذ ينظر إليه الرجال الثلاثة بازدراء ويخاطبونه قائلين: «أوه! أنت تغشّ! أنت تخادع! إنّك لتعلّم وتعظ أشياء لم تبدأ بتحقيقها في نفسك!». يؤكّد ميخائيل نعيمة أن جبران أسرّ إليه ذات يوم بأنّه «نبأ كاذب» «I am a false alarm». فيأتي مثل «النبيّ الناسك» لكي يوضـح هذه الفكرة التي صيغت، بلا ريب، في لحظة من لحظات الشكّ: فمهما فعل يبقى النبيّ، لكونه نبياً، موضع شكّ، ويبقى موضع شبهةٍ بكونه مخادعاً. والحقيقة أن جبران لم يزعم يوماً بأنه مثالٌ للفضيلة، إذ تظهر أعماله بأنه مدركٌ لمكامن الضعف فيه (وفي نصّ له تحت عنوان «محبّة» يتحدّث عن «الأنا الضعيفة») وبأنه لا يضع نفسه في مكانة تفوق مكانة الآخرين: ألا يتعامل المصطفى، على غرار السابق، مع مريديه وأتباعه كأنّهم «اخوة» له؟

سنة 1934، صدر «حديقة النبيّ» وهو تتمةَ «النبيّ»، الذي يسرد فيه ما يرافق وصول المصطفى إلى جزيرته. لحظة وفاة جبران، كان العمل قيد الإنجاز، لكنّ «الخيط الناظم لسياقه كان لا يزال مفقوداً»، بحسب زعم بربارة يونغ التي أجازت لنفسها أن تضيف إليه مقاطع بأكملها ربّما كان المؤلّف يعدّها لاستعمالات أخرى. ففـي حين يتطرّق جبران في «النبيّ» إلى موضوعات هي، في جوهرها، ذات طابع دنيوي، ويرسي خُطَبَه الخمسَ والعشرين على أسسٍ أخلاقية، يُثير هنا ثلاث مسائل كبرى ذات طابعٍ ميتافيزيقي: الله والكائن والموت. إذ يخاطب المصطفى أتباعه قائلاً:

«أنتم أرواح وإن كنتم تتحرّكون في أبدان، وإنكم لكالزيت الذي يحترق في

الظلام، شعلٌ، وإن حملتم في مصابيح.
وإذا انتم لم تكونوا شيئاً سوى أجساد، فإنّ موقفي أمامكم وخطابي إيّاكم، لن يكون سوى هراء، كما لو كان ميت يخاطب أمواتاً. ولكن الأمر على غير ذلك، فكلّ ما هو خالد فيكم إنّما هو حرّ آناء الليل وأطراف النهار، ولا سبيل إلى الحجر عليه وتقييده، لأنّ تلك هي مشيئة القدير الأعلى. أنتم نَفَسه الذي لا يُقبَض عليه ولا يمكن أن يُزجّ في قفص. شأنكم في ذلك شأن الريح. وأنا نَفَسُ نَفَسِه».

وفي السنة نفسها صدرت بالعربيّة «ملك البلاد وراعي الأغنام» وهي تمثيلية قصيرة تروي قصّة ملك صار راعياً لأنه يريد أن يحيا وسط الغابات والحقول. كان ميخائيل نعيمة أوّل من نشر نصّ التمثيليّة ضمن كتاب السيرة الذي كرّسه لجبران - وهي السيرة التي أثارت ردود فعلٍ ساخطة من قبل أصدقاء الفنّان، ومن بينهم أمين الريحاني، بسبب بعض ما تضمّنته من تلميحات ارتأى ميشا أن يُثبتها في النص ليضفي مسحةً إنسانية على شخصيّة صاحب السيرة الذي ارتقى مصاف أسطورة حتّى في حياته.

وأخيراً، في سنة 1973، عمد أحد أقرباء الفنّان، ويُدعى خليل مثله، إلى نشر «لعازر ومحبوبته»، وهي تمثيلية من فصل واحد عُثِرَ عليها بين مخطوطات المؤلّف التي احتفظت بها مريانا، والتي أضيف إليها سنة 1981، تمثيلية أخرى ظلّت مجهولة حتّى ذلك التاريخ، تحت عنوان «الأعمى»[1]. لا شكّ في أنّ جبران كان يحاول، بتأثير من بلايك، وهو صاحب لوحة عنوانها Lazarius، أن يتخيّل حالة لعازر النفسيّة غداة بعثه من الموت. كان يرى أن لعازر هو الإنسان الوحيد الذي حظيَ بالحياة مرّتين، وبالموت مرّتين، وبالأبدية مرّتين. ويرى أن هذه الشخصيّة لم تكن لترغب في العودة إلى الحياة: كان سعيداً بجوار محبوبته السماوية (مرّة أخرى

[1] إن الوثائق غير المنشورة الموجودة في محفوظات ألفرد كنوبف تثبت وجود 5 مسرحيات ألّفها جبران باللغة الإنكليزية، وقد أرسل كنوبف هذه المسرحيات إلى الشاعر ويتر باينر، صديق جبران، الذي نصح بعدم نشرها.

يتضح لنا، كما لدى الصوفية، أن الحبّ الدنيوي والحبّ الإلهي يمتزجان)، «في قلبِ الله نفسه». ولقناعته بأنّه كان ضحيّة - كما ضحّى المسيح بنفسه - يتمرّد على مشيئة سيّده: «لمَ عليّ أن أكون الوحيد من بين الرعاة جميعاً الذي يُطرَد إلى الصحراء بعد المراعي الخَضراء؟ يسأل بغضبٍ ومرارة. قل لي الآن يا يسوع الناصري، لمَ صنيعكَ بي؟ [...] لمَ أعدتنـي إلى هذا العالم وأنتَ تعلم أنّك ستفارقه؟ لمَ أعدتنيَ من قلبِ الأبديّة الحيّ إلى هذا الشقاء؟» ولكن كان لا بدّ من معجـزة: «لقَد أعادك السيّد إلينا لكي ندرك أنّه ما من سَترٍ بين الحياة والموت، تقول له مريم. ألا ترى أنك الشاهد الحيّ على الخلود؟ ألا ترى كيف لكلمةٍ إذا نطقت مشفوعةً بالحبّ أن تجمع العناصر المبعثرة بيد وهمٍ اسمه الموت؟»

ضمن كتابها عن جبران، نشرت بربارة يونغ أخيراً بعض نصوص المؤلّف، كنصّ «الشاعر الأعمى» و«أنا مستعد للرحيل» و«يسوع يطرق باب السماء». أمّا «متحف جبران» فما زال يحتفظ بنصوص غير منشورة تتضمّن بعض التأملات العميقة في الفنّ والمعرفة والجمال والدين والتعصّب...

غير أن كلّ ما نشر بعد وفاته، وكلّ هذه النصوص غير المنشورة التي يجري نبشها بين الفينة والفينة، لا تحجب عنّا السؤال الآتي: هل يصنّف جبران ككاتب من أصحاب المؤلّف اليتيم؟ طبعاً لا، لأن نتاجه بالعربية ومؤلفاته بالإنكليزيّة تشمل نصوصاً هي غاية في الإتقان والجمال. وحتّى لو كان جبران مؤلّف كتاب يتيم، فما الضير في ذلك؟ ألم يكتب، هو، إلى صديقته ماري هاسكل، في أواخر حياته، قائلاً: «لقد جئتُ هذا العالم لكي أؤلّف كتاباً، كتاباً صغيراً واحداً؟».

الحقيقة أن جبران ليس مجرّد كاتب وحسب: إنّه «ظاهرة»، لا بل «حالة». أمضى حياته، هو المتعطّش إلى الحرية - السياسية والاجتماعية والميتافيزيقية -، مسكوناً بنزعة التمرّد المقيمة («الحياة بدون ثورة أشبه بفصول بلا ربيع في الصحراء») وبحسّ إنساني عميق، مندّداً بمظاهر الظلم والاضطهاد، مدافعاً بلا هوادة عن حقوق المرأة في الشرق:

«أزوجٌ يستبيح لنفسِه ما يحرّمه على زوجته، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها، ويلتهم ما يشتهيه حتّى التخمة وهي جالسة في وحدتها أمام صحفة فارغة؟ أم رفيق لا يسير إلى أمر إلاّ ويده بيد رفيقته، ولا يفعل أمراً إلاّ ولها فيه فكرة ورأي، ولا يفوز بأمر إلاّ لتساهمه أفراحه وأمجاده؟

إن كنتَ الأول فأنت ممن بقي حياً من قبائل انقرضت وهي تسكن الكهوف وتلبس الجلود، وإن كنتَ الثاني فأنتَ في طليعة أمّةٍ تسير مع الفجر نحو ظهيرة العدالة والحصافة».

جبران المسكون بإلهام لا نبالغ إذا وصفناه بأنه «إلهي»، بشّر بالمحبّة والإخاء والأمل، فغدا بذلك، وفي نظر الكثيرين، مرشداً روحياً بحقّ. لقد مدّ الأدب العربي بدماءٍ جديدة؛ وبتأثيرِ منه – ومن بعض معاصريـه –، نفضت اللغة العربية بعض غبارها المتراكم، وسلَست ورقّت وسرّعت مسار انعتاقها من القوالب التي تثقل عليها. وعلى هذا النحو فرض نفسَه بوصفه أحد أبرز أعلام الإصلاح في عصر النهضة، نهضة الثقافة العربية، وبوصفه رائد حركة الحداثة العربية في أواخر الخمسينات... هل يعني ما سبق أنّ ثمّة جبرانين، أحدهما ثائر والآخر روحاني؟ لقد ذهب بعض الدارسين إلى تبنّي هذه المقولة التي لا تجد ما يبرّرها على الإطلاق: ذلك أنّ مسار جبران وفكره يبدوان، في المحصلة، شديدي التماسك، وليس التعايش، لديه، بين أفكار ومواقف مختلفة علامة «ازدواج». فكلّ العناصر في أعماله تتزاوج في وحدة تامة.

أين أصبح جبران اليوم؟ لا شكّ في انه سيعود لأنه عاهد أهل أورفليس على العودة إليهم. فعلى غرار إلهه، اتّحد بالعاصفة، بالريح، بالأشجار... وعندما، هناك، فـي الأعالي، في بشرّي، تنطفئ النيران، ويُضـيء القمر المتفتّح كعين، ألا يخيّل إلينا أننا نسمع، على إيقاع ناي يُلقي على النجوم تحية، صوتَ النبيّ الآسر؟

في «الأجنحة المتكسّرة»، وفي اللحظة التي تُسلم فيها سلمى الروح، ينحني حبيبها فوقها ويهمس في أذنها هذه العبارات البسيطة الصادِقة:

«الحياة أضعف من الموت، والموت أضعف من الحبّ...».

إن محبّة الملايين من القرّاء جعلت جبران خالداً، لا يموت.

تنويـه

أودّ أن أتوجّه بالشكر إلى لجنة جبران الوطنية وإلى السيد وهيب كيروز، أمين متحف جبران، والآنسة كاتيا مدور من الجامعة الأميركية في بيروت، والسيّدة عفيفة أرسانيوس، التي تولّت مهام الملحق الثقافي اللبناني في واشنطن، والأستاذ هيام ملاّط، الرئيس السابق لمؤسّسة المحفوظات الوطنية في لبنان، والشعراء والصحافيين عبّاس بيضون وعبده وازن وهنري زغيب لما وضعوه بمتناولي من مؤلفات ووثائق. كما أتوجّه بالشكر إلى السيدة بث مور من Telfair Museum of Art، في سفانا، لتعاونها.

ثَبْتٌ بالمصادر

1 - مؤلّفات جبران:

أ- مجموعات ومختارات:

- **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران**، قدم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1961.
- **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة من الإنكليزية**، بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1964.
- **جبران، الأعمال العربية والأعمال المترجمة**، بيروت، مؤسسة نوفل، الطبعة الثانية، 1988 قدّمت لها وعلّقت عليها نازك سابا يارد.
- **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران**، تقديم الدكتور جميل جبر، دار الجيل، بيروت.
- **مختارات من جبران خليل جبران**، بيروت، دار صادر، 1961.
- **كلمات جبران خليل جبران**، جمعها الإرشمندريت أنطونيوس بشير، القاهرة، يوسف البستاني، 1927.
- **موسوعة جبران** (46 جزءاً)، بيروت، دار نوبليس.

ب - مؤلّفات جبران بالعربية:

- **الموسيقى**، نيويورك، المهاجر، 1905، بيروت، منشورات مكتبة صادر، 1988؛ مؤسسة نوفل، 1981.
- **عرائس المروج**، نيويورك، المهاجر، 1906، بيروت، منشورات مكتبة صادر، 1988 ؛ مؤسسة نوفل، 1981.

- **الأرواح المتمرّدة**، نيويورك، المهاجر، 1908.
- **الأجنحة المتكسّرة**، نيويورك، مرآة الغرب، 1912 ؛ بيروت، منشورات مكتبة صادر 1987 ؛ مؤسسة نوفل، 1981
- **دمعة وإبتسامة**، نيويورك، مرآة الغرب، 1914 ؛ بيروت، منشورات مكتبة صادر 1988 ؛ مؤسسة نوفل، 1981.
- **المواكب**، نيويورك، مرآة الغرب، 1919.
- **العواصف**، القاهرة، الهلال، 1920 ؛ بيروت، منشورات مكتبة صادر 1988؛ مؤسسة نوفل، 1982.
- **البدائع والطرائف**، القاهرة، يوسف البستاني، المطبعة العصرية، 1923.

ج – مؤلّفات جبران بالإنكليزية:

The Madman: His Parables and Poems (المجنون), New York, Alfred A. Knopf, 1918; London, Heinemann, 1946.

Twenty Drawings (عشرون رسمة), introduction by Alice Raphaël Eckstein, New York, Alfred A. Knopf, 1919.

The Forerunner: His Parables and Poems (السابق), New York, Alfred A. Knopf, 1920; London, Heinemann, 1963.

The Prophet (النبي), New York, Alfred A. Knopf, 1923; Londres, Heinemann, 1926.

Sand and Foam (رمل وزبد), New York, Alfred A. Knopf, 1926, 1996; London, Heinemann, 1927.

Jesus, the Son of Man: His Words and his Deeds as Told and Recorded by Those who Knew him (يسوع إبن الإنسان), New York, Alfred A. Knopf, 1928; London, Heinemann, 1954; Oxford, Oneworld, 1993.

The Earth Gods (آلهة الأرض), New York, Alfred A. Knopf, 1931; London, Heinemann, 1962.

The Wanderer: His Parables and his Sayings (التائه), New York, Alfred A. Knopf, 1932; London, Heinemann, 1965.

The Garden of the Prophet (حديقة النبي), New York, Alfred A. Knopf, 1933; London, Heinemann, 1954.

Lazarus and his Beloved: A One-Act Play, (لعازر وحبيبته), Greenwich, Connecticut, New York Graphic Society, 1973; London, Heinemann, 1973; réédité par The West minster Press, Philadelphia, 1982

The Blind (المكفوف), Greenwich, Connecticut, New York Graphic Society, 1981; The Westminster Press, Philadelphia, 1982.

د – بعض الكتب المعرّبة:

- **التائه**، ترجمة أنطونيوس بشير، بيروت، منشورات مكتبة صادر، 1988.
  ترجمة نديم نعيمه، بيروت، مؤسسة نوفل، 2000.
- **النبي**، ترجمة ميخائيل نعيمة، بيروت، مؤسسة نوفل، 1997.
  ترجمة يوسف الخال، بيروت، دار النهار للنشر، 1968 و2000.
- **يسوع إبن الإنسان**، ترجمة أنطونيوس بشير، بيروت، منشورات مكتبة صادر، 1988.
- **حديقة النبي**، ترجمة كمال زاخر لطيف، القاهرة، يوسف البستاني، 1950.
- **أرباب الأرض**، ترجمة ثروت عكاشه، القاهرة، دار المعارف، 1966.
- آلهة الأرض، ترجمة نديم نعيمه، بيروت.
- **رمل وزبد**، ترجمة ثروت عكاشه، القاهرة، دار المعارف، 1963.
- **لعازر وحبيبته والمكفوف**، ترجمة يعقوب افرام منصور، مؤسسة الإنتشار

العربي، 2001.
- **المجنون** ، ترجمة نديم نعيّمه، بيروت، مؤسسة نوفل، 1998.
- **السابق**، ترجمة نديم نعيّمه، بيروت، مؤسسة نوفل، 1999.

2- المصادر والمراجع العربية:

أ- كتب عن جبران:

بدوي، سليم، **مقدّمة في فكر جبران السياسي**، بيروت، منشورات ليبانيا، 1983.
براكس، غازي، **جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته**، بيروت، دار النسر المحلّق للطباعة والنشر، 1973، الطبعة الثانية، 1981، دار الكاتب اللبناني.
البستاني، فؤاد افرام، **جبران بين الجسد والروح**، بيروت، منشورات الدائرة، 2003.
مع جبران، بيروت، منشورات الدائرة، 1983.
بشروئي، سهيل، **جبران خليل جبران، مختارات ودراسات**، بيروت، دار المشرق، 1970.
بولس، متري سليم، **ألغاز جبرانية**، بيروت، دار آغات، 2001.
جبر، جميل، جبران: **سيرته - أدبه - فلسفته ورسمه**، بيروت، دار الريحاني، 1958.
جبران خليل جبران في حياته العاصفة، بيروت، مؤسسة نوفل 1981.
حبيب، بطرس، **جدلية الحب والموت في مؤلّفات جبران خليل جبران العربية**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1995.
حاوي، خليل، جبران خليل جبران، **إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره**، تعريب سعيد فارس باز، بيروت، دار العلم للملايين، 1982.
حنين، رياض، **أحاديث عن جبران**، بيروت، مؤسسة نوفل، 1983. **الوجه الآخر**

لجبران، دار النهار للنشر، 1981.
الحويك، يوسف، **ذكرياتي مع جبران**، (حرّرتها إدفيك جريديني شيبوب) بيروت، دار النهار للنشر 1981، بيروت، مؤسسة نوفل، 1979؛ دار الإبداع، 2001.
خالد، أمين، **محاولات في درس جبران**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1933.
خالد، غسان، **جبران الفيلسوف**، بيروت، مؤسسة نوفل، الطبعة الثانية، 1983.
خويري أنطوان، **جبران خليل جبران النابغة اللبناني**، بيروت، ملف مركز الإعلام والتوثيق، 1981.
دايه، جان، **عقيدة جبران**، دار سوراقية، 1988.
زغيب، هنري، «مع جبران في مرجحين»، **النهار**، 15 و17 تشرين الأول 2001.
الريحاني، أمين، **ذكرى جبران**، بيروت، صادر، 1932.
صايغ، توفيق، **أضواء جديدة على جبران**، بيروت، الدار الشرقية للطباعة والنشر، 1966 ؛ لندن، رياض الريّس، 1990.
طوق، بولس، **شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية**، بيروت، دار نوبيليس، 2000.
طويل، ناهدة، **شخصية جبران، دراسة نفسانية**، بيروت، مطابع التجارة والصناعة، 1973، طبعة ثانية 1983.
عبود، مارون، **مجدّدون ومجترون**، بيروت، دار الثقافة، 1961.
جدد وقدماء، بيروت، دار مارون عبود، دار الثقافة، 1972.
فرنسيس، أنطوان، **جبران العاشق**، بيروت، دار الصياد، 1987.
قمير، يوحنا، **جبران ونيتشه**، مؤسسة نوفل، 1997.
عطوي، فوزي، **جبران خليل جبران عبقري من لبنان**، بيروت، دار الفكر العربي، 1989.
غريّب، روز، **جبران في آثاره الكتابية**، بيروت، دار المكشوف، 1969.
غريزي، وفيق، **نساء في حياة جبران وأثرهنّ في أدبه**، بيروت، دار الطليعة،

.1992

كرم، أنطون غطاس، محاضرات في جبران خليل جبران، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، 1964.

كيروز، وهيب، عالم جبران الفكري، بشاريا، 1983.

عالم جبران الرسّام، بشاريا، 1982.

مسعود، حبيب، جبران حيّاً وميتاً، بيروت، دار الريحاني، 1966.

معلوف، رشدي، جبران خليل جبران، محاضرات الندوة اللبنانية، ج. 2، 1984، عدد 10 و11.

نعيمه، ميخائيل، جبران خليل جبران، حياته، موته، أدبه، فنّه، الطبعة الأولى 1934، الطبقة الحادية عشرة، مؤسسة نوفل، 1991.

سبعون، بيروت، مؤسسة نوفل، الطبعة الثامنة، 1998.

ووترفيلد، روبن، جبران خليل جبران، نبيّ وعصره، تعريب ميشيل خوري، دمشق، دار ورد، 2003.

يونغ، برباره، هذا الرجل من لبنان، ترجمه عن الإنكليزية سعيد عفيف بابا، بيروت، دار الأندلس، 1953.

ب) مراجع أخرى:

جبران - محاضرت لمناسبة مرور مئة عام على ميلاد جبران خليل جبران، بيروت، النادي الثقافي العربي، 1984.

مجلة الرسالة، مجلّد تموز 1955.

مجلة الفصول اللبنانية، العدد رقم 7، صيف 1981.

ج) رسائل جبران:

جبر جميل، رسائل جبران: صفحات مطوية من أدب جبران الخالد، بيروت، دار بيروت، 1951.

حلو، فرجينيا، **الحبيب**، نقلها عن الإنكليزية الأب لوران فارس، دار الأهلية للطباعة والنشر، 1974 و2004.

حنين، رياض، **رسائل جبران التائهة**، بيروت، مؤسسة نوفل، 1983.

الكزبري، سلمى الحفّار وسهيل بشروئي، **الشعلة الزرقاء**، دار النهار 2004.

نجار، اسكندر، **أوراق جبرانية**، بيروت، دار النهار للنشر، 2006.

رسائل مجهولة لجبران خليل جبران، **الحياة**، العدد 15566، 14 تشرين الثاني 2005.

د) حول مي زيادة وجبران:

بولس، متري سليم، **جبران ومي، بين الخيال الواقع**، دار أغات، 2001.

جبر، جميل، **رسائل ميّ وجبران**، بيروت، دار الجمال، 1950.

مي زيادة في حياتها وأدبها، بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1960.

قصة حب أغرب من الخيال بين مي وجبران، بيروت، دار صادر، 2001.

الريحاني، أمين، **قصّتي مع ميّ**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.

غريّب، روز، **مي زيادة**، التوهّج والأفول، بيروت، مؤسسة نوفل، 1978.

الكزبري، سلمى الحفّار، **ميّ زيادة وأعلام عصرها**، بيروت، مؤسسة نوفل، 1982.

3- المصادر والمراجع الأجنبية:

BUSHRUI Souheil: «Gibran, le Prophète du Liban», *Le Magazine Littéraire*, n° 359, novembre 1997.

BUSHRUI Souheil et Jenkins Joe: *Kahlil Gibran, Man and poet*, Oxford-Boston, Oneworld, 1998; paru en français aux éditions Véga, Paris, 2001.

CECCATTY René de: «Khalil Gibran, les prophéties d'un esthète», *Le Monde*, 19 février 1999.

CHAHINE Anis: *L'amour et la nature dans l'œuvre de Khalil Gibran*, Beyrouth, Middle East Press, 1979.

CHALFOUN Khalil: La figure de Jésus-Christ dans la vie et l'œuvre de Gibran Khalil Gibran, thèse de 3e cycle, Paris, Institut Catholique, 1986.

CHIKHANI Rafic: *Religion et société dans l'œuvre de Gibran Khalil Gibran*, Publications de l'Université libanaise, Beyrouth, 1997.

CHOUEIRI Raja: *Bécharré, Gibran et le gibranisme*, Beyrouth, éd. Félix Beryte, 1999.

COLLECTIF: *Khalil Gibran and Amin Rihani, Prophets of Lebanese-American Literature*, Louaizé, Notre Dame University, 1999.

DAHDAH Jean-Pierre (sous la direction de): «Khalil Gibran, poète de la sagesse», *Question De*, n° 83, Paris, Albin Michel, 1990.

Khalil Gibran: une biographie, Albin Michel, Paris, 1994; éd. de poche, 2004.

GHAITH Afifa, *La pensée religieuse chez Gibran Khalil Gibran et Mikhaïl Nuayma*, Louvain, Peeters Press, 1990.

GHOUGASSIAN J.-P: *Khalil Gibran: L'envol de l'esprit*, Québec, éd. de Mortagne, 1986.

GIBRAN Khalil et Jean: *Khalil Gibran. His Life and Works*, New York, Interlink Books, 1er éd. 1974; 2e éd. 1981.

Introduction à Dramas of life: *Lazarus and his beloved*

and The Blind, Philadelphia, West-minster Press, 1982.

HAGE George Nicolas: *William Blake and Khalil Gibran*, Binghamton, State University of New York, 1980; Louaizé, Liban, Notre Dame University, 2002.

HATEM Jad: *La mystique de Gibran et le supra-confessionnalisme religieux des chrétiens d'Orient*, Paris, éd. Deux Océans, 1999.

«Gibran et Kazantzakis», conférence organisée par la Société des Amis de Nikos Kazantzakis, Beyrouth, 1999.

HAWI Khalil: *Khalil Gibran: His Background, Character and Works*, Université américaine de Beyrouth, 1963.

HELOU Joseph Habib: *Kahlil Gibran a Nonpareil artist*, Beyrouth, 2002.

KARAM Antoine Ghattas: *La vie et l'œuvre littéraire de Gibran Khalil Gibran*, Beyrouth, Dar an-Nahar, 1981; réédition 2005 avec une préface d'A. Najjar.

KAYROUZ Wahib: *Gibran dans son musée*, éd. Bacharia, 1996.

La dialectique unificatrice dans la pensée de Gibran, éd. Bacharia, 1983.

La Procession de la Matrice Vierge (entretiens), Le Pinacle de Beyrouth, 1999.

KHARRAT Souad: *Gibran le prophète, Nietzsche le visionnaire*, Triptyque, 1993.

KHOURY Raïf Georges: *Passé et présent de la culture arabe, tradition, modernité et conservation d'identité selon Gibran*, Neckarhausen, éd. Deux mondes, 1997.

MAALOUF Amin: «Préface» au *Prophète*, Le Livre de Poche, n° 9685, 1993.

NAAMAN Abdallah: «Du côté du 14 avenue du Maine (Gibran à Paris)», *Arabies*, octobre 1993.

Histoire des Orientaux de France, Paris, Ellipses, 2004.

NAIMEH Nadim: *The Lebanese Prophets of New York*, Université américaine de Beyrouth, 1985.

NAJJAR Alexandre: *Khalil Gibran*, Pygmalion, 2002; J'ai Lu, 2006.

Gibran à Paris, Livret de l'exposition présentée par le ministère libanais de la Culture au 22e Salon du Livre de Paris (22-27 mars 2002).

«Que reste-t-il de Gibran?», *L'Orient littéraire*, n° 1, juillet 2006.

«Dictionnaire Gibran», *in œuvres complètes de Gibran*, Paris, Robert Laffont, coll. Bouquins, 2006.

NORIN Luc: *Autour de Khalil Gibran*, Belgique, La Renaissance du livre, 2002.

SALEM Otto Annie: *The Parables of Khalil Gibran*; *an interpretation of his writings and his Art*, Citadel Press, New York, 1963.

SHAYBOUB Edvick: *Gibran à Paris: Souvenirs de Youssef Hoayek,* Beyrouth, éd. FMA, 1995.

SHAHADI Walid: *A Prophet in the making*, Université américaine de Beyrouth, 1991.

SHERFAN Andrew Dib: *Khalil Gibran*: *The Nature of Love*, New York, Philosophical Library, 1971.

STETIE Salah: «Préface et présentation», in *Le Prophète,* Belgique, La Renaissance du Livre, 1998.

TAOUQ Boulos: *La Personnalité de Gibran dans ses dimensions constitutives et existentielles*, Thèse de doctorat, Strasbourg, 1984; éditions Bacharia, 1985 (3 vol.).

WADE Minkowski Anne: «Un autre Gibran», postface au *Prophète*, Gallimard, Folio Classique, n° 2335, 1992.

WATERFIELD Robin: *Khalil Gibran, un prophète et son temps*, Fides, 2000.

YAMMOUNI Joseph: *Gibran Khalil Gibran: l'homme et sa pensée philosophique*, Lausanne, éd. de l'Aire, 1982.

YOUNG Barbara: *This Man from Lebanon: A study of Khalil Gibran*, New Yorl, Alfred A. Knopf, 1945.

ZACCANajib: *Littérature libanaise contemporaine*, Université Saint-Esprit de Kaslik, Liban, 2002.

ZOGHEIB Henri: «Le phénomène Gibran aux Etats-Unis», *Arabies*, octobre 1993.

- حول جبران الرسّام:

SULTAN Fayçal: «Gibran le peintre», *L'Orient- Le Jour*, 6, 11, 13 et 15 mai 1981.

TARRAB Joseph: *Khalil Gibran, horizons du peintre,* Beyrouth, Les Documents de l'Agenda culturel, 2000.

Khalil Gibran, horizons of the painter, Catalogue du Musée Nicolas-Sursock, exposition du 17 décembre 1999 au 31 janvier 2000.

Khalil Gibran, artiste et visionnaire, Institut du Monde Arabe - Flammarion, 1998.

- حول فريد هولند داي:

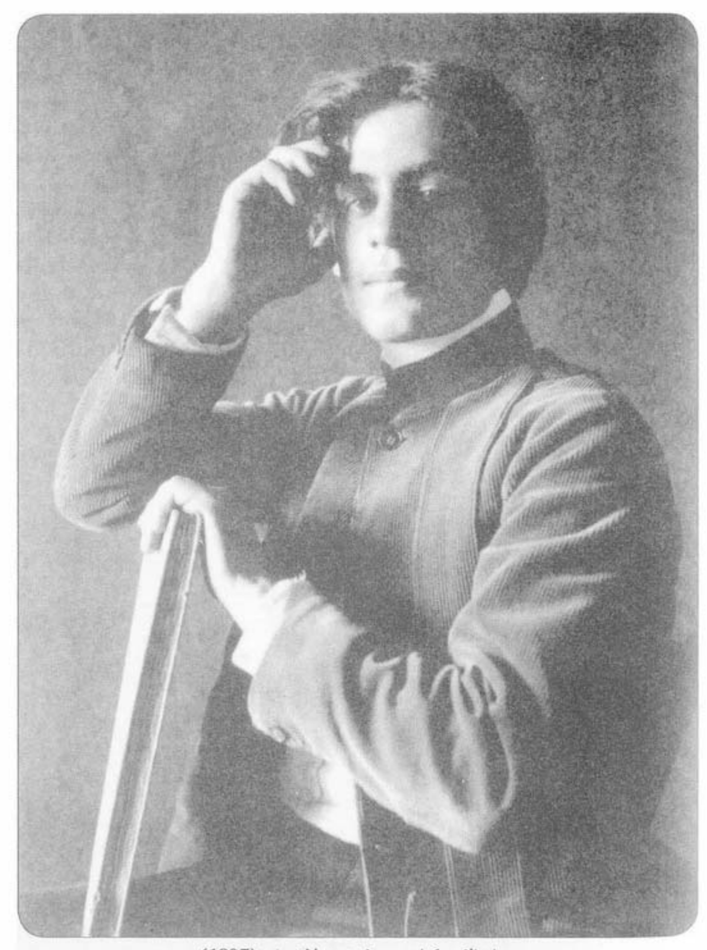
JUSSIM Estelle: *Slave to beauty: The Eccentric and Controversial Career of F. Holland Day*, Boston, David R. Godine, 1981.

PARRISH S.M.: *Currents of the Nineties in Boston and London: Fred Holland Day, Louise Imogen Guiney and their Circle,* New York, Garland, 1987.

ROBERTS Pam (sous la direction de): *F. Holland Day*, Van Gogh Museum, Amsterdam, 2001.

4 - المحفوظات:

- محفوظات متحف جبران - بشرّي.
- محفوظات جامعة نورث كاليفورنيا، شابل هيل.
- محفوظات ويتر باينر، جامعة نيو مكسيكو.
- محفوظات ألفرد كنوبف، مركز بحوث هاري رانسوم، جامعة تكساس، أوستن.
- محفوظات جامعة هارفرد - مكتبة هيوتون.
- محفوظات «النهار» و«الحياة» و«السفير» والـ*L'Orient-Le Jour*.
- مؤسسة المحفوظات الوطنية (بيروت).
- مجموعة متحف تلفير للفنون - سافانا.
- رسائل هيلانة غسطين.



جبران الفتى كما صوره فريد هولاند داي (1897).

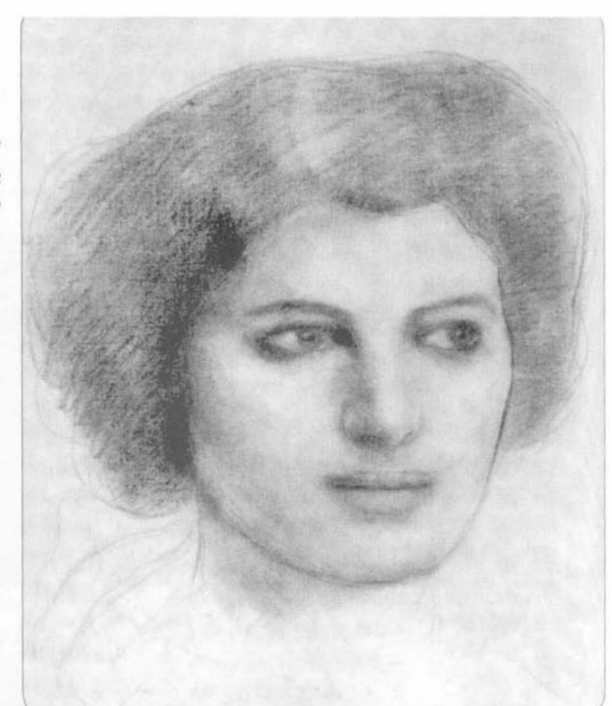


بشري عام 1912 (مجموعة غازي جعجع).

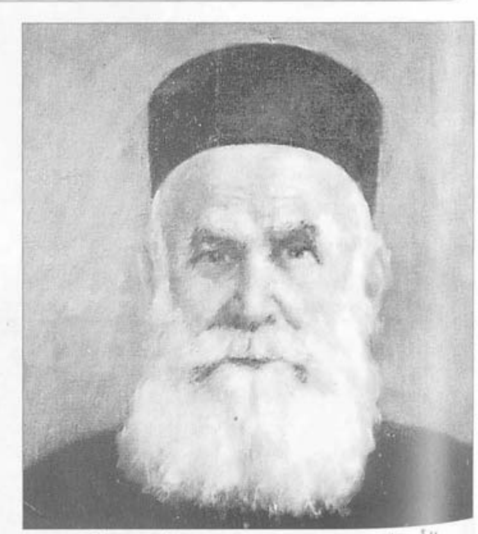


كاملة، والدة جبران، مع ابنتيها مريانا وسلطانة
(تصوير فريد هولاند داي، حوالى 1901).

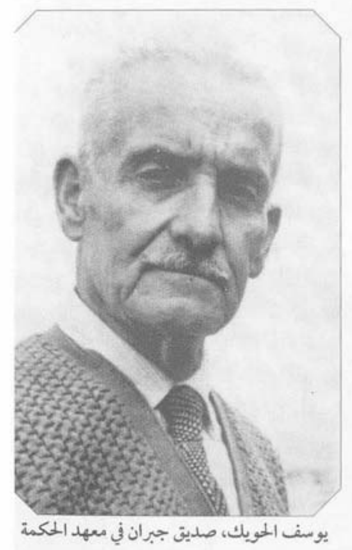
فريد هولاند داي:
المرشد.



مي زيادة
بريشة جبران
(لجنة جبران الوطنية).



الأب الماروني يوسف حداد، معلم جبران في معهد الحكمة.
(رسم قيصر الجميّل).

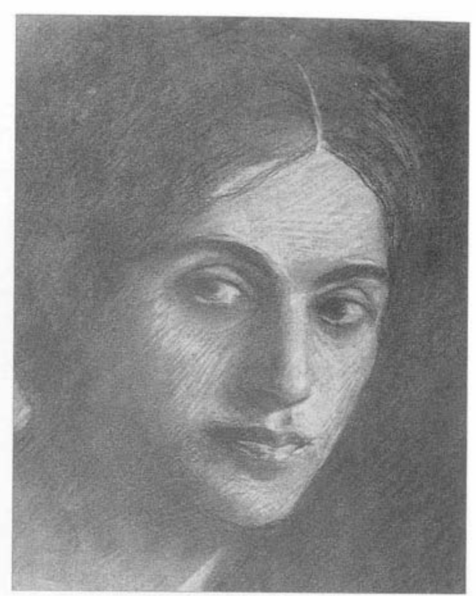


يوسف الحويك، صديق جبران في معهد الحكمة وباريس.

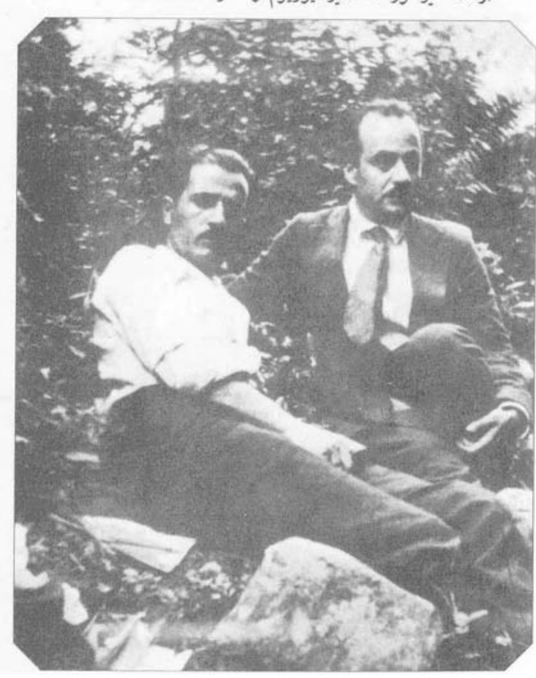




جوزفين بيبودي، "بوزي"، في عامها الثامن عشر.

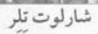


اميلي ميشيل كما رسمها جبران
(رسمة غير مؤرخة، تلفير ميوزيوم اوف آرت، سافاناه).



جبران وميخائيل نعيمة في كاهونزي.




شارلوت تِلِر



ماري هاسكل عام 1926 (لوحة للرسام الهولندي فان كونجننبرغ، تلفير ميوزيوم أوف آرت، ساڤاناه).

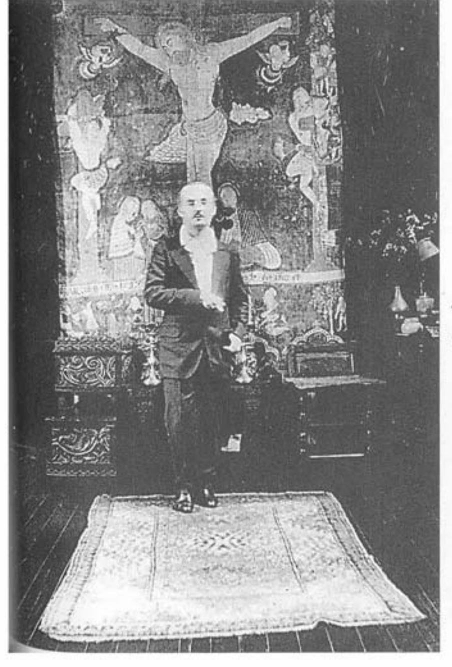
خليل جبران (الثاني من اليسار جلوساً) في محترف مارسيل - بيرونّو في باريس (1909).

عزيزتي هيلانة
ارجوك ان تكتبي اليّ او تخاطبيني بواسطة
التلفون عند وصول هذه الكلمة اليك
هنالك بعض أمور تتعلق بفقيدك
سليمان البستاني اريد ان ابحث فيها معك
وانت تعلمين انه ليس في الجالية السورية سواك
من يستطيع ان يساعدني على القيام ببعض
ما يجب علينا من تكريم تلك الروح الجميلة
الكبيرة الطاهرة
الله يحفظك يا ابنتي الحلوة والله يباركك
جبران

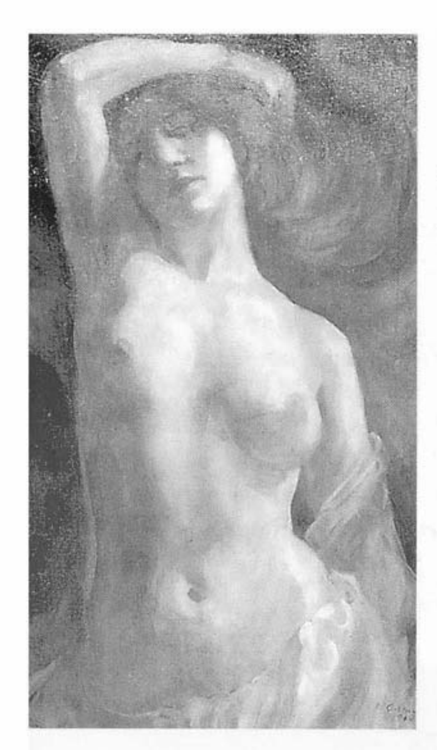
رسالة من جبران
إلى هيلانة غسطين
(1926).



هيلانة غسطين،
صديقة جبران اللبنانية
(الأولى الى اليمين).



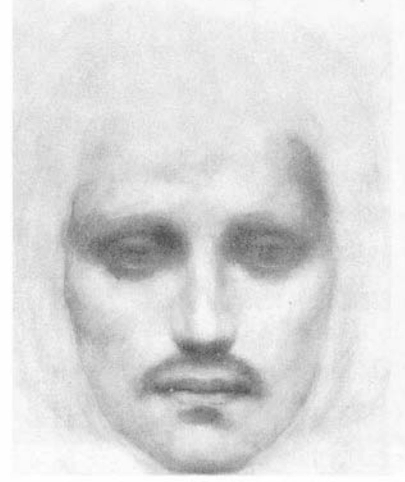
جبران في غرفته
أمام جدارية المسيح المصلوب.



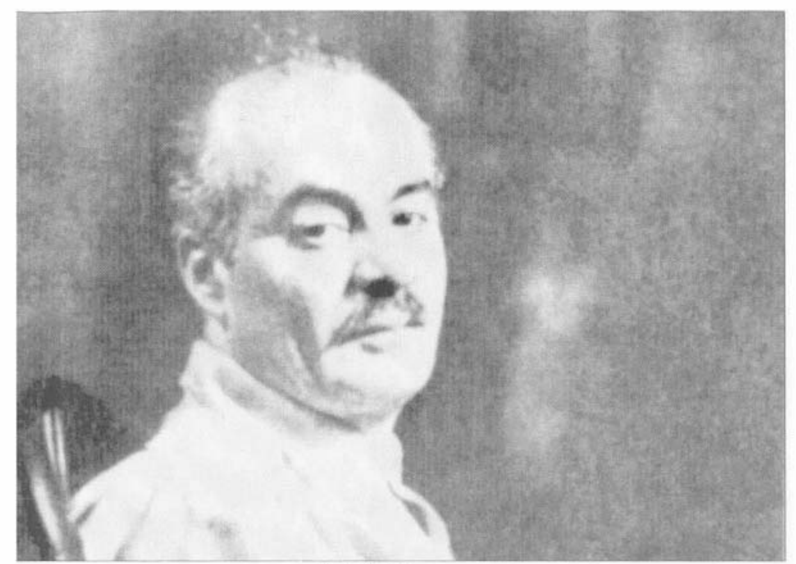
الخريف، مائية لجبران اختارتها الجمعية الوطنية للفنون الجميلة في باريس، عام 1909.
(لجنة جبران الوطنية)



مائية لجبران تزين «النبي» (1923)،
(لجنة جبران الوطنية).



«المصطفى»، صورة غلاف «النبي» (1923)،
(لجنة جبران الوطنية).



جبران في أواخر أيامه.

بعض أعضاء الرابطة القلمية. من اليمين إلى اليسار:
ميخائيل نعيمة وعبد المسيح حدّاد وجبران خليل جبران ونسيب عريضة (نيويورك، 7 أيلول 1920).

أنجز طبع هذا الكتاب
على مطابع هيدلبرغ - بيروت - لبنان

يتناول هذا الكتاب سيرة الأديب والرسام اللبناني العالمي جبران خليل جبران ويسلّط الضوء على نواحٍ مجهولة من حياته، من ولادته في بشري حتى وفاته في نيويورك. وقد نال الكتاب، المكتوب أصلاً بالفرنسية (2002) والمترجم إلى لغات عدّة منها الألمانية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية... نجاحاً كبيراً في البلدان الناطقة بهذه اللغات كونه تناول شخصية جبران وعلاقاته بأصدقائه وعشيقاته وأدبه وفنه وأفكاره وروحانيته بأسلوب عذب ومشوّق، مستنداً إلى معطيات جديدة وإلى وثائق نادرة يكشف النقاب عنها للمرة الأولى.

وتشكّل هذه السيرة مقاربة لصاحب **النبي** تسبر غور شخصيته عبر إظهار حداثته ورصد علاقاته الغرامية وتبيان موقعه في الأوساط الفنية والثقافية التي عرفها عن قرب وتجاوزها الى العالمية والخلود.

المحامي إسكندر نجّار من مواليد بيروت 1967. أصدر روايات عدّة بالفرنسية ويصدر له بالعربية بالتزامن مع هذا الكتاب **أوراق جبرانية** يضم وثائقاً غير معروفة عن جبران. صدر له عن دار النهار روايتان منقولتان إلى العربية **دروب الهجرة** (1999) و**الفلكي** (1999) ومجموعة شعرية *Khiam (2000)* وألبوم صور *La passion de lire* (بالتعاون مع حياة قرانوح)، (2005).

ISBN 9953-74-105-0

